أنا نجيب محفوظ
سيره ذاتية
تقديم
إبراهيم عبد العزيز

مقدمـــــــــــة

((حينما أتذكر طفولتي البسيطة وأنا اجري خلف عربة الرش في حي الحسين ، ثم اسمع اسمي في الصحف ومحطات التلفزيون العالمية، يحدث ذلك في نفسي عجبا ودهشة.
ولكن حينما أتذكر أنني احتفلت بعيد ميلادي السابع والسبعين (سنة حصولي علي نوبل) منذ أيام تتساوي في نفسي كل كنوز الدنيا)) * نجيب محفوظ

تقديـــــــــــم

نستطيع أن نؤكد يقينا أن استاذنا نجيب محفوظ الذي وصل بأدبنا العربي إلي العالمية بحصوله علي جائزة نوبل بعد حرمان وصل بنا إلي حافة اليأس والإحباط أنه كتب سيرته الذاتية بخطه وقلمه شعرا ونثرا وأنه قد تخلص منها لأسباب مقنعة له ، وإن لم تكن مقنعة لنا لأننا افتقدنا سيرة أديب (كان إنتاجه يعني نقطة انطلاقة عملاقة للرواية كفن أدبي) ونحو تطوير لغة الأدب في الدوائر الثقافية للغة العربية غير أن المدى كان أعظم من ذلك لان أعماله تتحدث إلينا جميعا – كما جاء في حيثيات منح الجائزة – أما متي كتب نجيب محفوظ سيرته الذاتية فإنه يذكر لنا في حديثه الهام مع الناقد الأدبي فؤاد

دواره (حين قرأت الأيام لطه حسين ، ألفت كراسة – أو كتابا كما كنت أسميها وقتذاك – أسميتها الأعوام ، رويت فيها قصة حياتي علي طريقة طه حسين)
كما كتب نجيب محفوظ أيضا الشعر الذي يتحدث فيه عن جانب أخر من سيرته يتعلق بحياته العاطفية ، فيعترف أيضا لدوارة (ومع قراءاتي للمنفلوطي كنت أؤلف (نظرات) و (عبرات) .. وأذكر إني في هذه الفترة كتبت الشعر هذا يرجع إلي سنتي ١٩٢٥، ١٩٢٦ كانت كلها (القصائد) في بادىء الأمر تدور حول الحب وربما ذكرت في بعض القصائد علاقات معينة وأسماء بطلاتها ثم يزيدنا نجيب محفوظ أيضا في حديث أخر للكاتب الصحفي عبد التواب عبد الحي حين يقول (ووقعت في الحب ولم يشفيني منه إلا قصائد طويلة كتبتها في الغزل العفيف)
ثم يعترف نجيب محفوظ اعترافا آخر حول طبيعة مذكراته وهو يتحدث عن مخاوفه من الزواج (وتفاصيله في يومياتي التي كنت أدونها يوما بيوم ، ثم توقفت عن الاستمرار في كتاباتها)
وإذا علمنا أن نجيب محفوظ قد تزوج عام ١٩٥٤، فإنه يمكننا القول علي سبيل الاستنتاج أنه ظل يكتب يومياته حتى قبل زواجه وهو ما يعني أن مذكراته قد غطت جزءا كبيرا من حياته حتى مطالع الأربعينيات من عمره .
ولم يكن الشعر واليوميات هي فقط ما سجل فيها أديبنا الكبير سيرته الذاتية، بل أنه يعترف أيضا لفؤاد دواره في حديثه المشار إليه (ألفت كراسة أخري وضعت فيها فلسفتي في الحياة والكون والخالق)
وحين يسأله دواره عن احتفاظه بكراسة (العوام) ؟ يجيبه ويزده (نعم، اعتقد أن الشعر والكراسة موجودان وإني احتاجا إلي نبش كثير حتى اعثر عليهما) ولم يتابعه الناقد الحصيف لحثه علي (النبش) وإن لم يكن مرجحا في حالة العثور عليها أن يطلع عليها أحد أو ينشرها وإن كان قد اعترف أنه لا يحتفظ بأوراقه الخاصة ولا حتى بمسودات رواياته وإنما يتخلص منها بطريقته المعتادة فيقول كنت أكتب وأمزق طيلة حياتي، كنت أتعمد التمزيق والتقطيع، كانت هناك أشياء لا يجب أن تترك في الورقة، أشياء لا تقال كثيرة نعم قد يكون فيها بعض الحقيقة ، وبها بعض حقوق القاريء والوطن ربما لكني لم أؤثر إن احتفظ بشيء مما اكتبه قط ،أنا أكبر مقطعاتي لم أكن أتحمل أن احتفظ بشيء عندي بعد أن أقوم بتبييض العمل وبمجرد أن أكتبه علي الماكينة وأبعثه إلي المطبعة كنت أحن إلي التمزيق والإبادة هكذا هو أنا كنت أريد أن يري القاريء مني ما أريد أن أقوله أنا له .
وعندما حاولت بالإلحاح مع مع نجيب محفوظ أن اعرف منه مصير الشعر والأعوام أجابني بعصبيه حرقتها وكأنه أراد أن يغلق باب السؤال تخلصا من إلحاح لم يحتمله وهو يمضي في أعوام عمره التسعين بل إنني ذات مره سألته سؤالا شخصيا فلم يجبني حتى جاءني تلميذه ومنقذه من الطعنة الغادرة د. فتحي هاشم ليسر لي في أذني : الأستاذ يطلب منك أن لا تسأله أسئلة شخصية !

وهكذا بمضي العمر لم يكن نجيب محفوظ يحب أن يتحدث أو يحدثه أحد عن حياته الشخصية وإن كان يرحب بالحديث في حياته الأدبية وما يتعلق بها من قضايا الأدب والثقافة ، وإن كان الحديث في الأمور السياسية هو الأقرب إلي قلبه كما لمست حينما كنت أقرأ عليه بعض الأخبار الطريفة التي التقطها من الصحف ، فوجدته يسألني : وإيه أخبار البلد ؟ يقصد مصر فهو يسعد بكل خبر يدل علي نهضتها وتقدمها وراحة مواطنيها ويشعر بالتعاسة والنكد حسب تعبيره لكل خبر يدل علي التأخر وخلافات ساكني مصر كما حدث عندما تداعت إلي مسامعه أخبار عن فتنة طائفية فظل مزاجه متعكرا وعبر عن مشاعره في (وجهة نظر) وهي مرجع هام في سيرته الذاتية التي يمليها علي الأديب محمد سلماوي بالأهرام مستدعيا ذكرياته التي تدل علي وحدة الوطن وتضامن مواطنيه باعتبار أن الدين لله والوطن للجميع .

لذلك لم يعد صدر الأستاذ يتسع وهو في خريف العمر لأي حديث شخصي يتعلق بسيرته الذاتية وإن اتسع طولا وعرضا وعمقا لكل حديث يتعلق بهموم الوطن وأماله لذلك يقول بلغت أرذل العمر واهتمامي بالحياة اليومية والسياسية لا يضعف بتقدم العمر، لهذا عندما أردت الاحتفال بعيد زواجه الواحد والخمسين علي صفحات مجلة نصف الدنيا المفضلة لديه والتي ينشر بها أحدث إبداعاته (أحلام فترة النقاهة) بادرني قائلا ما الذي فعلته ؟ مستنكرا الحديث عن خصوصياته ولما قال له أحد الحاضرين من الحرافيش: أليس ما نشر معلومة صحيحة ؟ فقال صحيحة ولكنها قديمة وحينما نشرت الحلقة الثانية احتفالا بعيد زواجه طلب مني الاكتفاء بما نشرته ، ولما سألته أيضايقه أيضا أن أتحدث عن حياته الشخصية وسيرته الذاتية في كتاب ؟ رحب بذلك ربما لأن جمهور الكتاب اقل بكثير من جمهور الصحيفة السيارة ولهذا فضل توفيق الحكيم نشر سيرته الذاتية (شجن العمر) في كتاب علي ألا ينشره الأهرام رغم إغراء هيكل له بآلاف الجنيهات . ولذلك اتجه عزمي علي كتابة سيرة ذاتية لنجيب محفوظ طالما أنه لم يكتب هذه السيرة التي سؤل عنها عشرات المرات وكان في كل مرة يحتج بأن سيرته قد تضمنها كتابان هما (نجيب محفوظ يتذكر) للأديب جمال الغيطاني و (مع نجيب محفوظ) للناقد أحمد محمد عطية ، ثم لحق بهما أخيرا كتاب الأديب والناقد الكبير رجاء النقاش (نجيب محفوظ صفحات من مذكراته وأضواء جديدة علي أدبه وحياته)كما ذكر الأستاذ أيضا أن الإذاعة سجلت له أيضا نوعا من السيرة الذاتية أذيع علي ثلاثين حلقة ، مرة لإذاعة صوت العرب ومرة أخري لإذاعة البرنامج العام كما سجل له طارق حبيب في التلفزيون نوعا أخر من السيرة وهذا ما جعل نجيب محفوظ يقول (لقد كتبت سيرتي الذاتية ونشرت وأذيعت أكثر من مرة وبأكثر من وسيلة ولو أني حين اشرع في كتاباتها بنفسي لابد أن أتذكر أشياء لم أقلها هنا ولا هناك إنما حقيقة الأمر أني كلما وجدت موضوعا يصلح لرواية فضلت كتاباتها علي السيرة الذاتية .

ولا يعني هذا أن نجيب محفوظ لم ينتفع بمذكراته وسيرته الذاتية التي لم يعلنها بل انه استفاد بها كثيرا في رواياته فيقول (أارجع إلي ذكرياتي أكتب عنها خواطر ، أضعها في ملف ، ثم أعيد قراءتها بعد ستة شهور، أجد أن بعض هذه الخواطر يمكن أن تكون شيئا غير راض عنه) ولا يختلف نجيب محفوظ في حرصه علي صيانة سمعته الشخصية والأدبية عن أستاذه توفيق الحكيم الذي يصفه بأنه (أصبح قريبا لي ، قرين روحي ، الإنسان الذي تجد نفسك فيه ولم يفصلني عنه بعد ذلك إلا الموت) لقد حرص توفيق الحكيم قبل رحيله علي أن يراجع كل أوراقه ويمزق منها كل مالا يراه مناسبا ليقترن باسمه ، بل أنه أحرق ما مزقه من تلك الأوراق حتى لا يبقي منها أثر، فعل ذلك الحكيم في أواخر العمر رغم أنه في سيرته الذاتية قد تحدث عن والديه حديثا صريحا جدا ، ولكن يبدو أن الإنسان كلما تقدم به العمر يكون أكثر حرصا علي سمعته وسمعة من يرتبطون به خاصة إذا كان قد رأى أدباء مثله قد كتبوا سيرتهم الذاتية وسببت لهم مشاكل لا يرغبونها ، يقول نجيب محفوظ محتجا إلي جانب هذه الأسباب بضعف قدرته علي التذكر لتبرير عدم كتابة سـيرته الذاتية (لقد وجدت أن هناك أشياء وتفاصيل ومتعددة لم أعد أذكر منها شيء، وامتلأت الذكريات بالفجوات فأكملتها ، وفي تصوري أن قدرة الإنسان علي الخلق غير محدودة ، وأن قدرته علي التذكر محدودة جدا، وهذه حقيقة لا نعرفها إلا بالتجربة ، افترض بأني سأحكي حكاية عن والدي ، فلابد عندئذ أن تشكك بنسبة سبعين بالمائة في إن ما أقوله لك مخالفا للواقع ، وخصوصا إذا ما وجدت في هذه الحكاية بعض التحسينات اللطيفة ، وبعض المواقف الحلوة والتفاصيل المحبوكة ، عند ذلك لابد أن تشكك كثيرا في أن الذي يعمل في صياغة هذه القصة ليس القدرة المحدودة علي التذكر ولكنها القدرة الامحدودة علي الخلق والترجمة الذاتية بصفتها الصريحة وصورتها التقليدية المألوفة ، لم تكن جذابة لي في الطفولة أو غيرها من المراحل ، ربما بسبب أن هذا الضرب من ضروب الأدب لم يكن ممكننا في بلادنا وأذكر أن عبد الحميد جوده السحار كتب مرة عن أسرته ومدح أخاه ولكنه مسه بشيء من البخل فقاطعه أخوه ، وقامت بينهم خصومة امتدت لفترة من

الزمن ، مع أنه كان حريصا علي أسرته، وكأنه يقدم أفرادها لغرباء أو لعيون فضولية معادية، ومع ذلك لم يعفه الحرص من الخناقة)

لذلك استوعب نجيب محفوظ الدرس مكتفيا بما صرح به قائلا (عندما يطلبون مني مقابلة تلفزيونية مثلا وأعرف أن الأسئلة ستكون شخصية أرفضها ، ليست هناك كبيرة أو صغيرة في حياتي لم تعرض علي الناس، إلا مالا يمكن أن يعرض، لنفترض أني شربت يوما (كاسين) هل علي أن أعلن هذا علي الملأ) هذا فيما يتعلق بحياته هو الخاصة أما فيما يتعلق بأسرته وأقربائه فيرى أن (الناس لا تحب أن يكشف أحد أسرارها ، والسيرة الذاتية نوع من كشف أسرار الآخرين ، أنت لم تستأذنهم في ذلك، وهم لم يسمحوا به قد تكون لي أخت وخلافاتها مع زوجها عادية ولكنها لا تحب أن يعرفها أحد، لو كتبت عنها لظنت أني فضحتها في الدنيا كلها، هذه بيئتنا وعلينا أن نسايرها) بعكس ما يحدث في البيئات الغربية بالنسبة للأديب حيث أنهم في الخارج دائما يحبون الأسرار التي لا يمكن أن تنشر أسراره، غرامياته ، إلي أخر هذه الأشياء)

وعقب حصول نجيب محفوظ علي جائزة نوبل ونشرت علي لسانه بعض ذكرياته في شبابه حيث كان يمارس حياته كأي مراهق ، غضب منه صديقه الذي يعتبره أستاذه – يحي حقي – وحدثه تليفونيا معاتبا يعيب عليه ويلومه لوما شديدا من باب العشم الذي بينهم أدبيا وإنسانيا ، مما أوقع الأستاذ في حرج بالغ جعل مزاجه متعكرا في ذلك اليوم رغم انتصاره وفرحته الكبيرة بنوبل فإذا كان قد حدث ذلك بالنسبة فيما يتعلق بشخصه فما بالك إذا اتصل الحديث بغيره ، فلا حل إذن إلا أن تتحول السيرة الذاتية لعمل فني تتوه فيه الأسماء والشخصيات لتبقي سرا مدفونا لدي حامل أسرارها وفي هذا يحدثنا الأستاذ: السيرة الذاتية إذا أضيفت إلي المادة التي يستمد منها الأديب كتاباته تصبح ينبوعا جيدا لأدبه وهذا ما أفضله في السيرة الذاتية لأنها تقوم علي الصدق والتعرية فهذا لا يتانسب مع بيئتنا ولا نتحمله ، ويؤكد نجيب محفوظ وجهة نظره التي استقر عليها بعدم كتابته لسيرته الذاتية بمثال أخر غير مثاله السابق عن صديقه الأديب عبد الحميد جوده السحار (فمثلا كتاب لويس عوض) جرح أخاه وأخته ووالده ، ولم يمس نفسه فهل هذه سيرة ذاتية ؟! دي السيرة الذاتية بتاعت أخوه وهذا لا يناسب مجتمعنا فالصدق والاعتراف يحتاجان لشجاعة وفي مجتمع حر ويشرح نجيب محفوظ مقصده بقوله في حديث آخر (لا تنس أن المناخ الذي نعيشه لا يسمح بكتابة الجانب الصريح جدا من الحياة لأن حياتنا الاجتماعية لا تتحمل الصراحة بل تفضل الأمور المحسنة أو المعدلة أو قل المزوقة حتى تمر بنا ميزة السيرة الذاتية في صراحتها وميزة كاتبها أن يكون صادقا حيث يقدم نفسه للناس كما هو حتى لو كانت هناك أشياء مؤلمة أو قاسية فلابد أن يعترف بها بكل الصدق والصراحة ، نحن لا نعترف بأدب الاعترافات لأننا بالفعل نطلب في مثل هذه الأعمال مراعاة العادات والتقاليد والأخلاق وغير ذلك بدعوى أنها أمور مطلوبة في العمل الأدبي حتى يكون صالحا للنشر ويقرأه الصغير والكبير في أن واحد مع انك لو تأملت هذا الأمر لوجدت أن الحقيقة مهما كانت مؤلمة أو قاسية ففيها التربية والأخلاق مع التوجيه والتبصير بالحياة وحقائقها كما هي دون أقنعة أو رتوش .

ويؤكد هذه الأشياء الخاصة قد تكون مادة ممتازة إذا تعامل معها بخياله وغير فيها كما يشاء لصالح الأدب، أما السيرة الذاتية الحقيقية فيجب ذكر الأسماء والتفاصيل الحقيقية وهذا لا يجوز ولا ينفرد نجيب محفوظ بهذا الرأي وحده التزاما بقيود الحرية والبيئة والمجتمع بل أن الحرافيش من أصدقاء نجيب محفوظ وهم أدباء وفنانون وصحفيون كبار أصابهم الانزعاج وغشيهم الفزع عندما علموا أن صديقهم المؤتمن علي أسرارهم يكتب رواية باسمهم (الحرافيش) ولم يهدؤوا إلا بعد أن أكد لهم أنه لا علاقة بينهم في الواقع والحياة كحرافيش حقيقيين وبين روايته رغم أنهم أسبق في الوجود من الرواية ، يقول الأستاذ : واذكر أن محمد عفيفي (الكاتب الساخر) حين عرف إنني اكتب الرواية قال لي (هتفضحنا) لكني طمأنته .

ويطمئن نجيب محفوظ نفسه أيضا ويقطع الطريق علي أي تـأويلات تـربط بين شخصيته وشخصيات رواياته فيؤكد(لم أضع شخصي في رواية ولم أكتب رواية حول نفسي أو شخصي ولن أفعل ذلك أبدا لأنني لو بدأت في الحديث عن شخصي فسيكون هذا ترجمة ذاتية أو روايـة ترجمـة ذاتيـة وأنـا لـم أقدم علي هذا العمل بعد .

ولكن الأستاذ بعد كل هذه التأكيدات لا ينفي أن ظلالا وأصداء سيرته الذاتيـة قد تناولـها فـي بعض أعماله ونشرها في البعض الأخر ، يقول أنا موجود بقوة في رواياتي **(قشتمر) هي نوع من السيرة الذاتية من خلال أربعة أبطال ومصر وأنا الذي أتكلم وأروي في رواية قشتمر) أيضا هنـاك أجزاء من هذه السيرة في المرايا والثلاثية وصباح الورد أما أصداء السيرة فهي تقطير لأصداء بعيدة حاولت استقطارها أو استحضارها من عالم مضى حاولت أن أجيء به وما كتبته في الأصداء إنما هو أصداء كاتب لم يتمكن من كتابة تفاصيل حياته فلم يبق له غير المعني العام .

أما أين شخصية نجيب محفوظ نفسه من كل ما كتب ؟ فقد اعترف بشكل محدد (أنـا كمـال عبد الجواد في الثلاثية أنه يحمل ما يزيد علي خمسين في المائة من واقعي ولكن بشكل مروي ولكـن مع ملاحظة أن التركيز الروائي تمر علي أزمته العقلية)

أما الشخصيات الحقيقية في حياة نجيب محفوظ والتي تأثر بها في حياته فيروي قصتها لفؤاد دواره وكيف أنها بدأت في اتجاه ثم انتهت إلي اتجاه آخر فيقول الحقيقة أن المرايا هي أقرب الأعمال التي بدأت وكأنها تنشد السيرة الذاتية بطريقة ما وكذلك رواية (حكايات حارتنا) إلي حد ما .. الاثنان بدأتا كنوع من السيرة الذاتية ثم تغير منهجها وسأوضح لك ..

في المرايا أردت أن أكتب سيرة ذاتية من نوع جديد ، تستطيع أن تسميها السيرة الموضوعية بمعنـي أن المتحدث فيها لا يحدثك عن نفسه وإنما عن المرايا التي انعكست فيها صورته عن اللذين عرفهم وتأثر بهم وأثر فيهم أي أنها سيرة ذاتية موضوعية من خلال الآخرين تحمست لهذه الفكرة وظللت أرصد جميع الناس الذين تأثرت بهم أو أثرت فيهم ثم حين شرعت في الكتابة بأمانـة المحقق الموثق وجدت أن الحصيلة قليلة جدا لا تكفي لعمل شيء .. ووجدت في الوقت نفسه أن متابعة شخصية واحدة من الشخصيات الكثيرة التي أريد الكتابة عنها تتطلب وقتا طويلا قد يصل إلي أضعاف ما يستغرقه الكتاب كله . فلم يكن أمامي إلا أن أحول الشخصيات الواقعية إلي شخصيات روائيـة ، أخذت من الواقع انطباعي العام عنها وأكملته بالخيال . الكثير منهم جرى حوار بيني وبينهم وعشنا مواقف مشتركة، ليس منهم من عرفته علي السماع أبدا كلهم كان بيني وبينهم اتصال شخصي ومعاشرة طالت أو قصرت لم يكن هدفي أن يرسم كل منهم صورة لي من وجهة نظره بل أن أقول لك :هؤلاء هم الناس اللذين عرفتهم وهذا هو انطباعي عنهم ، فحين تعرف انطباعي عنهم فسوف تعرفني أنا إلى درجة كبيرة ، القراء بالنسبة للمرايا قسمان قسم كان معاصرا لي عرف الكثير وعرف الأصل والإضافات وقاريء حديث أخذها على أنها شخصيات روائية لأنه لا يعرف أصولها .

ثمة اعتراف آخر للأستاذ يتعلق بتجربته مع الحب والتي عبر عنها شعرا غزليا تخلص منه هو ويومياته الأعوام ثم عبر عنه روائيا في قصته (عايدة شداد) أو كما يذكر أستطيع أن أقول أن ما كتبته في قصر الشوق يمثل جوهر تلك القصة وهو الحب الأول في حياتي ورغم تلك الإشارات الايجابية الصريحة لنجيب محفوظ عن سيرته الذاتية في أعماله الأدبية إلا أن الأدب يظل أدبا والواقع يظل واقعا وهو ما يتفق فيه الأستاذ حينما يقول (عندما تكتب أي شخصية حتى شخصية المبدع في عمل فني فهي تكتسب أبعادا جديدة مناسبة للفن ، وأكبر خطأ يقع فيه المؤلف أن يفرض هذه الشخصية علي العمل الأدبي وسأقول لك كيف تنتقل الشخصية من الواقع إلي الرواية ؟ عندما تبني بيتا تجلب أحجارا وكتلا حجرية من الجبل وتشكلها حسب نوع البناء الذي ترغبه .. أنت تأخذ المادة الخام وتشكلها) إذن – والحديث لنجيب محفوظ – (كل ما أستطيع قوله هو أن السيرة الذاتية مازالت لها ضرورتها الذاتية بالرغم من كل ذلك لأن الواقع الفني لابد أن يسير بك من الخاص إلي العام أما

الواقع الحقيقي فخط سيره عكسي من العام إلي الخاص ، لذلك يصح أن تكون سيرتي الذاتية حين اكتبها جديدة بالرغم من كل شيء ولكن المسالة أنه ليس من المعقول أن يكشف الإنسان كل أوراقه والمائدة مازالت ممتدة أمامه (وضحك ضحكة عريضة) وهكذا نقلها لنا دوارة في حواره مع أديبنا الكبير الذي لا تزال ضحكته ممتدة تعدنا وتمنينا وفي نفس الوقت لا تعد بشيء حتى إذا سؤل وهو يمضي إلي التسعين من عمره عن سيرته راح يحاول أن يقنعنا بتواضعه أنه ليس ثمة شيء في حياته يستاهل الكتابة أو كما عبر بنفسه (ربما لأنني أرى أن الذي يكتب سيرته ذاتية للناس يري أن فيها ما يستحق مجهوده في الكتابة ومجهود الناس في القراءة ، وأصارحك حين أقول أن معظم السير الذاتية التي استمتعت بها كقاريء كانت لزعماء سياسيين أو قادة عسكريين ، وذلك لما تركوه من بصمات في التاريخ ، حيث كانت حياتهم جزءا لا يتجزأ من حياة أممهم وقد قارنت ذلك بحياتي الرتيبة العادية سواء في الصغر أو في الكبر فوجدت أن حياتي لا تستحق كتابة سيرة ذاتية .

هكذا انتهي بنا نجيب محفوظ إلى نتيجة ارتاح إليها وأبرأها من ذمته من كتابة سيرته الذاتية التي طال الشوق إليها ولكننا لبثنا في انتظار ما لا ياتي ، حيث قال لنا الأستاذ " مذكرات الحياة كتبت في كل ما كتبت وبثثتها في كل ما قلت ، وهكذا سد الأستاذ باب الريح ليريح ويستريح . ولكننا في هذه الحالة - عفوا يجب ألا نصدق أستاذنا نجيب محفوظ - فهو لاشك رغم تواضعه يعرف حجم موهبته ويقدر تماما أهمية أن تكون له سيرة ذاتية بخطه وقلمه ولكنه للأسباب التي أسلفناها فيما يتعلق بظروف المجتمع وتقاليده فضل أن ينأى بنفسه عن الدخول في معركة جديدة – بعد أولاد حارتنا ليس بحاجة إليها حتى لو كان ذلك من أجل نشر سيرته الذاتية ليس لأنه لا يوجد فيها ما يستحق كما يقول أو أنه نشرها في أحاديثه الصحفية والإذاعية والتلفزيونية فلم يعد هناك من جديد يقوله بل لأنه يعيش في مجتمع لا يحتمل الصدق أو يقدر أن تكون صريحا ، أما حياة نجيب محفوظ فليست هي كل ما قاله ونشر على لسانه حتما ليست هي كل سيرته لأنه كما اعترف بصدق (وحياتي أوسع وأشمل مما تم نشره سواء علي المستوي الخاص أو العام) .

وقد شغلتني كما شغلت الكثيرين من محبي الأستاذ نجيب محفوظ وعارفي فضله علي الأدب العربي قضية: كيف لا يكون لمن حصل لهذا الأدب علي الاعتراف بعالميته ، سيرة ذاتية ؟ أنها خسارة وأية خسارة؟ ولكن ماذا نفعل وللأستاذ أسبابه الخاصة والعامة فإذا كان المجتمع لم يحتمل نشر رواية له هي (أولاد حارتنا) والممنوع طباعتها في مصر وكاد أن يغتال بسببها مع أن الأجانب الذين منحوه جائزة نوبل قد قرؤوا موضوعها علي أنه البحث الأزلي للإنسان عن القيم الروحية) فما بالك بقصة حياة كاتبها وكيف يستطيع بصدقه وأمانته مع نفسه أن يواجه المجتمع بظروفه وقيوده.

ومع ذلك لم يحرمنا نجيب محفوظ وهو في سن الثمانين من تقديمه لملمح فيه ملاحة وطرافة من ملامح سيرته الذاتية، وذلك برضائه واعترافه حتى وإن كانت نوعا من السيرة المراوغة، وذلك حين أرخ لحياته بأشهر الأغاني التي سمعها من الطفولة إلى الشيخوخة مرورا بالمراهقة إنها الأغنيات والمدندنات والألحان التي صاحبت وتغلغلت وسكنت مشوار حياة الأديب المصري العالمي في الطفولة والمراهقة والحب والطريق ونحو السماء والشيخوخة ..الأغاني تدون السيرة الذاتية في ملحمتها المتفردة ، وذلك كما قدمت لها الأديبة سناء البيسي على صفحات مجلة نصف الدنيا التي أنشأتها ورأست تحريرها ، ولأهمية هذه السيرة الذاتية الغنائية لاعتراف أديبنا العالمي بها وهي المرة الأولى والأخيرة التي يؤكد فيها بقلمه وخطه أنها سيرة ذاتية لحرفوش من الحرافيش كما دونتها الأغاني فإننا هنا نعيد نشرها في هذا الكتاب حفظا لها من الضياع والنسيان الذي غالبا ما يصيب أي نص ينشر في الصحف خاصة وأن هذا النص الذي بين أيدينا قد كتبه نجيب محفوظ ونشره بخط يده في ١٤ فبراير ١٩٩٩، باعتباره يمثل اعترافا مثيرا ومدهشا بجانب من سيرته بعد أن ضاعت الأعوام وشعر الغزل وكراسة فلسفته في الحياة فلم يبق لنا إلا الأغاني .

وها هي تؤرخ لحياة مبدعنا العالمي كما تؤرخ لمراحل تطور الأغنية منذ أن سمعها لأول مرة تطرق أذنه " نام وأجيب لك جوز حمام" إلى أن أعجبته بعض أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب التي كان يرددها بينه وبين نفسه ولكن في الحمام زمان باعترافه لسناء البيسي ومع حبه للأغاني إلى الدرجة التي يؤرخ بها لنفسه إلا أنه كما يقول " لم أحاول كتابة الأغاني وإن دونت أغاني الزمن الجميل على لسان أبطال رواياتي "ولا يتردد الأستاذ في أن يدندن في الشيخوخة ببعض الأغاني القديمة التي تستدعيها ذاكرته ومنها هذه الأغاني التي تؤرخ لسيرته الذاتية:

١ - الطفولة :

عصفوري يمه عصفوري

لا لعب واوريله أموري   يا بلح زغلول   يا حليوه يا بلح

. . .   . . .

التوت التوت شرباتــــــــه   حلوة التوت يا حلاوته

ياعم حمزة - أحنا التلامذة   ما يهمناش فى القلعة نبات ولا المحافظة

البحر بيضحك ليه وأنا نازله أدلع أملا القلل

مصر يحييك لأهلك

قمر له ليالي يطلع لم يبالى

ما بقاش فيك إلا أيام سعدك

٤- الطريــق

عطشان ياصبايا دلونى ع السبيل   يا للى بدعت الفنون وعرفت أسرارها

. . .   . . .

يا وابو قوللى رايح على فين   أتانى زمانى بما ارتضى

. . .   فيا الله يا دهر لا تنقضى

شد الحزام على وسطك غيره ما يفيدك   أمنت لك يادهر ورجعت خنتى

. . .   . . .

أنا المصري كريم العنصر   نصيبك فى الحياة لازم يصيبك

. . .   . . .

من بعد تلاتاشر سنة   واللى انكتب على الجبين لازم تشوفه العين

ارتحت بعد التعب

٥ - نحـو السمــاء

سلوا قلبى غداة سلا وتابا
بربك يا من جهلت الغرما
. . .
يا نسيم الصبا تحمل سلامى
أدر ذكرى من أهوى ولو بملامى
. . .
رأيت الهلال ووجه الحبيــب
يا ال مصر هنيئا فالحسين لكــم
. . .
أهلا ببدر أتم روح الجمــــال
مولاى كتبت رحمة الناس عليــك

٦ - الشيخوخــة

عندما يأتي المســـاء
اللحى راح راح ياقلــبى
. . .
من أد إيه كنا هنـــــا
ودع هواك وأنساه وانسانى
عمر الى راح ما هيرجع تانى
. . .
يا عشرة الماضي الجميل ياريت تعودى
. . .
مقدرش أنساك
وقالت لقد أزرى بك الدهر بعدنا
. . .
فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهــر
عشنــا وشفنــا كتير
واللى يعيش يشوف العجب

فهل تشفى هذه الأغاني شوقنا ؟ بالطبع لا
أذن ما العمل وهذا هو الواقع أمامنا يحرمنا من الإطلاع على السيرة الذاتية الحقيقية لنجيب محفوظ بخطه وقلمه ؟
فكر كاتب هذه السطور في طريقة تحقق لنا على الأقل جزءا من الأمل الغائب والأمنية التى حرمنا منها فكان هذا الكتاب الذي حاولت فيه على قدر المستطاع أن أتتبع السيرة الذاتية التى بثها نجيب محفوظ في أقواله وأحاديثه وتصريحاته على مدى سنوات عمره المديد وهى أشبه بصورة ممزقة إلى قطع صغيرة وفتافيت مبعثرة ، عملت على قدر جهدي واجتهادي أن أجمع ملامح تلك الصورة بعضها إلى بعض في سياق متصل موثق بزمان ومكان بما يرسم لأديبنا العامل سيرة ذاتية تراعى على قدر الإمكان تسلسل مراحل حياته من الطفولة إلى الكهولة وما حفلت به تلك الحياة من كفاح أدبي تشي بك مع قضايا المجتمع وهمومه وأحداث الوطن بآماله وآلامه ، وانتصاراته وانتكاساته ٠ وما كان لى من فضل في هذا العمل إلا أن جمعت أجزاء تلك الصورة المتفرقة لنجيب محفوظ ليضمها سياق واحد يغطى ملامح سيرته الذاتية مما هو معلوم لنا ومنشور بالفعل ولكن بدلا من أن نقرؤه في متفرقات موزعه بين الصحف والكتب ، فلنقرئه في كتاب واحد حرصت على أن يكون المتحدث الوحيد فيه هو نجيب محفوظ نفسه دون تدخل مني إلا بحرف أو كلمة أو عبارة قصيرة في أضيق الحدود وضعتها بين الأقواس لمجرد الربط بين أجزاء صورة السيرة الذاتية لأديبنا العالمى الكبير صاحب الفضل في

هذا العمل بما منحنا إياه من فخر وشرف فصحبته والتعرف عليه ، فعشنا في عصره واقتربنا من فكره وجلسنا إليه وتحدثنا معه ، فأحبناه وأحبنا ، وتعلمنا من سلوكه وذوقه وإنسانيته أكثر مما تعلمنا من أدبه وقصصه ورواياته ، وكيف لا نتعلم منه وهو يدعو لمن حاولوا اغتياله وهو على فراش المرض في العناية المركزة " الله يهديهم ، الله يهديهم " .

أنه شخصية ترفض الانتقام وترفق الشعور بالكراهية لأن الكراهية كما قال لى – تلوث النفس ، وهو لا يحب أن يلوث نفسه وكيف لا نتعلم منه وهو ينظر إلى سنوات عمره راضيا بها ، بخيرها وشرها ، وقد وضعها تحت شعار " من جد وجد " ، حيث تعلم وعلمنا وأن الصبر الايجابي مفتاح الفرج ، الصبر عندى ليس مرادفا للاستسلام ، إنما باعث على العمل دون انتظار النتيجة ولكن لابد أن تتحقق النتيجة لمن جد ووجد حيث عبر المجتهد نجيب محفوظ عن درس عمره " حياتى بدأت بإهمال طويل ، وانتهت باهتمام كبير " ذلك لأن من جد وجد ومن زرع حصد ، لهذا عندما سألته وألححت فى السؤال عن العنوان الذى يختاره ليضعه على ملف حياته ؟ جاءت إجابته مصدقة لكفاحه وجهاده فى الحياة : " اجتهد وتوكل على الله "

وبقدر ما كانت هذه الكلمات دالة على سيرة أستاذنا نجيب محفوظ ومسيرته فى الأدب والحياة ، فهى أيضا دعوة لكل فتى وفتاة وشابة، خاصة وهو يوضح الفرق بين جيله وجيل الشبان

" ضاع معظم وقت جيلنا فى تحطيم الحواجز ، وهذا الجيل ، إصراره سيجعله يتساوى مع شباب العالم المتحضر ".

ويطمئن أديبنا العالمى شبابنا رغم معاناتهم موجها إليهم حديث مجرب " أقول لهم : إيه الأزمة التى نمر بها ، سبق أن مررنا بأشد منها ، ولكننا عشنا وانتصرنا ، فلا أدعوه إلا إلى التفاؤل والأمل والى استمرار العمل الايجابي بإيمان وثقة و الاعتماد الكامل على الإرادة والفكر والعمل ، كقيم رئيسية فى الحياة " ، والسيرة الذاتية لاستاذنا نجيب محفوظ هي خير ترجمة لأقواله وأفعاله ، وجهاده فى الأدب والحياة ، فهيا بنا إليه لنعلم منه قصته نتعلم منه الحكمة ، إنه معكم ، يتحدث إليكم ، فقد حضر المعلم قم إليه ووفه التبجيلا ، كاد المعلم أن يكون رسولا ، إن الأستاذ يتحدث فاستمع إليه وأنصت ، فالحكمة على لسانه ، والرزانة في كلامه ، والأدب فى بيانه ، والذوق جزء من خلقته ، الأخلاق طبع فيه لا تطبع ، وسيرته التى بين أيدينا أفضل وصف وواصف .

والعذر لى إن قصرت فعلينا أن نعمل وليس علينا إدراك النجاح ، ويكفينا أجر واحد هو أجر من اجتهد وأخطأ ، وان كان لنا حق التطلع إلى الأجرين ، أجر من اجتهد وأصاب ، وان كان يكفينا فى نهاية الرحلة شرف المحاولة مهما كانت النتيجة .

طفولتي وصباي واحلامى

إن حياتى مثل تورته الفرح " تستطيع بالسكين أن تقطعها إلى مراحل ، كل مرحلة على حدة "

الميلاد ١١ / ١٢ / ١٩١١

التخرج مايو ١٩٣٤

التوظف نوفمبر ١٩٣٤

أول شيء نشر لي في الصحف ١٩٢٨

أول كتيب مترجم قدمته عام ١٩٣٢

أول رواية ١٩٣٩

تاريخ زواجي ٢٧ / ٩ / ١٩٥٤ ، وطبعا تواريخ ميلاد " بناتي "

يوم ميلادي ، موعد الإنسان مع رحلة شفاء يتخللها لحظات سعادة تأتى وتروح كالبرق

أنا نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم أحمد الباشا (السبيلجى) والسبيلجى هذه لقب مثل الحرافيش أطلقها أدهم رجب فقد كان لى جد ناظر كتاب ، وللكتاب سبيل ، وكنت أحكى لهم هذه الحكاية عن شغل زمان ، فقالوا لى اطلع يا بن السبيلجى ٠
سألت أمي ذات يوم من هو " محفوظ " ؟
إن أبى اسمه عبد العزيز ، فلماذا تدعوني بنجيب محفوظ ؟
ضحكت من قلبها ، وقالت : أنت نجيب محفوظ ، هذا هو اسمك ، أما والدك فهو عبد العزيز إبراهيم ولهذا الاسم قصة : عند ولادتى بك نصحتنى القابلة باستدعاء الطبيب لأن حالتى كانت سيئة ، فذهب والدك إلى أشهر طبيب توليد في مصر ، وبعون الله استطاع الدكتور نجيب محفوظ أن يخرجك سالما إلى الحياة ، لذلك أطلعنا عليك اسم نجيب محفوظ ، تيمنا باسم هذا الدكتور
وأذكر أن صديقي الكاتب ثروت أباظة قد أخذني بعد ذلك بسنوات طويلة للقاء د ٠ محفوظ ٠ فقدمنى له قائلا : هذا أحد مواليدك يا باشا .
والباشا لم أعرفها إلا يوم وفاة أبى وأطلعت على شهادة ميلاده ، فسألت أخى الأكبر عن حكاية الباشا فقال لي : أنها لقب عائلة من رشيد ينحدر جدنا القديم منها وعائلة الباشا موجودة علاوة على رشيد في الفيوم .

بيتنـــا

ولدت يوم الاثنين في البيت رقم ٨ في شارع (ميدان) بيت القاضي في الجمالية في الحسين .
كان المكان الذي اتخذ منه الميدان اسمه عبارة عن بيت كبير يقوم المرازه المعماري على البواكى التي كان يقال أن قاضى القضاة كان يجلس تحتها ليحكم في القضايا ، وعلى مقربة من بيت القاضي هذا كان بيت المال وقبو بيت القاضي كان عامرا وكان يؤدى في جانبه الأخر إلى سيدنا الحسين وكان بيتنا يطل على درب قرمز وكان الاعتقاد أن قبو درب قرمز مسكن عفاريت وكنا ونحن صغار نخاف منه ، وكنا نتحاشاه خاصة في رمضان حين كنا نريد المرح واللهو .
أتذكر البيت الذي كنا نسكن فيه بكل تفاصيله ، لم يكن البيت كبيرا ، لكنه كان مكونا من ثلاثة طوابق ، كل طابق فيه لا يتسع لأكثر من غرفتين ، فقد كنا نسكنه رأسيا وليس أفقيا ، ففي الدور الأول مثلا كانت هناك غرفة المسافرين التي كان من يأتون لزيارتنا من خارج القاهرة يبيتون فيها ، أما غرفتي فكانت في الدور الثاني مع والدتي ، وكان في الدور الثالث يسكن أشقائى في غرفة ، وشقيقاتي في الغرفة الثانية ، إلى أن تزوجوا جميعا وتركونا إلى بيوت أخرى لقد تركنا هذا البيت بعد ذلك ، وانتقلنا للعيش بحي العباسية وأذكر أننى عدت ذات مرة لزيارته فوجدته قد تحول إلى مقهى ، وفى زيارة تالية وجدته قد هدم وأقيمت مكانه عمارة قبيحة الشكل ، فلم أذهب إليه ثانية ٠
كان في مواجهة قسم الشرطة ، وأذكر إن كانت لبيتنا شرفتان كبيرتان تطلان على الميدان ، كانت تغطيهما مشربيات جميلة ، ومازلت أذكر أنه في ركن أحداهما الأيمن العلوي ، بنى (اليمام) عشا له ، ولقد كانت متعتي وأنا طفل صغير أن أتفرج على هذا العش وعلى اليمام الصغير الذي خرج من البيضات التي فقست ، ومن هذه الشرفة أيضا شاهدت معارك ثورة ١٩١٩ فقد كان هناك قبو في الميدان طالما دارت فيه المعارك بين أفندي ورجال الأزهر الذين كانوا يقذفون الإنجليز بالحجارة والعسكر والخيالة الإنجليز الذين كانوا يطاردونهم ويطلقون عليهم الرصاص .

ملعبنا

أنى أذكر جيدا أننى بين سن السابعة والعاشرة كنت التقى يوميا مع الأصدقاء في حي الحسين الذي كنا نسكن فيه آنذاك ، فما أن نعود من مدارسنا حتى نلتقي بعد الظهر في الفناء الذي يقع أمام منزلنا والذي كان معظم الأصدقاء يسكنون بالقرب منه ، ونظل نلعب حتى يحل الظلام ، فيبدأ أهلونا في النداء علينا للعودة إلى البيت ٠

أنى مازلت أذكر الأسماء العائلية لمعظم هؤلاء الأصدقاء ، لكن لا يحضرني الآن إلا الاسم الأول لواحد فقط منهم ، فقد كان اسمه همام واذكر أننى ذهبت ذات مرة مع والدتي لزيارتهم بمنزلهم المجاور لقسم الشرطة وبينما جلست والدتي مع والدته في البيت خرجنا أنا وهمام إلى الميدان الصغير المجاور لمنزلهم وظللنا نلعب إلى أن انتهت زيارة الوالدتين ٠

والحقيقة أن هذا الميدان كان ملعبنا لبضع سنوات ، فلم تكن هناك سيارات في ذلك الوقت تمر به ، وكان أهم ما يحدث فيه هو مرور عربة الرش التي كان يسحبها بغلان ، وأذكر أننا كنا نجرى وراءها حتى تخرج من الميدان .

رمضان شهر الحرية

بيت القاضي ، هو المكان الذي شهد عندي حبو الطفولة وبواكير الصبا حتى صار بطابعه الخاص جدا محفورا في ذاكرتي وكل جزء منها – جدران المنازل التي شيدت من أحجار ضخمة تعبر عن صلابة عصر وقوة بنيانه ، القبو الذي تدلف من تحته حركة البشر، نقطة الشرطة حصن الأمان لأهالى الحى الطيبين ، أما الجمالية فهو المكان الأرحب الذي يستوعب حركة الأحياء والنشاط الجمعي لأهلها وسكانها ، وهو نشاط لا يهدا على مدى النهار ، ومعظم ساعات الليل حتى يتردد صوت مؤذن الفجر فتسمع فقرات الإقدام في سعيها لأداء الصلاة ، لذلك أنا كتبت عنها كثيرا كما شاهدتها بوقائعها الحقيقية ، وكانت كتابة محاطة بالشوق والحنين ، هذه الأحياء تشكل مجالا للأفراح وإشاعة البهجة ، وهى من مظاهر الإيمان الحقيقي .

وكان ميدان بيت القاضي يبدو في فرح مستمر لمدة شهر كامل ، فإذا ما جاء العيد وصل الفرح إلى ذروته وعلت مباني الشارع زينات الأفراح ، وقد كان أجمل ما يسعدني أن المنازل التي تقع في الحى كانت وقت رمضان تفتح أحواشها للناس ، وكانت تأتى بالمنشدين الذين كانوا يقيمون ما كان يسمى بالتوليد النبوي ، وهو مثل حلقات الذكر تنشد فيه قصائد المديح في النبى ، وكانت هذه المنازل تتبارى في من يأتي به للإنشاد ، وكنا نحن ننتقل من منزل إلى أخر نستمتع بهذه الحلقات ٠

وكانت هذه القصائد بديعة جداً ، وكان كل واحد من المنشدين له جوقة خاصة به حيث كان يغنى وترد عليه هذه الجوقة ، وكنت وأنا طفل أستمتع جدا بسماع هؤلاء المنشدين ، وكان صوتهم هو أول صوت منغم أسمعه خارج منزلنا رغم أنه كان لدينا الفونوغراف ، ولكن أصواتهم كانت تمتعنى وكان هناك بيوت أخرى تعمل حلقات ذكر ، وكانت لا تخلو هى الأخرى من الأنغام والأناشيد فضلا عن أمثالنا في السن الصغير الذين يملأون الشوارع بالفوانيس والأغانى ، فيبدو الحى كله وكأن به فرحا طوال الثلاثين يوما وكأننا في مهرجان فنى كبير يستمر حتى نسمع في النهاية آذان الفجر من الشيخ على محمود الذى كان يتمتع بصوت جميل لا مثيل له ، لدرجة أن بعض الناس كانوا يأتون إلى القاهرة لكى يستمعوا إلى آذان الشيخ على محمود من فوق مئذنة جامع الحسين ، ثم يعودون بعد ذلك إلى محافظاتهم ، وكان الشيخ على يسكن في أول حارة الوطاويط أمام الحسين فكان يعبر الطريق إلى جامع الحسين يوميا لكى يرفع آذان الفجر من فوق مئذنته ٠

وكان رمضان بالنسبة للأطفال في هذه الأيام شهر الحرية لان الأهل كانوا يسمحون لنا بالأشياء التي كانت ممنوعة في بقية أيام السنة ، فقد كنا في ذلك الوقت أطفالا صغارا لا يسمح لنا بالتغيب عن البيت طويلا فقد كنا نعود من المدرسة للمذاكرة بالمنزل ، وقد يحدث ما بين يوم وأخر أن يسمح لنا بالنزول لبعض الوقت إلى الشارع لملاقاة أصدقائنا ، حتى أننا إذا لعبنا تحت البيت كانوا يراقبوننا من

الشبابيك (تقول لى والدتي) خليك قريب تحت (عيني) لاتخرج عن الحدود لكننا كنا سريعا ما نعود الى البيت حين يحل موعد النوم ، أما غير ذلك فلم نكن نخرج إلا بصحبة من هو أكبر من، ولكن ما إن يجيء رمضان حتى تفتح الأبواب لكى نخرج الى الشارع حتى في الليل دون أن يقال لنا إلا نتأخر ودون أن يذكرنا أحد بموعد للعشاء أو للنوم .

وكانت هدية رمضان الأولى بالنسبة لنا هى الفانوس الذى كانت نضيئوه أنذلك شمعة .

ولكن الأكثر أهمية في رمضان بالنسبة لنا كأطفال في مثل هذه السن الصغيرة أن الأهل كانوا يسمحون لى أن أخرج إلى الشارع حتى اجتمع بالأطفال سواء بنات أو صبيان، وكان لهذا الاجتماع وقع خاص في أنفسنا حيث كنا نجتمع في مكان متفق عليه فيما بيننا ثم ننطلق حاملين الفوانيس ذات الألوان الزاهية وندور على جميع بيوت ميدان بيت القاضي مرددين أغاني رمضان في فرحة شديدة ، وكنا نستمر في هذا العمل كل حسب قدرته على السهر والغناء إلى ان يصيبنا الإعياء ، فكان ذلك هو ما يعيدنا إلى البيت وليس أوامر الإباء وكان النعاس عادة ما يغالبنا مبكرا أو نتمشى أنا وأمي وأختي الكبيرة في الأحياء المجاورة لحى الحسين ، ونسمى هذه الجولة : من الموسكى للحسين .علاوة على أنه كان يسمح لنا بأن ننحو من تجربة يقوم بها الكبار وهى الصيام ، حيث كنت أبدأ بالصيام يوما ، ولكن الأهل كانوا يصرون على أن أفطر حتى لا يضعف جسمي ، إلى أن صمت الشهر كله وكان ذلك في سن السابعة في سن الصيام من بداية دخولي الكتاب وتحفيظا آيات القرآن الكريم وأذكر أنه كان شديدا على في هذه السن .

وكان الأهل يحاولون أن يخففوا علينا فيقولون لنا : إن من صام أول أيام الشهر وآخره فقد صام كله لكنا كنا نرى الكبار لا يفعلون ذلك وإنما يصومون كل أيام الشهر ، فكنا نحاول أن نفعل مثلهم لقد كنت في بعض الأيام أصل في اللحظات السابقة على مدفع الإفطار إلى حالة يرثى لها من الجوع ، كنت أشعر بالتقلصات تعتصر معدتي فكنت أصعد الى سطح منزلنا الذى يطل من ناحية على قرمز ، ومن ناحية أخرى على الحسين ، وكانت عيناى تتسمران على مئذنة جامع الحسين ، فإذا شاهدت المؤذن يصعد الى قمة المئذنة وتظهر لى عمامته ، نزلت جريا الى أسفل استعدادا للإفطار ، قائلا لنفسي : جاء الفرج

لقد كنت أتصور أن الصيام سيكون أقصر لو أننى شاهدت المؤذن قبل الآخرين فأنزل إلى الإفطار وما يتم في هذا الإفطار من اجتماع للآسرة ، لقد كان شيئا رائعا يضفر نوعا من المودة والدفء الاجتماعي بين الحاضرين .

من ذكريات رمضان هذا الخشاف ، فسائر المأكولات والحلويات موجودة في معظمها على مدار السنة إلا هذا الخشاف ، الذى لا يظهر إلا في رمضان تاج المائدة الرمضانية هو بلاشك الفول المدمس الذى هو عدو الطعام لأنه ما إن كان يجىء حتى كنا ننسى بقية الأطعمة تم الاتفاق على ألا يجىء طبق الفول إلى المائدة إلا في النهاية حتى يعطى فرصة لبقية الأطعمة إن ذلك هو ما كان يحدث في بيتنا ، لكنه كان مجرد اتفاق مثل كثير من الاتفاقات السياسية التي لا يتم تنفيذها ، فقد كنا دائما نتطلع إلى طبق الفول .

فحين كان يدعوني صديق إلى أحد الفنادق الفاخرة ، كنت أذهب معه وأستمتع بالجلسة ، وربما استمتعت أيضا بالطعام ، لكن ما إن تنتهي جلستنا حتى كنت أعود أدراجي إلى قهوة الحسين حيث الفول والطعمية . والشيشة البلدي .

وأذان المغرب خاصة كان له مذاق معين خصوصا عندما كنا أطفالا حيث كانت فرحتنا لا تنتهي بالإفطار عقب يوم الصوم .

أما المسحراتي فقد كان يأتي عادة وأنا نائم ، ولم أكن أهتم به كثيرا ، لكنه عندما بدأ الاعتراف بي وبدأ في ذكر أسمى مع بقية أفراد العائلة كنت أستيقظ حتى أسمع أسمى وهو يردده : قم ياسى فلان

وفى الأيام الأخيرة في شهر رمضان كنت أشارك في عمل الكعك حيث كنت أقوم بنقشه مع والدتي ، ثم يأتي الفران ليحمله للفرن ، وكنت أسعد بمنظره حينما يعود من الفرن ، أما لبس العيد فكنت أذهب مع والدى أشترى بدلة العيد وما أن يحل العيد حتى تعود بى الذاكرة بسرعة إلى حي الجمالية الذى عشت فيه طفولتي والذى عرفت فيه العيد أول ما عرفت . كم نظرت من خلف المشربية التي كانت تغطى شبابيك بيتنا القديم بحي الجمالة ، إلى ذلك الميدان الهادىء المليء بأشجار الصفصاف والذى كانت تملؤه الزينات كلها جاء العيد ، فيلعب فيه الأطفال طوال النهار والليل دون خوف من مرور السيارات أو حوادث الطريق .

لقد حضرت في طفولتي عيد الأضحى في أكثر من مكان : أولا في حي الجمالية الذى ولدت به ، ثم في حي العباسية الذى انتقلنا إليه بعد ذلك ، ثم حضرته في الكبر في أنحاء متفرقة من القاهرة والإسكندرية لكن ذكرى العيد في الطفولة مازالت هى ذكرى الجمالية فقد كنت أشاهد مباهجه حتى من قبل أن يسمح لى بالنزول إلى الشارع فقد شاهدت من خلف مشربية شبابيك البيت ذبح الضحية بعد صلاة العيد بميدان بيت القاضي ، ذلك الميدان الهادىء المليء بأشجار " ذقن الباشا " كما شاهدت الزينات والأفراح التي لم يمعن وقت طويل حتى كنت أشارك فيها بنفسي .

كانت ليالي رمضان منذ الطفولة تفوق في متعتها وجمالها جميع الليالي حتى الأعياد ، لقد كانت ليلى رمضان أمتع عندي من العيد الصغير أو العيد الكبير ، فأول حرية ذقتها كانت في رمضان حين أصبح حين أصبح يسمح لى لأول مرة أن أخرج مع الأصدقاء وأن اشهر معهم في الحى ، فنلعب ونلهو بعد أن كنا جميعا مكبلين طوال أيام السنة حتى أننا إذا ألعبنا تحت البيت كانوا يراقبوننا من الشبابيك ، أما في رمضان فقد أعطونا الحرية كاملة.

هذا كان رمضان الذى قضيته وأنا طفل ، أما عندما كبرت ، كان هذا الشهر يحمل البهجة نفسها ، لكن تغير الاستمتاع به ، أولا عندما أصبحت شابا كنا قد انتقلنا إلى العباسية وتركنا حي الجمالية بعد تسع سنوات وسكنا في البيت رقم "٩" في شارع رضوان شكري ، وكانت منطقة جديدة وجميلة ، غنية بالمساحات الخضراء والأشجار لكن علاقتي بحي الحسين لم تنقطع فقد كنت أذهب إلى هناك باستمرار مع والدتي التي كانت تصحبني معها على عربة كارو لزيارة أولياء الله الصالحين ، ومنهم سيدنا الحسين . تركنا بيتنا القديم وانتقلنا إلى العباسية ، لكن قلبى ظل في ميدان بيت القاضي بالجمالية ، وكنت أدعو أصدقائي الجدد في العباسية لزيارة الجمالية معى خاصة في رمضان حيث كان حي الحسين له مذاق خاص ، ويختلف عن منطقة العباسية التي كانت تعتبر حديثة بالنسبة للقاهرة القديمة ، اذكر أننا كنا نقطع المسافة من العباسية إلى الجمالية مشيا على الأقدام

، وكان ذلك منفذا جديد لأصدقائي الذين كنت أخذهم إلى ميدان بيت القاضي وإلى درب قرمز وحارة الحسين حيث كنا نمضى ساعات الليل من بعد الإفطار وحتى موعد السحور ثم بعد بضع سنوات كان لنا صديق في مثل سننا هو" سيد الشماع " قد كبر عنا " سيد " قبل الأوان لأن والده ألحقه بالعمل معه في دكان بالغورية بمجرد أن حصل على الابتدائية ، لذلك فقد صار يعرف أشياء كثيرة لم نعرفها نحن ، مثل المقاهى التى لم يكن لنا بها خبرة من قبل ، فقد كان يقول لنا : الحكاية ليست مجرد مشى ، تعالوا نجلس على مقهى ، وكانت تلك فكرة جديدة علينا تماما في مثل هذه السن الصغيرة ، فقد كنا نشاهد المقاهى ونشاهد الرجال يجلسون عليها ، لكننا كنا مازلنا صغارا ولم نكن نتصور أنه يمكن أن يكون لنا مكان على المقهى ، لكن صديقنا سيد الشماع شجعنا على ذلك ، فبدأت بينى وبين مقاهى حى الحسين علاقة ممتدة استمرت معى سنوات طويلة ، والفضل في ذلك لسيد الشماع الذى علمنا كيف نجلس على المقهى وكيف نطلب المشاريب وكيف ندخن الشيشة إلى أذكر وقتها أن ثمنها قرش صاغ واحد (٣٩) .

هذا الصديق كان مغامرا يستحق أن تكتب عنه رواية طويلة (٠٠٠) أفلس مرة وباع دكانه ، فملا منديله المحلاوى بخفتة تراب وراح يطوف القرى وقد أطلق لحيته وادعى أن هذا التراب من " " "

أرض النبى " وأنه يشفى العيون فتزاحم المرضى عليه ، فكان يدس في عين كل منهم حفنة تراب ويقبض فلوس على ذلك ، حتى جاء يوم هجم عليه فيه رجل فلاح " بالبلغة " وهو يصرخ : " عميت ابني ألهى تنعمى " .
فهرب من القرية وعاد الى القاهرة ، وتزوج وفتح دكانه مرة ثانية (٤٠)
كان مقهى قشتمر من المقاهى المحببة الى في العباسية ، وكانت هناك أيضا مقاهى أخرى مثل مقهى عرابي وإيزيس ومقهى الانشراح ، وهى مقاهى كنت أرتادها جميعا لكن في غير أوقات رمضان ، أما في رمضان فقد كان حى الحسين هو الذى يكسب حيث كنا نأتيه من العباسية ونمضى الوقت في مقاهيه حتى السحور (٠٠٠)
أحسن السهرات كانت تلك التى كنا نمضيها في مقهى الفيشاوي ، فقد كنا نجلس هناك في جلسات سمر فكان منا من يدخل أفيه (قافية) وآخرون يغنون ولم تكن السهرة تخلو ولو للحظة من البهجة والسرور ، فإذا ما حل موعد السحور لم نكن نجد لدينا الرغبة في مغادرة المقهى ، فكنا نطلب سحورنا في المقهى من المطاعم المجاورة ، فكنا نطلب مثلا لحمة رأس أو كباب أو غيره ، ثم نعود بعد ذلك إلى العباسية سيرا على الإقدام وسط منطقة جبلية خالية أصبحت الآن تضم صفوف المنازل علـى الجانبين .
وقد كنت أصطحب مع أصدقائي في العباسية بعض الحرافيش إلى المقهى حيث كانوا يحبون رؤية هذا الجو الرمضاني ، لكنهم كانوا ينظرون إليها بعين السياح وأحيانا كانوا لا يطيقون أن يستمروا فيها طويلا ، فإن قضوا ليلة لا يكملون الأخرى لأنهم يرون أن مقهى الفيشاوي مزدحم ، وذلك يرجع إلى أن أغلب الحرافيش اعتادوا الأحياء الهادئة فلم يعيشوا معى الجو الرمضاني الذى كنت قد اعتدته من قبل معرفتي بهم ، لكن الحقيقة التى لا أستطيع أن أخفيها هي أن أجمل وأسعد رمضان مر على وبجميع المصريين كان رمضـان ١٩٧٣ تركت كل ما كنت أعمل به ونسيت طقوس رمضان وأصبحت فقط قارئا للجرائد أو مستمعا للإذاعة التى لم تكشف عن إذاعة الأغاني الخماسية وأخبار العبور .

متصوف يحب الحيـــــاة

كان لدى عادة منذ الصغر وهى عدم العمل فى هذا الشهر إلا الشيء الضروري حينما كنت طالبا ولدى واجبات أو مثل ذلك من الأشياء الضرورية ، ويرجع ذلك لرغبتي في الاستمتاع به حتى أحمل لهذا الشهر بداخله ذكريات جميله ، ولم أكتب رواية واحدة فى رمضان .
فإلى جانب الشعور الروحى الذي كان يساورني فهناك فوائد مادية أخـــرى حـين كنت أقضى الوقت الذى يسبق أذان المغرب فى قراءات مختلفة ، أكثرها كانت دينيـــة ، فإلى جانـب القـــران الكريم كانت هناك كتب كالسير والتراجم الخاصة بموسسي الدولة الإسلامية ، وقراءات الفلسفـــة والتـصوف ، واللقـاء مـع عـدد كبيـر مـن رواد التـصوف الإسلامي وفـى مقـدمتهم ابـن عربـى ، والسهروري والنفرى ، وغيرهم . وكانت قراءاتي تتركز في الشـعر الصوفى الـــذى كنت أعشقه وأحفظ منه عشرات الأبيات كنت أستمتع بالقراءات الدينية خاصة الشـــعر .
الصوفى الذى أذكر أنني لم أكن أترك ديوانا منه إلا وقرأته سواء كان عربيا أو مترجما ، وكنـــت أحرص على قراءته وقت الصيام وبالتحديد ما بين العصر والمغرب ، لقد وجدت أن قراءة الشعـر

الصوفى والإنسان في حالة صيام يمثل تجربة فريدة ، فهو ينقلك إلى حالة من الشفافية لا أستطيع وصفها فكان له منزلة خاصة عندي لما له من تأثير روحي جميل على نفس قارئه ومتذوقه وأعتقد أنه ترك في نفسي أثرا عميقا وكان له انعكاس فعلى كبير ظهر فى كثير من كتاباتى أعتبر التصوف واحة جميله أستريح فيها من الحر ، حر الحياة ولكن لا أومن به أبدا، المتصوفون عندي حكماء ، ولكنهم ينسحبون من الحياة ، نادمون عليها ، فالتصوف الحقيقي رفض للحياة ، وأنا لا يمكن أن أرفض الحياة ، أنا لا أدعوا إلى رفض الحياة ولا إلى الانسحاب منها أنا أدعـوا إلى الانغماس في الحياة ، فمن العجيب جدا أن نمنح الحياة وأن نوجد فيها ، فتكون فلسفتنا هـى رفضها ، ولكن لأن التصوف رقيق ، ولأنه يرفض فقط لأسباب روحية جميلة، فاني أستريح إلى قراءته ، أقرأه كالشعر الجميل . وكم استفدت من هذه القراءات التى كانت تتيسر لى فى رمضان خاصة أما عن رمضان فى رواياتى ، فقد شغل مساحة لا بأس بها فى بعض أعمالي لكن أهمها : الثلاثية، وخان الخليلي ، فلقد كتبت عن رمضان فى " الثلاثية " مما كانت تحتفظ به ذاكرتي فـــى فترة الطفولة ، ويمكن أن أعتبر أن ما كتبته عنه فى " الثلاثية " كان بعين الطفل نجيب محفوظ وليس الشاب أو الرجل نجيب محفوظ ، وفى خان الخليلي كتبت عنه بعين نجيب محفوظ الموظـــــف ورؤيته له .

يبقى شهر رمضان من بين الشهور له طابعه الخاص وصور الاحتفاليات التى تمتلىء بها لياليـــه أيضا لها مذاقها الخاص، وسواء الدينية أو الترفيهية ، الاثنان لهما أثرهمـا الشديـد جدا ، فهـى مبعث البهجـة والسـرور للجميع.

كمن يـزور المقـــام

لم أنقطع عن الحسين يوما واحدا حتى أصبح الانتقال صعبا فى القاهرة ، ولكن ظل قلبى وتفكيري مشدود إلى الحواري والأذقة والأقبية ظللت متعلقا بالحسين وبحي الجمالية ، وكـان بيني وبين المنطقة والناس والآثار علاقة غريبة تثير فى عواطف ومشاعر غامضة لم أستطع أن أتخلص منها إلا بالكتابة ، فغالبا الروايات التى تحمل أسماء أماكن كان وراءها الحب الشديـــد والعميق لهذه الأماكن ، فكان الموضوع الأساسى هو المكان وأعتقد أن أساسيات الكتابة أن يكون هناك حب لمكان ما ، للناس أو للفكرة أو للهدف ، وأنا أعمل لهذه الأحياء ذكريات غالية دافئة ما زلت أحن إليها وأنا فى شيخوختي . إن تلك الأحياء هي كل شيء بالنسبة لى ، أنها مثل زوجة فريدة ، ومن الطبيعي أن تكون تلـك الأحياء مسرح تجاربي ، ولا أشعر أنى أكتب جيدا إلا عندما أكتب عن زقاقي وقد تحول كل ذلك إلى عالم كلى من الكمال استطعت أن أجعله كما أريد ، هذه الأحياء تسكن ذاكرتي ، شغلت وجداني وأججت مشاعري لسنـوات طويلة فكـان التأثير الواضح الذى تجلى فى العديد من الأعمال والكتابات الروائية : زقاق المدق ، خـان الخليلي ، الثلاثية ، وبالفعل قامت بيني وبين هذه الأماكن علاقة عضوية متينة وترابط كان له أثره وتأثيره ، وأعتقد أنه مازال موجودا حتى الآن ، فكثيرا ما تتحرك ذاكرتي به شوقا وحنينا غامرا ، وأعود إلى رابطـة المكان وهــو الترابـط العضوي وأحاول الكتابة فى الجزء الذى يتاح له الكتابة فيه الآن وهو الأحلام ، وأقصد بها أحلام فترة النقاهة حتى أخر أعمالي تجلى فيها أثر المكان حقيقة ، ربمـا كـان الأثـر الأقـوى والأبقى فى الذاكرة هو فى محل الإقامة الأولى فقد استمر معي ذلك حتى رواية " قشتمر " ثـــم بعدها أضواء السيرة الذاتية فالانطباع الأول يظل له بريقه ووهجــه أما عن حقيقة ارتباط الإبداع بالمكان فأنا لا أنكر أنني تأثرت كثيرا بتلك البيئة الشعبية التى تنفرد بعادات وتقاليد تخلق نوعا من الحميمية بين أهلها حتى لتحسب أنهم أفراد عائلة واحدة يتحركون ويفعلون ويمارسون شئون حياتهم بشكل تلقائي يتم عن سريرة حسنة ، وهم فى رباط متين فـى الشدة وفى الرخاء مثل هذه البيئة لا بد أن تترك فى نفس من يعايشها أثرا عميقا ، وأتمثل ذلك فيما يبدعه الشاعـــر من صور شعرية وأخيلة وتشبيهات يستمدها

عن البيئة بالمعايشة ، تسللت إلى وجدانه وصــارت جزءا من خياله لقد كتب عن الأستاذ صلاح ذهني ذات مرة وقال " إن عالم نجيب محفوظ حدوده العتبة " ، فلقــد كنت أستمد مادة أعماله من روح هذا الحي (الجمالية) لأن المراحل الأولى فى حياة أي إنســـان تكون أكثر المراحل تـأثيرا فى نفسه حتى لو كانت المراحل اللاحقة مراحل طويلــة عايـش فيهـــا شخصيات أكثر واحتك بأناس أكثر ، فكل مرحلة من مراحل العمر تضيف للمرحلة الأولى وتجددها، وأنا نشأتي الحقيقية كانت فى العباسية من سن العاشرة ، ولكن حينما عشت فى الجماليـــــــــة وتنسمت رحيقها وأحببتها لدرجة أننـي أخذت كل أصدقاء العباسية إلى الجمالية ، لقد ظلـــت حياتي كلها مرتبطة بحي الجمالية ولم تمنعنـي عنها إلا حالتي الصحيــة ، فلقــد كنت أتــردد علــى الجمالية كل عدة أيام وأطوف بها لأتنسم المنطقة ، وبرغم أنه لم يكن هناك من أزورهم إلا أنــى كنت أزورها كمن يزورون المقام ، الأحياء الشعبية تمثل لـي أكثر من معنى عزيز ، تمثـــل لـى الصبا والتـاريخ وروح مصر الخالدة ، فليس غريبـا أن أختارهـا أماكن لمعظم ما كتبت .

هذه الأحياء القديمة صارت بالنسبة إلى كل شيء . وكأنني زوج امرأة واحده ، طبيعي أزيـــن أن تكون مسرح تجاربي كلها ، وأكون في أحسن حال وأنا أكتب عن الحارة ولذلك جعلتها رمــــــزا للعالـم كله ، وغيرت فيها كما أريد هناك أناس من زملائي يعرفون كل شبر فى مصر ، أنا لا أعرف هذا أعرف القليل فقط ولكن يمكن عبر مجموعة من الناس أن تصل إلى أعماق الشخصية المصرية ، برغم أنهم قليلون ومن عينة واحدة ، وتبقى الاختلافات بينهم وبـين الآخريين فى الجوانب الظاهرة لاقى الجوانب العميقة الوصول إلى مساحة واسعة ممكن عبر أشياء ضيقة قصور فـي التجربـة ؟ غير صحيح ، والأمثلة على ذلك : ميرامار، ثرثرة على النيل ، الطريق ، تلك الروايات ليست من البيئة الشعبية ولنفــرض أن ذلــك صحيح ، حتى لو أقتصر الأمر على بيئـة واحدة ، فما يطالب المؤلف بأشياء أكثر ممـــا عايشــــه وعرفه ، وعمل الكاتب أو الأديب لا يقاس بالمساحة قدر ما يقـــاس به مـن قيم أخـرى كالعمـــــق والإحساس والهدف والمضمون الـدرامي وأشياء أخـرى كثيـرة ومن الكتـــاب العالمـــيين العباقرة ما لم تخرج حدود كتابات أى واحد منهم عن قرية واحدة ، وهذا بـالطبع ليس قصورا في التجربة ولكن قمة النجاح والتفوق والواقعية .

أفــك الأســــــــر

الحارات الشعبية هي مواطن إلهامي ، ونشأت فيها وجسدتها في أعمالي الروائية وفـــــى قصصي القصيرة، جسدت في رواياتي مرح الصبيان والنسوة ، وغرائز النـاس ، والجمال والقبح، وصينية الحمام والبرغل، والمعلم الرهيب الذي أنهكته الإمراض دون أن يتزوج ، وجسدت - ساعات المرح مع الخلان . وصورت من أذيلهم الحشيش ، والعيون التي غارت فى محاجرهـــا نتيجة تفشى السر

لقد رسمت سطورا لكل من عايشتهم في الحارات الشعبية : قرمز ، والازق ، وخان الخليلي ، ورسومي وصوري استمدتها من تلك الأحياء بعد ما عشت فيها ، وترددت عليها مع الأصحــــاب والخلان ، لارتباطي العاطفي بالمكان ، وخان الخليلي كنت سأسميها الحب والموت ، ثم استبعدت الفكرة وانتصر المكان " زقاق المدق " نصحوني بتغييره لأنه صعب فى النطق ، وانتصر المكان ، بين القصرين " ثرثرة فوق النيل " ، وانتصر المكان الأماكن تسلطت على نفسي ، بالكتابة عن مكان ، أتحرر منه ، أشياء كثيرة أتحرر منها بالكتابة عنها ، أفك الأسر فكرة الموت – تخلصت وتحررت منها بالكتابة عنها في قصصي قصيرة ويأتي النهر العظيم تمنيت أن يكون لـى فيلا على النيل ، أنى

أكره العقار الملك ، لكن المــــرة الوحيدة التي تعطشت فيها لامتلك شيئا كانت فيلا تطل على النهر انني أعشق كل شيء فيــــه:
أمواجه الهادئة ، شواطئه الصابرة (أسرح فيه الساعات ، أسرح فى الحياة والحضارات التي قامت على شاطئيه إن حبي للنيل هو تأمل في الزمان والمكان).

طبقتي الوسطي

أنا أعتقد أن الطفولة مخزن لكل أديب لأنها الفترة التي يتلقى فيها الحياة بتلقائية كاملة ، وليس من خلال نظرية أو فلسفة أو أي شيء أخر ، وتختلط في وجدانه ، ويعود الأديب إلى فكرتهـــا وإيقاعاتها وكوني ولدت فى بيئة كبيئة الجمالية جعلت التعاطف الوجداني بيني وبـــــين الأحياء الشعبية من الحقائق الثابتة والمؤثرة فى حياتي ، كذلك كون والدي موظفا ثم تاجرا ومن أصحاب الدخول المحدودة باعتباره من الوسطي أو الوسطي الصغيرة ، فهذا بلا شك له أثر أخر في شخصيتي وكوني قاهري المولد والنشأة والحياة فهذا أيضا له تأثيره على شخصيتي الفنية ، بل شخصيتي الاجتماعية بوجه عام "
كتبت عن الحارة كحارة ، وكتبت عن الحارة كوطن ، وكتبت عن الحارة كالوطن الأكبر والبشرية ، فالحارة بحبي لها جعلت منهـــا مدخلي إلى أي تعبير ، وقـــد أخطـــأ البعض فظـــن أنني أكرر نفسي والحقيقة أن أي أديب يرتبط فعلا وواقعا ببيئته ولا يستطيع أن يكتب عن غيرها دون أن يفتعـــل ، فـــهاردى " الروائي الإنجليزى المعروف تكلم طوال حياته الفنية عن قرية واحدة ، " ومارسيل بر وست " الرجل الذي غير تاريخ الرواية العالمية بأكمله كان يعيش واقعا وفنا على الهامش من حياة باريس، وأذكر أن أول رواية كتبتها في حياته كانت عن فلاحين فـــي قرية سميتها " أحلام القرية " وجاءت شيئا مضحكا بمقياسي الفني الآن ، لأنها كانت نتاجـــــا مفتعلا ومتعسفا لتصوير مجتمع لا أدرى عنه شيئا المجتمع الذي كنا نعيش فيه – أيـــام نشأته الأولى كانت فيه طبقة شعبية، وأخرى أرستقراطية وثالثة يصح أن نسميها أو نصفها بين الشعبية والأرستقراطية ، لأن الطبقة الوسطي العليا تنضم بما لها وبأحلامها إلى الاستقراطيـــة ، ولهذا أقول أن طبقتي هي الوسطي باعتباري ابن موظف ، أن مفهوم الطبقة لم يكن في يوم من الأيام وأنـــا أكتب ، ولكـــن الكاتب ينتســب عادة إلـــى مجموعـة مـن المجتمـع لا يستطيع بحكم صدقه الفني أن يكتب عن سواها ، فانفعالاتـه انعكـــاس لانفعالاتهم، وتجاربه صورة من تجاربهم وهم منه وهو منهم، ولذلك يكتب عنهم .

وحــــــدى

بيتنا زمان كانت له جنينه فيها شجرة جوافة واحدة وبعض شجر ورد ، وتكعيبة عنب أسود ، وأهم من ذلك كله : شجيرات " شيح " زرعتها أمي لتعالجنا بها ونحن أطفال وكانت خلف بيتنا غابة تين شوكي ، يسكنها " نمس " أسود عينه براقة ! فكنا نخاف منـــــــه ونختبيء من المغرب .
أنا لم أعش في جو إرهاب عائلي ، وكانت أسرتي لطيفة ورفيقة بي لأنى كنت أخر العنقود ، وكنت مجتهد ومحل عطفهم ، وكنت أقرب إلى الناس المرفهين المدللين ، فقد نشأت في أسرة مستقـــرة فقد كان والدي ووالدتي فى نظري من أسعد البشر، كان المناخ الذي نشأت فيه يوحى بمحبـــــة الوالدين ومحبة الأسرة واحترامها، كان هناك نوع من الاحترام والتبجيل للوالدين وللأسرة كقيمة أساسية في طفولتي ، فقد كان الخيط الثقافي الوحيد فى مناخ الأسرة هو الدين وهذه السمـــة الأولى في طفولتي .

أما السمة الثانية فهي أنه حرمت لدرجة كبيرة جدا من معرفة علاقات الإخوة ، وكأني طفل وحيد مع أنني لم أكن كذلك ، فلي أخوان ، وأربع أخوات ولكني حرمت من علاقات الأخوة لأنى كنت أصغر أخوتي جميعا .

لا أتذكر في البيت إلا والدي ووالدتي ، ولا أذكر أي إنسان شاركنا البيت إلا الضيوف ، عمتي ابنة عمى ، ناس من الخارج ، كنت طفلا وحيدا ، ولكنا كنا نزور الأشقاء فى بيوتهم ، لم أعش معهم حياة يومية ، كنت وحيد (مع والداى ، وكنت محروما من الشعور بالإخوة ، لذلك أصور فى أعمالي الكثير من علاقات الإخوة بين الأشقاء نتيجة حرماني من تلك العلاقة ، يبدو ذلك واضحا في " الثلاثية " و " بداية ونهاية " و " خان الخليلي " .

الأشقاء الستة ولدوا على الطريقة القديمة ، بين كل واحد والثاني سنة ونصف ، ثم مضت فترة عشر سنوات وجئت أنا ، ولذلك كنت دائما أنظر لأختى الكبيرة على أنها أمي ، ولأخى الكبير كأنه أبى .

ولسن متأخرة جدا لم أكن أستطيع تدخين سيجارة أمام أخي .

وكانت علاقتي بأخوتى من نوع خاص كان تصوري لهم مثل تصور الابن للأب والأم ، لا تصور الأخ للإخوة ، فليس لي أخ أو أخت لعبت معهم أو خرجت بصحبتهم فى نزهة ، أو أفضيت لهم بأسراري ، لذلك لعبت الصداقة في حياتي دورا كبيرا منذ سن مبكرة للغاية ، فقد قامت بدور البديل الضروري لهذه الأخوة المفتقدة ، فحين تفتحت مداركي وجدت أن أشقائي جميعا رجالا ونساء تزوجوا، ولم يكن في البيت غيري مع أمي ، وهذا فرض على إلى جانب ذلك أن أتعلم كيف أعيش وحدي حين كانت والدتي تنشغل عنى .

صبور

لقد أصبت في طفولتي بالصرع، وكان الصرع في هذا الوقت من الأمراض القاضية ، وكانت وسائل العلاج بدائية إلى حد ما ، وكان هذا المرض دائما ينتهي فى أيامنا بالموت أو الجنون ، ولكنني شفيت منه والحمد لله .

الصرع كان خفيفا ، وإلا فهو مرض قاتل لا شفاء منه ، لم يترك أثرا فقد شفيت منه بسرعة ، أما السكر فقد هاجمني وأنا في التاسعة والأربعين ، أي عام ١٩٦٠ ، وقد خفت منه خوفا شديدا لاننى فهمت أنه يضعف الإنسان إلى حد كبير ولكني لم أشعر بأن المرض أثر في عملي ، فقد ظل نشاطي كما هو ، ولم يحدث للكتابة أي شيء بسببه اننى أعرف إن السكر يسبب لمن يصيبهم بالعصبية الشديدة في فقدان الكثير من الأصدقاء أو المواقف وهو أمر لم يحدث لي ، ربما له تفاعلاته الداخلية التي لا يعيها المريض ، ولكن هذا أمر أخر اننى أتكلم عن الانعكاسات الواضحة لي (لكن) صدمة الإصابة بمرض السكر لم تكن بسيطة تأقلمت معها بالشدة مع النفس خصوصا بعد ١٩٨٠ عندما أصابت شبكة العين ، فتغلبت على ذلك باختصار ساعات القراءة والكتابة والالتزام الحرفي بنصائح الأطباء ، اكتشفت نفسي من خلال هذا المرض الجنتلمان الذي يحترمك إذا بادلته الاحترام ، ويغدر بك إذا تهاونت فى حقه اكتشفت أيضا أنى صبور وأنى أستطيع أن أتكيف أما الصرع ، فلقد كنت طفلا لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يستمر .

أسعد أوقاتي

كانت والدتي تحب تربية الطيور ، وكنت أفرح بهذه الطيور وأمضى أسعد الأوقات على السطح مع الكتاكيت والأرانب والدجاج ، وكنت أتصف بالشقاوة .

الصبح كان ملكي لأننا لم نكن نخرج من البيت غير بعد العصر كنت أطلع فوق السطوح، وتطلع معايا بنات الجيران ونقعد نلعب ونجرى ونتنطط ، ذات يوم اشترت والدتي مجموعة كتاكيت ، صعدت إليها

في الصباح لأجدهم مستلقين تحت أشعة الشمس في استسلام تام ، أخذت أتأملهم ، أمسك بهم واحدا ، واحدا تلو الأخر ، ومن لا يتحرك منهم أرمى به من فوق السطح مقتنعا أنه مات ، رميت حوالي أربعين كتكوت راحوا لعم نجيب (المشرف على حنفية الشارع ودورة المياه) والتي تم بناؤها في ذلك الوقت ، ودهنــــت باللون الأخضر ، وأنزل إلى الشارع ، والدهان ما زال طريا فأمد يدي وأرسم لنفسي شاربا وذقنا ، وتتبعني الشلة فيما أفعل ، ونسير فى الميدان متباهين بشواربنا وذقوننا الخضراء كنا نجرى وراء عربات الرش نتلقى المياه حتى من العربة ، كانت لذيذة جدا وكنا ننتظرها بفارغ الصبر أسعد أوقاتي كانت عند ظهور عربة الرش ، كنا نلعب ونستحم في نفس الوقت .

عشقى للسينمـــــا

شاهدت أول فيلم سينما ولم يتجاوز عمري خمس سنوات كانت فى حينا أقدم دار سينمـــــا ، ودخولها كان بتعريفة (خمسة مليمات) كانت سينما بيت القاضي تقع بجوار بيتنا ، وأعتقد أنها كانت أول دار سينما في مصر ، فقــد كان ذلك في أوائل القرن الماضي ، وكنت أذهب إليها في الأعياد ، وكان موقعها في مقطع مـــن الكلوب المصري في خان جعفر ، وحين انتقلنا إلى الإقامة في العباسية

بعد ذلك بسنوات كنت أخذ أصدقائي لأريهم المنطقة التي جئت منها ، وكنا في بعض الأحيان نجــد السينما مغلقة ، وصاحبها يجلس فى الكلوب ، فكنــا نطلب منـــه أن يفتحهـــا لنـــا ، فكـان يجيء بالمفاتيح ويفتح لنا السينما لكى نشاهد فيلم " شارلي شابلن " ونعطيه ما فيه القسمة أي أنهـــا كانت سينما بالطلب .

لقد أحببت السينما حبا كبيرا وأنا طفل حتى كانوا يخرجونني منها بالقوة لأني في بعض الأحيـــان كنت أقيم فيها ، وذلك برغم أن صاحب سينما بيت القاضي لم يكن لديه سوى فيلمين فقط يعرفهما لكل من يرغب ، وكنت أشاهد الأفلام نفسها كل مرة ، أحدهما " لشارلي شابلن " ، والثانــــــي لفانتوم ، وهو بطل مثل ماشيست ، لكنهما كانا يلهبان خيالي فقد كنت طفلا فى الخامسة من عمري وأذكر أنني أذهب إلى السينما كانت تصحبني من بيتنا سيدة كانت تعمل عندنا ، وكانــت مـا إن تدخل السينما حتى نغط فى نوم عميق ، وكنت أنا أتفرغ لمشاهدة الأفلام انتقلت فى الصبا من سينما بيت القاضي إلى سينمات أخرى أكثر حداثة مثل سينما أولمبيا وسينما اديال ، فقد كانت كل منهما تعرض أفلامـــا جديدة بدلا من الفيلمين اليتيمين اللذين كان يملكهما صاحب سينما بيت الماضي ، ولم يكـــــن يعرض غيرهما وقد وصل عشقي للسينما إلى درجة أنى اشتريت سينما صغيرة كانت عبارة عن علبة صغيرة بها منظار ومكان توضع فيه شمعة داخل العلبة وكنا نغلق علينا الغرفة ونطفي الأنوار ونشاهد الصور أمامنا على الحائط ، أما الأفلام فكنت أشتريها من محل أمام سينما أولمبيا، وكانت تلك أول جامعة بالنسبة لي فتحت ذهني على جميع المعارف فى الأدب والفنون ، وما زلت أذكر مشهد المحـــــل وصاحبة الجالس فيه الذي كان يبيع هذه الأفلام كما تباع الكتب لم يعد هناك شي مـــن هذا الآن ، فحين أقارن هذه الأفلام البدائية بأفلام الفيديو الآن أو ما يعرف باســـم CD ROM أجد فرقا هائلا، فقد كانت السينما التي كنت أملكها بسيطة فى كل شيء، لكنهـــا كانـــت مبهرة بالنسبة لي فى صباي ، وكان من الأفلام التي ما زلت أذكر أنني اشتريتها فيلم " مسكـــــــو " الكوميدي الذي يذكره أبناء جيلي جيدا .

كنا نذهب كل يوم جمعة إلى سينما " أولمبيا " فنشهد أفلام المغامرات العنيفة ، ونخرج لنجد هذه الروايات معلقة تحت بواكى شارع محمد على فنشتريها لنعيش مرة أخرى فى هذا الجو الصاخب العنيف الذي يصنعه فى أخيلتنا أبطال القصص والأفلام . والفتوات كعادتهم فى استخدام القوة احتلوا

داخل سينماه معظم الحفلات الأساسية والعامة ، كنت أرى الخناقات بينهم تقريبا كل أسبوع ، كانوا يدخلون فى أرض المماليك ، ولما يكسروا بعـــض يأتي اللوري ويحملهم إلى قسم الجمالية .
كثيرا ما حدث أن تحول فرح من أفراح الحارة إلى خناقة رهيبة لأن الفتوات اللذين كان بينهـــــم خصومات يجدونها فرصة للانتقام وسط الزحمة والهيصة ومع ذلك كان الفتوات يعملون أحيانـــا مع الحكومة فعندما بدأت شركة " سانت كر وفت " عملها بتسيير الأتوبيسات فى عدة مناطـــق بالقاهرة، كانت الحسينية ، وبيت القاضي ، من ضمن خطتها إلا أن النـاس رفضت أوتومبيــــــل الشركة الذي يفـــــد الهدوء المتعارف عليه ، فكانوا يقذفونه بالطوب ويسخرون ممن يركبه بـالكلام ، وقد يتمادى الأمر فيصعد أحدهم ويضرب واحدا من الجالسين على قفاه ويسرع بـالنزول وسط ضحكات المتفرجين ولم يكن هناك غير حل وحيد لإنقاذ الاوتومبيل ومن فيه ولم تجد الشركة إلا الاستعانة بفتوة ليمنع هذه التصرفات ووقع الاختيار على المعلم بيومي ، وهو كان في الصف الثاني بعد عرابي – الفتوة – عملوه مفتش فتوقف الضرب المسئولين ألبسوا " بيومي " بدله ، لكنهم لم يعثروا على حزمة تناسب مقاس قدمه الضخمة ، فكـــــان بالبدلة وحافي ١٠!
وقد انتهى عهد الفتونة على يد عرابي " عندما أمسك ذات مرة بضابط انجليزى وضربه وجرده من ثيابه الرسمية وأعاده إلى الداخلية وسط استهزاء الجميع به ، فتم القبض عليه وأوسعه الضابط ضربا ثم أعادوه إلى الجمالية كسيرا وممنوعا من ممارسة أي نشاط ، وامتد هذا ليشمل بقية الفتوات من الناحية الطبيعية أنا شاهدت الفتوات وتأثرت بهـــم وبهرونى ، الفتوه كان حامى الحارة ولكنه مثل بعض الحكام أحيانا يكون حاميها حراميها "

العفريـــــــــــت

إن كتاباتي الأولى تتسم بنوع من الدرامية ، وهذا من تأثير السينما تماما كما يحدث لـــي تظل الفكرة تطرق رأسي حتى تخرج لحيز التنفيذ ، حدث لي مع المشهد السينمائي ، فلم أسترح إلا بعد أن قررت إعادة المشهد في المنزل (ناديت على الخادمة وأخذتها إلى المطبخ ، وأفهمتها أنها مريضة ، ووقف أخي ليمثل دور ولدها وبعد الكشف على المريضة قلت لها : يلزمك عملية جراحية وأمرتهـــا بالاستلقاء فـوق " ترابيزة المطبـخ " وأمسكـت بالسكين وأخذت أشرط بها فى جسد الفتاه ونسيت نفسي ، ووجدت الدم يسيل منها صرخ أخـى وصرخت الخادمة ، وكان يوما لا ينسى والدتي ثارت ثورة كبيرة جدا يومها وجاءت بالسلاح وعلمت إنها تريد أن تقطع يدي مثلما عملت مع البنت ، وأنا بقيت أخرى منها في البيت وحتى يخلصوا من شقاوتي أرسلني والدي إلى الكتاب وكان يحبني جدا ، وكان يأخذني معه في نزهاته ، عندما كان يذهب ليجلس مع أصحابه فى " الكلوب الحسيني " فى الجمالية ثم في قهوة " الجندي " بالعباسية ، وعند عودتنا كنا نستقل الترام فى هذا الوقت تمنيت أن أكون سائقا للترام ، لأنه كان شيئا عجيبا بالنسبة لنا ، وفى نفس الوقت شيئا مهيبا ، وكان النـاس يسمونه العفريت .

عيشـــــــــة

كتاب الشيخ بحيرى

كـان الكتـاب فى الجماليــــــــة وجاء عيد ميلادي الرابع في ١١ ديسمبر سنه ١٦ ، وقرر أبى أن يحتفل بـه ، فـأدخلني كتـاب الشيخ بحيرى <، كانت مشكلة رهيبة أن أبدأ فى الانتقال إلى مرحلة الطفولة المقيدة بالواجبات ، اعترضت بكل مـا أوتيت من قوة وتوسلات واستغاثات بالأم ، لكن والدي صمم هو الأخر واصطحبني إلى الشيـــخ ، وطلب منه أن يتوصى بى ، لكنها لم تكن توصية لطيفة إطلاقا أصلى كنت عاصي لا أريـــــد الذهاب إلى الكتاب ، ولما أوصى بى والدي الشيخ فرحت لأنى

فهمت أن هذا معناه أن أفعل مــا أحب ، وبعد انصراف والدى قال لى الشيخ مستنكرا : أنت لا تريد أن تحضر إلى الكتاب .. طيب .. فكانت توصية سيئة على غير ما فهمت ، كنت أضيق أيامها بهذه القبور وأتمنى لو أقضى نهاري فى اللعب ، وكنت أضعف أطفال الكتاب كانوا يحفظون القران بسرعة ، وكنت أقرأ اللــوح ثلاثـين مــــــــرة فـأحس أنني فـى حاجـة إلـى أن أقـراه ثلاثـين مـرة أخـرى لكـى -٦٣-
أحفظه ٠ أو كنت أضعفهم بنية أيضا ٠٠ كانت عظامي كالشماعة ، وجلدي معلق فوقها كالــرداء الرخو وكنت أحضر معي غدائي كل صباح ، ولكني لم أكن أكل منه لقمه تتخطفها الأفواه ٠٠ ربع رطل الحلاوة " الذي كانت أمي تلفه لي كل يوم ٠ كـان واحـد منهـم يلقمه كلـه في فمــه إلـى معدته مباشرة ! أما البيض المسلوق فكان يتحول إلى قشر يقذفونــه في وجهــي وهـم يعيرونني بضعفي !
وكانت بطلة معارك خطف الطعام بنتا أسمها " عيشة " ٠٠ كانت تخطف معظم الطعام وتنزوي به بعد أن تترك لهم الباقي ٠٠ وويل لمن يحاول أن يشاركهما غنيمتها بعد ذلك من صبيان الكتاب ٠ عندئذ تنشب معركة حقيقية ، وتطير الألواح الصفيح في الهواء كالإطباق الطائرة ٠٠ وكنــــــت أسارع إلى الحصير أرتمى عليه ، ثم ألف به وأنا أدور على جنبي عدة مرات فأصبح في حصــن حصين (٩٢)

زر مبيحـــــة

مدرسة البرامونى الأولية :

درست فيها سيرة العفاريـــــــــت ؟

حصص بأكملها كان مدرس العربي يستهلكها في الحديث عن العفاريت ، كان يقول لنا أنها تعيش في بطن الأرض وسط لجنة من الجحيم الأحمر ، ولا تخرج أبداً إلى ظهر الأرض إلا إذا سرق أحدنا قطعة طباشير، أوأهمل كتابة الواجب ، أو ألح على والده فى الصباح وهـــو يطلب المصروف ! ثم يملى علينا واجبات معينة ويطلب منا أن نتبعها دائما أن نتبعها إذا قابلنا عفريتا في الظلام أو في النور أذكر أنه كان فيه حكايات عن عفريته اسمها "زر مبيحة " وكنت في البيت أغنى وأنا طفل أغنية فيها أسم " زر مبيحة " الجيران سمعوني ، أرسلوا إلـــى أمي طلبوا منها أن أتوقف عن ذكرها حتى لأتطلع لهم .

البليد صار مجتهـدا

في الحضانة كنت بليدا ودائما ما كنت أتعرض للضرب لهذا السبب كنت كارها للدراسة وخائفا منها ، بل كنت أراها عائقا يحرمني من أسعد لحظات حياتي لدرجة أنني تصورت وقتهـا استحالة استمراري في التعليم وكنت بالطبع أؤنب وأضرب حتى أؤدي الواجبات ، ثم أصبت بمرض من أمراض الطفولة ورقدت بسببه فترة من الزمن المهم أنني لاحظت تغيرا كبيرا فى معاملة الأسرة لى : يحضرون لي الهدايا ، ويكلمونني بلطف ورقة وبعد أن تم شفائي استولت على رغبة شديدة أن تستمر هذه المعاملة الطيبة ولا أحرم منها فكيف يأتي هذا ؟
لم يكن أمامي سوى أن أجتهد فى الدراسة وأمري إلى الله والحقيقة أنه من بعد المرض وحتى الليسانس كنت متفوقا ولم يحمل والدى أى هـــم من ناحية دراستى .

حرامي مثقـــــف

مدرسة الحسينية الابتدائية :

كنــــــت أحــــــب اللعـــــب علـــــى سطــــــــح البيــــــت مع الفراخ ، لكن الوضع تغير بعد أن انتقلنا إلى حي العباسية ودخلت في المدرسة الابتدائية بدأت أشعر بالمسئولية فارتفع مستواي في التعليم في هذه الفترة بدأت أحب التعليم وتفوقت فيه ، وبدأت قراءاتي الحرة وتعلقت بالثقافة وتنبهـــت لأسماء الكتاب مثل المنفلوطى ، وفى هذه الفترة بدأت جذوري تتكون كنت أقرأ كل مـــا يصدر كانت حاجات قليلة ونادرة ، كتاب كل سنة أو سنتين لكـل كاتب ، واستطـاع هـؤلاء الكتاب تحويل اهتمامي من ناحية الفكر ، وشعرت أنى أريد أن أكتب ولكنني لم أقرأ عن محاكم التفتيش إلا بعد أن تخرجت فيها (مدرسة الحسينية) وحصلت على الابتدائية ! ولكني كنت أتذكرها في كل سطر قرأته بعد ذلك عن محاكم التفتيش!

كنت أتذكر المساطر المربعة السوداء بلون العذاب وهى تهوى على عقل أصابعي في برد الشتاء وأنا أكاد أنفطر من الألم والبكاء ! وأتذكر شلوتا هائلا حملني ذات مرة أمتارا في الهواء ، انكفأت بعدها على وجهي في الطين الذي غطى كل معالم بذلتي وحذائي وعندما نهضت وجدت مدرس الانجليزى ورائي وهو يصرخ في : علشـــان تانى مـــرة ما تسييش رباط الجازمـــة مفكـــوك !

ولكن كل طفولة ولها متاعبها التي نعانيها ولكن عندما نغادر هذه المرحلة ونـــرى أشياء أفظع يهيأ لنا أن الطفولة كانت فردوسا (عشت طفولة سعيدة) نسبيا ، أسباب الحياة كانت مهيأة ليس لأننا أغنياء ولكن لأن الحياة كانت رخيصة ، فاستطعت الاستمتاع بالحياة المتاحة وكنت أعتبر أنه لا يوجد أفضل من ذلك ، كانت لي في صغرى أربع هوايات : لعب الكرة فى الشارع مع رفاقي ، وسماع اسطوانات سيـــد درويش ، وسلامة حجازي ، ومنيرة المهدية ، من فوتوغرافي بيتنا أبو بوق " وثالث هوايـــة كانت القراءة . بنهم لكل ما كتب حافظ نجيب !

أصله ولا مؤاخذة كان حرامي ! مثقف ، بارع بل عبقري دوخ الحكومة حتى عقدت معه صلحا حتى ترتـاح منـه علـى شرط أن يتـوب ، وفعـلا تـاب وصـار أشـهر مؤلـف قـصص بوليـسية ، وأشـهر مؤلفاته هو " جونسون " و" ميلتون ويب " و " مغامرات حافظ نجيب " !

(أما) رابعة هواياتي في صغرى ، فكانــت الرحلات – رحـلات كنت أقـــوم بهـــا وأنا تلمـــيذ فى الابتدائية مع زملائي كل يوم جمعة ، فنذهب سيرا على الأقدام من العباسيـــة إلى حي الحســين ، و"زقاق المدق" ، و " فم الخليج " ، و " خان الخليلي " ، و" الغورية " ، ونتمتع بالحرية بعيدا عن عيون الكبار . ، فنجلس على مقهى ونمثل دور الرجال ، فندخن الشيشة الحامية " ونشـــرب "الشاي الأسود " ونومىء فى حديثنا بتؤدة ووقارا وكان سبب ذلك صديقنا " سيد الشماع" الذي كنا نذهب الى دكانه ليلقننا كيف نكون " رجاله "

علقة بسبب الإنجليز

أغلى ذكرياتي هى أيام الثورة الوطنية ثورة ١٩١٩ كنت صغيرا في الثامنة من العمـــر وكنت قد سمعت أن الأمة تجمع توقيعات الناس لتأكيد أن الوفد المصري يحمل الصلاحية لتمثيل البلاد في مؤتمر الصلح ، وجاء والدي يحمل أوراقا عليها توقيعات كثيرة أخرها بوقيعة هـــو ، وقال لي : وقع باسمك ولكن لم أكن قد أتقنت كتابة أسمى تركني أبى قليلا ، ثم نادىعلى أمي وبصمت بنفسها ، وبعـــد أمـــي جلـــست أكتـــب أســـمى ، ولـــم أكـــن قـــد تمكنـــت من (رسمه) بعد ، جربت مراراً في ورقة أخرى ولكن ظل اسم إبراهيم وهو اسم جدي مشكلة ، وأخيرا وقعن بدون (إبراهيم) وذهبت أمي بالتوكيل وعادت وقد بصمت كل سيدات الحي ، كان

والـدي يحبنـي جدا وكـان يعاملني بحنـان ولطـف ، كـان ديمقراطيـا فـي تعاملـه معنـا ، وأتـذكر أنـه لـم يضربني إلا مرة واحدة ،عندما كنا نقيم في بيت القاضي ، وكـان البيت مطلا علي الميدان ،الذي كـان يوجد فيه عساكر انجليز ، وكانت تعليمـات والـدي عدم فتح النوافذ المطلـة علي الميدان لأن الإنجليز كانوا يخافون من النوافذ المفتوحـة معتقدين أن النـاس سيطلقون النـار عليهم منـها ، وانتهزت يومـا فرصة انشغال والدتي ، وفتحت النـافذة حتي أشـاهد العساكر الإنجليز وأقلد حركـاتهم وأصواتهم وهم يغيرون الطابور العسكري ، ووجدت والدي فجأة فوق رأسي وكله غضب . جذبني إلـى الـوراء وأغلـق النافذة ثم طرحني أرضا ، وأمسكت والـدتي بقدمي ورفعتهمـا إلـى أعلـي ، وظـل والـدي يضربني علي باطن قدمي حتي تورمتا)

أول مظاهرة

يوم أن كنت أسير مع ابن عمي ، الصورة تمر بذهني الآن – هو رجل كبير وأنـا طفـل صـغير .. هو يمسك في يده مجموعة من الورق لا شأن لي بها ، وأنا امسك في يدي شيئا قد يكون لعبـة ، قد يكـون قطعة من الحلوي .. هو يتوقف في أماكن معينة يسلم فيها بعضا من هذه الأوراق التـي يحملهـا ، وأنـا طفل تبهرني المناظر التي أشاهدها في الشارع ، ولا اهتم بمـا يفعل ولا بمن يقابل .. لقد عرفت بعد ذلـك أن مجموعـة الأوراق المطبوعـة التـي كـان يحملهـا ابـن عمـي هـي (منـشورات سـرية للثـورة) وعرفت أيضا أنه كـان يصحبني معه ليس للنزهـة ، ولكن لكي لا يكتشف أمره ، واذكر الآن يوم أن اشتركت في أول مظـاهرة .. كـان ذلك في مدرسـة الحسنية الابتدائيـة ، حين وقـف بيننـا زعيم الطلبـة وكان اكبر مني سنا ، وبلغنا أن هناك خلافا بين الملك فؤاد وبين سعد زغلول ، وسبب الخلاف هو من يكون مصدر السلطان .. الأمة أم الملك ؟

والحق ان حماسة (عبد المنعم) وهذا هو اسمه كانت تدعو إلى الإعجاب ، الأمر الذي جعلني لا اخشي شيئا – بالرغم من أن عمري فـي هذه الفترة كـان بين العاشرة والحاديـة عشر - حينمـا طلـب منـا أن نتبعه للتوجه إلي ميدان عابدين حيث قصر الملك كانت قيادة المظاهرات بالتنـاوب ، وإنـي أذكر بهذه المناسـبة أنـــه عنـــدما جـــاء علـــي الـــدور لقيـــادة المجموعـــة التـــي كنـــت فـــي وســـطها رددت :
(تحيا سعد .. تحيا سعد)
حتي أن أحدهم صحح لي هتافاتي قائلا (يحيا سعد وليس تحيا سعد)

كانـت أول ثـورة ثارهـا الـشعب بنفسه مكرسـة للوحدة الوطنيـة فـي وقت كـان الانجليز يقبضون علـي أعضاء الوفد ، فيدخل أعضاء جدد من الأقباط في الوفد ، حتي جاء وقت صار فيه من يمثلون الشعب أو الغالبية الساحقة للشعب من الأقباط ..حتي يصح أن نقول عن تلك الفترة :أن المسلمين كـانوا فـي ذمة الأقباط ، وقد صانوها كخير ما تكون الصيانة ، ولقد كان أعداء الوفد مـن أحزاب الأقليـة يطلقـون عليه حزب الأقبـاط لكن ذلك كـان في مرحلـة متـأخرة وبعد رحيل سعد زغلـول بـسنوات ، فكلمـا عـاد الوفد إلى الحكم كانت تخرج علينـا جريدة (الكشكول) بعنوان (عودة الحكم القبطي) ! ولكن ذلك بالنسبة لنا أشبه بالفكاهات التي كنا نضحك لهـا ، فأنـا أنتمي إلـى جيل نـشأ علـى الوحدة الوطنيـة بين المسلمين والأقباط ولم نعرف أن تعاير طائفة في المجتمع طائفة أخرى بانحرافات بعض إتباعهـا ، لأن الانحراف يمسنا جميعاً كمصريين سواء كنا أقباط أو مسلمين وهذا شـيء تلقائي وطبيعي ، فأحد لـم يعلمني الوحدة الوطنية في الصغر ، لأني نشأت فوجدت هذه الوحدة حقيقة من حقائق الحياة في مصر إننـي شخصياً أعتبـر أحد الأمثلـة الحيـة علـى الوحدة الوطنيـة ، فقد سميت علـى اسم طبيـب التوليـد القبطي الكبير نجيب محفوظ باشـا ولـذلك حكايـة ، ففـي بدايـة القرن العشرين كانـت الدايـة هـي التـي تشرف علـى الـولادة ولـم يكـن يـستدعى الطبيب إلا فـي الحـالات المتعثـرة ، وكانـت الـولادة تـتم دائمـاً

بالمنزل وليس بالمستشفى ، ولما كانت ولادته متعثرة جداً ، فقد تم استدعاء طبيب قبطي شاب كانت له سمعة جيدة ، فأشرف على الولادة بسلام ، فقرر والدي أن يطلق اسم القبطي على ابنه المسلم .

يوم أن بكيت

ثلاث مرات بكيت فيها بحرقة : يوم مات سعد زغلول الوحيد الذي تمنيت أن أراه ولم أستطع هو سعد زغلو ل ، وفي أول مظاهرة اشتركت فيها وكان عمري ١٥ سنة لم أتمكن من رؤيته من الكتل البشرية المحيطة به .

الشخص الوحيد الذي حلمت به أكثر من مرة هو سعد زغلول ، فمن الجائز لأنه لم يصادفني الحظ ورأيته روية العين ، أحلم بأنه استيقظ من رقدته الأخيرة وخرج من أكفانه ، الغريب أنني أصحو من الحلم وأنا منهك شاعر بالإرهاق .

(وبكيت) يوم مات أبي ، ويوم عرفت أن المنفلوطي رجل ميت منذ زمن بعيد ، وكنت ألتهم كل كتاباته وقررت أن أتعرف عليه

آه بالحق أفتكرت ! بكيت مرة رابعة سنة ١٩٣٢ يوم أقامت السيدة روزاليوسف حفلة تمثيلية خيرية ، وتبرعت بإيرادها لقرية احترقت عن أخرها ، وكانت قد اعتزلت التمثيل واشتغلت بالصحافة وصارت لها فيها مكانة مرموقة . فلما تألمت من أجل القرويين الذي شردتهم النيران واشتركت فعلاً في التمثيل بالقيام بالدور الأول في مسرحية (غادة الكاميليا) أجاده أيما إجادة بل أبدعت ، حتى سألت دموعي تجاوباً وانفعالا بروعة التمثيل .

حنان أمي

مضت الأيام لتغير أحوالي عندما التحقت بالمرحلة الإبتدائية ، فقد قلت شقاوتي وأحببت الدراسة وشعرت بالمسئولية ، كنت دائماً من الأوائل وأحصل على تقديرات عالية ، هذا التفوق جعل والدي يهتم بي أكثر ، ويزيد من مصروفي . وظل الوضع على هذا الحال حتى انتقلت إلى المرحلة الثانوية ثم البكالوريا (تعادل الثانوية العامة الآن) وكان والدي يريدني أن ألتحق بكلية الحقوق وكلية الطب ولكنني التحقت بكلية الأداب .

أمي كانت على مدى العمر تترك لي حرية الاختيار ، فأنا اخترت سبيلي في الدراسة بتشجيعها وموافقتها رغم أن الطريق الذي اخترته غير الذي تأمل فيه الأسرة حيث كانوا يأملون في أن أكون طبيباً أو مهندساً .. وخصوصاً أنني كنت متفوقاً في الرياضيات والعلوم . ولكني دخلت قسم أدبي ، فكانت صدمة لهم ، ثم دخلت كلية الأداب فكانت صدمة ثانية ، ثم كان قسم فلسفة فكانت صدمة ثالثة ولم أجد بجواري طوال كل هذا سوى أمي رحمها الله .

وقد استفدت من أمي حناناً مازلت أذكره وأشعر بدفئه وقد تخطيت الثمانين ، كانت سيدة بيت ولم تكن موظفة، وكان الزوج يعمل خارج البيت ، لذلك كانت صلة الأم بالأبناء قوية جداً ، والأب عادة كان على الهامش خاصة في السنوات الأولى ولا يظهر إلا وقت الأزمات ، أما الأم فهي كل شيء .

فتأثيرها قوي جداً علي أكثر من والدي لأنها كانت باستمرار معي ، لكن والدي كان مشغولاً دائماً بعمله .

من حسن طالعي أنني تمتعت بحنان الأم إلى النهاية فقد شاء الله أن تعمر والدتي حتى وصل بي العمر إلى ما بعد الخمسين ، وهكذا تمتعت بالكامل بكل فترات العمر التي تحتاج إلى رعاية الأم وعطفها وحنانها ، وأتصور أن يتيم الأم في الصغر قد فقد ثروة لا تقدر ، ولا تصدق ما يقال من أن فلاناً أو فلانة كان بمثابة الأم فهذا كلام مجازي لأن منزلة الأم لا تشغلها الأم .

لكن من لطف الأقدار أنني حين توفيت والدتي كنت قد خبرت الموت و الأحزان من قبل ، فمثلاً توفى والدي وأنا في حوالي الخامسة والعشرين ، وقد سبب لي ذلك صدمة قوية جداً لأنه رغم أني علاقتي بوالدي ، فإن رحيل الوالد كان أول تجربة لي مع الموت في محيط الأسرة الغريبة مني ، وكانت المتوفاة هي الوالدة لكانت صدمة أشد بكثير ، لذلك فرغم حبي الشديد لوالدتي الذي لم يكن يدانيه أي حب آخر ، فإن حزني على والدي كان أشد لأنه كان في سنوات التكوين الأولى .
فالإنسان طوال فترة حياة أمه يعتمد عليها في أشياء كثيرة قد لا تكون بالضرورة أشياء مادية ، ولكن هو يعتمد عليها عاطفياً ، لكن برحيلها يفقد سنداً عظيماً في الحياة ، ويدرك أنه قد أصبح الآن وحيداً في هذا العالم ، قد يكون له أصدقاء ، وقد يكون له أبناء وأحفاد ، ولكن يعلم أن مكان الأم قد أصبح شاغراً إلى الأبد . رحيل والدتي أثر في كثيراً رغم أنني قد كنت قد تخطيت الخمسين.

أسرع هداف في زماني

عندما كنت صغيراً كنت أحب أن أتقن أي شيء أصنعه من أجل أن أسمع كلمة استحسان، أذاكر حتى أجد تقديراً من المدرس أشوط الكرة جيداً لأسمع التصفيق إن الاستحسان شيء هام للنفس البشرية .
كنت أعشق كرة القدم وزاولتها عشرة سنوات في أثناء دراستي الابتدائية والثانوية ولم يأخذني منها سوى الأدب .
تولد حبي لكرة القدم عندما كنت أشاهد مباراة بين الفريق المصري والإنجليزي وكان الفوز في النهاية للمصريين هذتني هذه النتيجة لأنني كنت أعتقد أن الإنجليز لا ينهزمون كان اسم فريقنا آنذاك (قلب الأسد) وكنت أشهر لاعب في شوارع العباسية .
كنت لاعباً حريفاً كما يقولون ولو كنت مستمراً في هذا لكنت لاعباً مشهوراً في أحد النوادي الكبرى انتمائي للزمالك انتماء تاريخي حيث بدأت علاقتي به منذ كان اسمه نادي المختلط مع انتقال حسين حجازي له فقد تمنيت فعلاً أن أكون أبناً لحسين حجازي أسطورة الكرة المصرية وعندما كنت أتدرب على الكتابة كانت شخصيات أولى رواياتي - التي لم تنشر كلها - عن لاعبي كرة القدم أراها رياضة ومتعة وفرصة للتفكير والصحة والعافية . الكل يقول الآن : في العجلة السلامة.
ومع الفارق فلاعب كرة القدم لا يعنيه سوى تسجيل هدف أما استعراض القدرة على اللعب الذي كنا نسميه في زماننا ترقيص الخصم ، وهو ما كان يسبب متعة عالية للمشاهدين فلم يعد موجوداً من المتفرجين من يمكنه الاهتمام بهذا الأمر كلما كان تسجيل الهدف سريعاً ومباشراً ومفاجئاً ومباغتاً كان هذا أفضل ألف مرة ولا تنسى أنني لعبت الكرة من قبل وكان يطلق علي في العباسية أسرع هداف في زماني .

النظام يطيل الوقت

المسألة ليست ميكانيكية ولكنها جاءت نتيجة للتنوع وحب الحياة وعندما كنت تلميذا كنت أحب الاجتهاد لأن الاجتهاد في حياتي كطالب من أسرة فقيرة يجب أن أنجح وبتفوق وأحب الرياضة والتفوق فيها وأحب أن أسمع أم كلثوم وعبد الوهاب وأحب أن أسهر مع الأصدقاء من أين أتى بالزمان الذي يتيح لي هذا ؟ إذا استسلمت لرغبة من هذه الرغبات أو هواية واحدة بلعتك لي أصدقاء كثيرون بلعهم السهر وبلعهم الشغل وبلعهم الاجتهاد وهذا إنما من أجل أن تستمع بكل هذا ينبغي أن تجعل لكل هواية أو رغبة أو متعة خانة لكي تضبطها وبالفعل ذاكرت ولعبت وأحببت وكل حاجة عملتها نعم كنت هذا الشاب العابث اللاهي وجربت كل شيء ولكن في اطار منظم وطوال الأسبوع كنت

طالباً ملتزماً متفرغاً لدراستي والعلم وأما يوم الخميس والجمعة كنت شيئاً أخر عشت حياتي طولاً وعرضاً وكان يخيل لك أن الشاب الموجود معك في المنزل ليس هو الآخر الموجود خارجه عشت حياتي وجربت كل شيء من خلال نظام وليس من خلال فوضى فاستقامة الأمور والنظام يحكم كل شيء أذكر أن بعض أصدقائي من شلة الكرة أستهلكهم لعب الكرة لأنهم اندمجوا في اللعب وأضاعوا دراستهم والسبب الأساسي لمحنتهم هو عدم النظام لاأكثر ولاأقل أو بالعكس يتفوقون لحد لايجدون فيه فرصة للعب كي نجمع أشياء كثيرة علينا أن ننظم وقتنا تعودنا إذاً على النظام فهو يطيل الوقت ويجعل يومك مليئاً بالنشاطات المتعددة دون نظام يضيع وقتك .

في البداية عندما كنت أكتب كان يطلع لي عفريت يقول لي ما جدوى ما تفعله ؟ لماذا تغلق الغرفة عليك ؟

ما هذا النظام الصارم ؟

ياراجل هيصلك شويه .

لكنني كنت أصرف هذا العفريت في النهاية وأفرض على نفسي مزيداً من صرامة النظام والعمل حتى منتصف الليل .

أما الصحة أتذكر أنهم كانوا يأخذوننا من المدارس لنزور المتاحف ومن بينها متحف فؤاد الأول الصحي هناك كنا نرى صوراً طبيعية من المستشفيات لضحايا المخدرات وكنا وقتها في سن المراهقة كان الواحد يخرج من المتحف ميفكرش أبداً في الحاجات دي .

شبابي وجهاد نفسي

مدرسة فؤاد أول الثانوية تذوقت فيها السياسة واندمجت في الحياة السياسة كان ذلك في الفترة بين سنتي ٢٥ و ٣٠ اشتركت في حزب الوفد الذي كان في كفة يمثل الشعب وفي الكفة الأخرى كان حزب الأحرار الدستوريين يقف في حديقة القصر ويسند رأسه إلى الملك نفسه وكنا في فسحة الغداء نقف في حوش المدرسة الوافدين يتكلمون عن المعارك والمبادئ والأهداف و الإضطرابات وتقديس الزعيم والأحرار الدستوريون يتكلمون عن مسرحيات يوسف وهبي في فرقة رمسيس وسهرات الليل وجو أوربا في فصل الصيف فقد كان معظمهم من الأرستقراط وأبناء باشاوات الإقطاع وسقط النحاس من على الحكم وجاء محمد محمود مرشح الإنجليز فأجل العمل بدستور ٢٣ لمدة ثلاثة سنوات ووضع محمد محمود الطين في أفواه الشعب ليكف عن الكلام ثم وعد بإجراء إصلاحات عامة شاملة أهمها برنامج ضخم لردم البرك والمستنقعات وكتب محمد التابعي في روزاليوسف يستقبل به عهد محمد محمود .

وكان عنوان المقال (سخام البرك) تصور أن اكبر أفراحي أو أحزانى لها أسباب سياسية عامة أحيانا يخيل لى أنى سأصاب بالسكتة من فرط الدهشة والذهول ٠

أول صدمة لى كانت عام ٢٩ (١٩) أيام حكم محمد محمود يوم أعلن تأجيل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد و أخر صدمة لى يوم ٥ يونية ، وأول مرة شعرت فيها بالسعادة الغامرة مع كل مرة من حولى كان عند عودة سعد زغلول من المنفى رغم أننى كنت فى سن مبكرة جدا ما بين الطفولة والصبا فى تلك السن لم أكن أدرك المغزى السياسى لمثل هذا الحدث لكنى شعرت بفرحته من خلال من كان حولى ، وقد كان ذلك بداية تشكل وعيى السياسى .

لصوص مصر ونشاليها تعاهدوا يوم عودة الزعيم الخالد سعد زغلول من منفاه على الكف عن ارتكاب أى جريمة فى ذلك اليوم، ومر اليوم بسلام رغم خلو البيوت من سكانها واكتظاظ الشوارع بالعباد إذن فحب الوطن يجمع بين المنحرف والسوى .

كانت أول ثورة ثارها الشعب بنفسه مكرسة للوحدة الوطنية فى وقت كان الانجليز يقبضون على أعضاء الوفد فيدخل أعضاء جدد من الأقباط فى الوفد حتى جاء وقت صار فيه من يمثلون الشعب أو الغالبية الساحقة للشعب من الأقباط حتى يصح أن نقول عن تلك الفترة : أن المسلمين فى ذمة الاقباط وقد صانوها كخير ما تكون الصيانة ،

ولقد كان أعداء الوفد من أحزاب الأقلية يطلقون عليه حزب الأقباط لكن ذلك كان فى مرحلة متأخرة وبعد رحيل سعد زغلول بسنوات ، فكلما عاد الوفد إلى الحكم كانت تخرج علينا جريدة (الكشكول) بعنوان : عودة الحكم القبطى ! .

وكان ذلك بالنسبة لنا اشبة بالفكاهات التى كنا نضحك لها ، فانا انتمى لجيل نشأ على الوحده الوطنية بين المسلمين والاقباط ولم نعرف ان تعاير طائفه اخرى بانحرافات بعض اتباعها لان الانحراف يمسنا جميعا كمصريين سواء كنا مسلمين او اقباط وهذا شيء تلقائى وطبيعى ، فاحد لم يعلمنى الوحده الوطنية فى الصغر لانى نشات فوجدت هذه الوحده حقيقه من حقائق الحياه فى مصر (...) وقد لا يعرف البعض اننى شخصيا اعتبر من الامثله الحية على الوحده الوطنية ..فقد سميت على اسم طبيب التوليد القبطى الكبير نجيب محفوظ باشا ولذلك حكاية :

ففى بداية القرن العشرين كانت الداية هى التى تشرف على الولادة تتم دائما بالمنزل وليس بالمستشفى ولما كانت ولادتة ومتعسرة جدا فقد تم استدعاء طبيب قبطى شاب كانت لة سمعة جيدة . فاشرف علي الولادة بسلام فقرر والدي ان يطلق اسم الطبيب القبطي علي ابنة المسلم

وحين انتمي الي الوطنية المصرية فانني ادرك السلبيات والايجابيات جيدا في الشخصية المصرية . ولكن لامعني لأدبي خارج نطاق مدة الروية .

وطنيتي لا تذوب

هناك في حياتي بعض الثوابت مثل الوطنية فمهما اختلفت قناعتي السياسية وتبدلت إلا أن إحساسي الوطني هو حقيقة قائمة لا تتغير ولا تتبدل .فاني انتمي لجيل كانت السياسية جزءا من تكوينه . ففي بدايات القرن كانت قضية الاستقلال وجلاء القوات الانجليزية حقيقة من حقائق الحياة . وكان الزعيم

سعد زغلول هو رمز هذه القضية بل كان رمزا للوطنية ذاتها ولذلك فقد نشأت علي حب مصر . وحتي الاشتراكية في سنوات النضج لم تنجح في زعزعة هذا الشعور بالوطنية الذي كان حقيقة ثابتة فهناك مثلا من جعلوا الاشتراكية العالمية تزيح الوطنية لكن الوطنية وان اتجهت عندي إلى العالمية.إلا انها لا تذوب أبدا في هذه العالمية ، وقد وجدنا أن الوطنيات التي كنا قد تصورنا أنها ذابت في الاتحاد السوفيتي قد عادت مرة أخرى تطل برأسها كحقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها .

وأني أشعر باني معرفتي بمصر ليس بها أي مناطق جهل أوعدم معرفة فلا استطيع أن أقول أن هناك مالا أعرف فيما يختص بمصر وأنا لا أقصد هنا المعرفة الإحصائية الموجودة في الأرقام والبيانات وإنما اقصد المعرفة الكلية التي تجيء من القلب . إن مصر هي بلد من البلدان امتازت بأنها كانت من أوائل بلدان العالم التي فتحت طريق الحضارة وهي تتلخص في طيبة وفكاهة وسماحة وذكاء أهلها وأيضا في الصبر واحتمال المكارة الذي يتصنعون به وتلك الصفة الأخيرة شربناها طوال تاريخنا بخيرها وشرها .

في بعض الأحيان يستعصي علي فهم بعض سلوكيات العنف الغريبة علي وطننا وتاريخه لأنها لا تتفق مع الطبيعة التي نعرفها عن مصر وهي تدعو للدهشة من أين جاءت خاصة في هؤلاء الشبان الجدد لأن الطبيعة التي عاش بها هذا الشعب سبعة آلاف سنة سيكون لها الغلبة في النهاية .فهذه الظاهرة الدخيلة هي نتيجة لظروف طارئة وستزول بزوال الظروف التي أوجدتها . إن ثقتي بهذا الشعب ما زالت كما كانت ونظرتي للإرهاب ورفضي له مازال أيضا كما كان .

فضل مدرس اللغة العربية

(في الثانوي) لاشك أن مدرس اللغة العربية كان له أثر كبير في توجيهنا لقراءة الأدب والتراث لأنه لم يكن يتقيد بالمنهج المقرر وكان دائما يضفي علي حصة بهجة كبيرة بالاستشهاد بشعر خاص وحكايات أدبية فكنا نسأله عن مصادرها فكان يدلنا علي كتب من التراث القديم ولذلك بدأت أقرأ كتبا لم يكن جيلنا يقرؤها أو يعرف عنها شيئا مثل الكامل والأمالي وأيضا وجهنا للأدب المعاصر مثل كتابات المنفلوطي وغيره .

بدأت في نهاية المرحلة الثانوية اكتب مقالات فكرية ونقدية لمجلة (المجلة الجديدة) والمعرفة والحديث وفي نفس الوقت كتابة الرواية وكنت انشر المقالات واحتفظ بالروايات ، هذه المقالات فات وقتها وظهرت مدارس فلسفية ومؤلفات حديثة ولم يعد لما كتب قيمة كبيرة ، كان الفكر هو القراءة الأولى بل أن الرواد في مصر كانوا مفكرين أكثر منهم مبدعين ولكن قراءاتي حتى في الوقت المبكر لم تحل من الجانب الأدبي ولكن الأدب في حياتي لم يكن بديلا عن شي أخر كان اختيارا حرا مائة في المائة وكان اختبار حياة جسد لي الحد الاقصى من الإحساس بالمسئولية ولكن الغريب أن ما وقع تحت يدي من روايات مترجمة مثلا فى المرحلة الثانوية كنت اقرؤها كما يقرؤها الصيدلى أوالمهندس أوالطبيب وحتى عندما فكرت فى التخصص اخترت الفلسفة ولم أفكر بالأدب ، وفى الجامعة أيضا كتبت القصة ولكم لم يخطر ببالى التخصص فى كتابتها ، أقول لنفسى : إن طه حسين يكتب القصة ولكنه مفكر أولا وأخيرا ، العقاد كتب رواية سلامة موسى كتب قصصا ولكنهم جميعا مفكرون .

<u>أم المصريين تضمد جراحي</u>

كلية الآداب :

لم تكن الرؤية واضحة وقتها ، سألت أين ادرس هذا الذي أقراه فى كتب ومقالات الرواد فقيل لى فى قسم الفلسفة بكلية الآداب ، وبالفعل اعطتنى هذه الدراسة فرصة طيبة للتعرف على الفكر الانسانى دخلت قسم الفلسفة عشت مع سقراط وارسطوطاليس وابن سينا ولكنى لم أنسى النضال السياسى وعندما جاء اسماعيل صدقى إلى الحكم قرر أن يعيد أمجاد الحاكم بأمرالله منع المظاهرات وأصدر أوامر إلى أقسام البوليس بأنه لا يهمه القبض على النشالين واللصوص مثل اهتمامه بالقبض على المتظاهرين قبل أن يهتفوا بسقوط الحكم ومع ذلك كان اسماعيل صدقى يضم اصابعه خلف أذنه ويرهف سمعه لهتافات المتظاهرين وهو يجلس خلف مكتبه فى مبنى رئاسة مجلس الوزارء وكان المتظاهرون فى مكتبهم يتبعون تخطيط الحارات تجمع الجماعة فى الحارة ثم تسير لتلتقى بجماعة من حارة أخرى ثم يسيرون فى طريقهم والحوارى الجانبية تصب فيهم مزيدا عن المتظاهرين حتى إذا ما وصلوا إلى الشارع الرئيسى كونوا مظاهرة كاملة تهتف : يسقط صدقى عدو الشعب !

ومرة كنت فى إحدى المسابقات والتقينا برجال البوليس فى شارع قصر العينى فطاردونا وجريت وجرى ورائى عسكرى سوارى بحصانه وظللت أجرى فى شارع سعد زغلول حتى وصلت الى ((بيت الأمة)) فقفزت فوق السور وفى اللحظة التى كنت أهوى فيها داخل الحديقة كان العسكرى قد لحق بساقى وأمسكها ووقعت فى أرض الحديقة بعد أن انخلعت فردة حذائى فى يد العسكرى واستقبلتنى صفية زغلول " أم المصريين " فضممت جراحى ، وقدمت لى كوبا من الشرابات ثم انضمت إلى جيش من الجرحى يتمددون فى البيت ، لأسترد أنفاسى .

<u>أدين للجامعة</u>

حصلت على ليسانس الآداب سنة ١٩٣٤ اعترف أننى وسائر جيلى من طلبة الجامعة لم نستفد من الجامعة نصف ما استفدناه من قراءة إنتاج طه حسين والعقاد والمازنى حسين هيكل فى هذه الفترة (لكن) بلا شك أنا أدين للجامعة بالكثير ، فقد هيأت لى فرصة للثقافة المعاصرة بطريقة منظمة ، وعلى يد خير الأساتذة ، كما وفرت لى منهجا للبحث ومراجع واتصالات لم تكن تتاح لى إلا فيها وأنا من

الذين يؤمنون بالدراسة الجامعية والمعهدية وأعتقد عصر الفنان غير المنتسب لمعهد قد مضى لقد وضعت الجامعة الأساس المتين الذي نهض عليه جهدي الشخصي .

لا تقدر بثمن

بدأت حياتي الفكرية بقراءات هزيلة لم تكن لتخلق لي ثقافة أو تصنع مني أديب لو ما واظبت علي قرأتها ألف عام .

بدأت قراءتي بالروايات البوليسية (سنكلير) و(جونسون)و (ميلتون توب) وغيرها من الروايات التي كان يترجمها حافظ نجيب بتصرف وكانت منتشرة هي وأمثالها في أيام طفولتنا ولم تكن هناك بالطبع كتب خاصة بالأطفال علي أيامنا لذلك كانت هذه الروايات هى كل قراءتي الأولى فى أواخر المرحلة الابتدائية وأوائل الثانوى .

ربما استعرت أول الرواية من زميل لى فى المدرسة الابتدائية فأعجبتنى وعرفت أماكن شرائها كانت البداية إحساسا مؤلما بعدم المعرفة وشغف كبيرا بالاستزادة من الفنون والأدب واذكر أننى كنت وأنا طالب بالمدرسة أصنع قائمة للقراءة تضم أهم الأعمال التى على أن أقرأها لكن مع قراءاتي كانت هذه القائمة تزداد ولا تقل فقد كان كل كتاب جديد اقرأه يفتح عينى على كتب أخرى أجهلها وكنت أشعر دائما أن الجهل يطاردني وأن اتعلق بأذيال معرفة بسيطة رغم أنه لم يمضى يوم فى حياتى دون أن أحصل فيه على معرفة جديدة وقد وضعت نصب عينى أن أقرأ لكل قمة من القمم ، الكتاب القمة الخاص بها وبالفعل قراءات كل ذلك لكن كنت اكتشف أن معرفتى بشكسبير مثلا لا يمكن أن تعتمد على عمل واحد له حتى لو كان هذا العمل هو إحدى قممه ونفس الشىء بالنسبة لديكنز أو موليير أو غيرهما أما الأدب العربى فإن معرفتى بدأت بالتراث من القرآن الكريم والأحاديث إلى الشعر الجاهلى، تأتى بعد ذلك مرحلة المنفلوطى وما أرداك ما المنفلوطى وأثره الخطير فى تهذيب النفوس تعلقت بالمنفلوطى وكان مصطفى لطفى المنفلوطى هو المدرسة الالزامية لجيلنا كله .

أسلوبه جديد جميل ساحر فيما يتناوله من موضوعات كانوا يترجمنها له ويقوم هو بتعريبها بطريقته المتميزة الآتية من بين أساليب صعبة جدا فكان مثل (المياه الحلوة ولهذا كان له تأثير فى جيلنا كله وقد قرأت له مجدولين ٢٠ مرة ، كنا نتعلم اللغة والنحو من أسلوبه فقد قام بنقلة كبيرة جدا قبل المجدين .

لقد كنت أعلق له صورة فى بيتنا على أساس أنه على قيد الحياة واتضح لى أنه فارق دنينا فبكيت عليه بعد وفاته بعشر سنوات ومع المنفلوطى وبعده كنت أقرا مترجمات الأهرام وهى روايات تاريخية فى الأغلب (لبول كين) وتشارلز جارفيس وغيرهم كانت تنشر مسلسلة فى الأهرام ثم تجمع فى كتب بعد ذلك ثم ألهبت الوطنية وأحداث السياسة عاطفتى وكتبت شعر وطنى .

وفى مرحلة مبكرة من التعليم الثانوى قرأت (البيان والتبيين) للجاحظ و (الأمالى) لأبى علي القالى و (العقد الفريد) لابن عبد ربه وأمثالها من المؤلفات الموسوعية ، وأذكر أنى كنت استعير بعض عباراتها فى موضوع الإنشاء وكان ذلك يثير عجب أساتذة اللغة العربية ودهشتهم .

وبعد ذلك تأتى مرحلة اليقظة على أيدى طه حسين والعقاد وسلامة موسى والمازنى وهيكل وبعد فترة أسهم فيها تيمور وتوفيق الحكيم ويحيى حقى ، وأنا أسمى هذه المرحلة مرحلة التحرر عن طريقة

التفكير السلفية وطريقة التذوق السلفية والتنبه إلى الأدب العالمى والنظر فى الأدب العربى الكلاسيكى نظرة جديدة مع الإطلاع على نماذج أشبه ما تكون بالأمثلة بالأقصوصة وتلخيصات لأشهر المسرحيات العالمية ثم جاءت أمثلة المسرحية المؤلفة على يد توفيق الحكيم .
وبعد فترة اليقظة التى حدثتك عنها استمرت القراءات فى الأدب العربى القديم ولكن بعقلية جديدة واتجهت للشعر أكثر وبخاصة أبى العلاء المعرى والمتنبى وابن الرومى كذلك فان هناك أدبا فرعونيا غاية فى الجمال وقد قرأته شعرا ونثرا وقصصا واستخدمته فى الكثير من اعمالي مثل (عبث الأقدار) و (رادوبيس) و (كفاح طيبة) وأخيرا (العائش فى الحقيقة) غير عشرات من القصص القصيرة .
وأستطيع أن أقول أن قناعتى بالفن والأدب هى المعارف التى لم تتزعزع طوال سنوات حياتى باعتبارها نشاطا إنسانيا ساميا ونبيلا لا غنى عنه من أجل سلامة الانسان .
واذكر أننى خلال سنوات ما بين المرحلة الإعدادية والثانوية وأيضا خلال سنوات الجامعة كان اعتمادى الأساسى فى الإطلاع على دار الكتب ففيها قرأت التراث كما قرأت أيضا المؤلفات الحديثة المهمة فى الآداب والفنون والتاريخ والسياسة والعلوم ولقد قرأت فى كل ذلك بدار الكتب وقد تشكل مفهومى لفن الرواية من كتب استعرتها من دار الكتب وكان هناك نظام للاطلاع الداخلى ونظام الاستعارة لقاء ضمانات بسيطة كأن تعطى المدرسة أو الجامعة ما يفيد بأنه طالب فيها أو تقول جهة ما أنه موظف لدينا ، وهكذا تنسب لى استعارة كتب عظيمة لا تقدر بثمن .

افكارى الكاريكاتيرية

وحين دخلت الجامعة مررت بفترة تعتبر فترة تشبع بالقراءات الفلسفية على أساس أننى سأتخصص فى الفلسفة ، مع اطلاعات محدودة جدا فى الأدب ، وبعد أن تخرجت ظللت نحو سنتين مقبلا على القراءات الفلسفية مع وضوح ميلى بعض الشيء للقراءات الأدبية ويتضح هذا الميل فى اختياري في اختياري لموضوع رسالة الماجستير ،وكانت عن فلسفة الجمال وهو كما ترى اقرب الدراسات الفلسفية لموضوع الأدب والفن .
في كلية الآداب كتبت مقالات في الفلسفة نشرنا في(المجلة الجديدة) ، (المعرفة) وكل الصحف التي كان يشرف العقاد على تحريرها : فقد كان يفسح صورها لانتاجى دائما .
كانت المقالة اسبق في الظهور عن الأقصوصة والرواية فما أكثر الأقاصيص التي رفض نشرها وكانت أيام٧ عذاب ومحنة تتكرر مع كل أقصوصة أو مقالة يرد على إن المقال كان أسرع في القبول عن الأقصوصة ولذلك فقد انصرفت بعض الوقت لكتابة المقالات واذكر أن أول مقال نشر لي كان عن (تطور الظاهرات الاجتماعية) .
سعدت بجائزة نوبل لا شك إنما فاق تلك اللحظة الشعور الذي أحسست به في بداية حياتي الأدبية عندما نشرت لي أول مقالة في الصحف بعد رفض مقالات كثيرة سابقة .
ففي مقتبل العمر كان حلم حياتي أن ينشروا لي اى شيء حاملا عبارة بقلم فلان "
أيضا كنت ابعث لهم أفكارا كاريكاتير(سيأسى) إلى أبو الخير نجيب رئيس تحرير جورنا ل الجمهور المصري .

لو لم أكن كاتبا لأصحبت مغنيا

إثناء دراستي في كليه الآداب كنت مغرما بدراسة فلسفه الفنون أو علم الجمال ، وكنا لا نمتحن في السنة الثالثة ، فقررت أن انتهز فرصة فراغي بعض الوقت لأدرس الموسيقى عمليا على أمل أن اصل إلى فلسفه الجمال فيها ، فالتحقت بمعهد الموسيقى العربية ، واخترت آلة (القانون) وانتظمت في حضور الدروس ، وتعلمت النوتة ، وحفظت عدة بشارف ، مازلت احفظ حتى اليوم واحدا منها بالنوتة وهو" السماعي الدارج " ، وأذكر أن المرحوم " محمد العقاد " كان يثنى على استعدادي الموسيقى ، ويتنبأ لي بمستقبل كبير بين عازفي القانون . ولكني بعد حوالي عام من الدراسة اكتشفت أنى لم اصل إلى اى شيء مما تصورته " وانه لا صلة مطلقا بين تعلم العزف على القانون وبين فلسفه الجمال " (٣٣)

لقد كان للموسيقى (.....)في نفسي أثر كبير يكاد يضارع تأثير التراث الادبى نفسه ، فقد عرفت الرعيل الأول من الموسيقيين اللذين طوروا الموسيقى العربية على أسس الموسيقى التركية مثل عبده الحامولى وعبد الحي حلمي والمنيلامى وصالح عبد الحي ، ثم بعد ذلك العبقرية الفريدة يسد درويش الذي خطا بالموسيقى العربية إلى عصر جديد تماما ، أكمله بعده محمد عبد الوهاب وأم كلثوم (*)

---

(٢٦) نجيب محفوظ عن القومية السابق (٢٧) عصر سابق (٢٨) نجيب محفوظ من القومية السابق
(٢٩) صالون نجيب محفوظ – أهرام ١٩٨٨/١٠/٢٣ (٣٠) نجيب محفوظ من القومية السابق
(٣١) حورات نجيب محفوظ – بأهرام ٢٠٠٢/٠٧/١١ (٣٣) نجيب محفوظ عن القومية السابق
(*) نصف الدنيا ١٤ يناير ٢٠٠١

كنت أتمنى أن أكون موسيقيا .. هذا هو ما أفكر فيه ألان .. في هذه اللحظة .. لكن لو عدت إلى أيام الشباب

ففي الغالب كنت أختار أن أكون كاتبا، وبناء على نصائح بعض المفكرين- كالعقاد وتوفيق الحكيم- صممت على دراسة الفنون المتصلة بالأدب، فبدأت بالفنون التشكيلية:التصوير والنحت والعمارة، وقرأت كتب تاريخ الفن العالمي، الفن الفرعوني والإغريقي وفن عصر النهضة، ثم الفن الحديث حيث تتعدد المذاهب وتتنوع، كذلك فإن المعمار له عندي أهمية خاصة فقد تعرفت المعمار المصري القديم والمعمار الإسلامي منذ الصغر، واكتشفت فيها أدق مكونات الحضارة المصرية الفرعونية والعربية الإسلامية وهما شريان الثقافة المصرية الحديثة، وتتعدد بالتالي الكتب والمؤلفات .

وذات مرة قال لي الفنان صلاح طاهر:إن شخصيات رواياتي تبدو وكأنها منحوتة. أنني لم أنقطع عن الفن التشكيلي إلا بسبب تقدمي في السن وضعف القدرة على الذهاب إلي المعارض، ولذلك اكتفى بالكتب التي تشتمل على لوحات أو صور تماثيل.

أحببت الفنون التشكيلية والموسيقى لدرجة أن شغفي بالموسيقى يكاد يفوق شغفي بالأدب" (ولكن مهنة الموسيقى) لم تكن ممكنة، حيث كان ينظر إليها على أنها من المهن القليلة الشأن..الناس زمان كانوا يحبون سماع الموسيقى ولكن لا يعترفون بالموسيقيين إلي درجة أنه كان ينظر إلي الموظف الصغير نظرة احترام لا تتوافر للموسيقار.

من مطلع حياتي وأنا أحب الموسيقى والغناء..وأنا في سن الطفولة كنت أسمع أنواعها المختلفة بالرغم من أنه لم يكن هناك إذاعة ولا تليفزيون في البداية عن طريق الأفراح، وفي فترة تالية عن

طريق الأسطوانات بالإضافة إلي الشارع، أقصد الناس الذين كانوا يغنون أثناء سيرهم، أو في المقاهي الشارع المصري كان فيه دائما أصوات تردد الغناء، وعن طريق هذه الأصوات تعرفت على السيد درويش لأول مرة.

وكان لي صوت يؤدي وكان يعتبر صوتا جميلا، كنت حافظ أغاني السيد درويش..أقعد في الشباك ويأتي عم نجيب وهو كان سوري، يطلب من أن أغاني له.. فأغنيها كلها.

(أحب) طبعا الغناء الكلاسيكي لارتباطه بمرحلة الصبا متمثلا في الموشحات والأدوار، يتبعها أغاني سيد درويش، أما الأغاني التي أدندن بها: بعض أغاني أم كلثوم، وعبد الوهاب، مثل :النوم يداعب، ومن أد إيه كنا هنا. عندما أقرأ لا أقرأ بصوت عال وإنما همسا، أي أنني غير معتاد على العمل باستخدام الصوت، صوتي لم استخدمه إلا في الغناء كنت أغني الأغاني القديمة وأغاني عبد الوهاب وأم كلثوم.

وهكذا حفظت أغاني العوالم والدوارالشرقية القديمة منذ الصغر لأن الفرح كان يجمع بين الاثنين وبحكم طفولتي كنت أسمع العوالم وسط السيدات، ثم أنزل لوالدي لأجد صالح عبد الحي مثلا، أو الشيخ أبو العلا، يحيي الحفلة، سمعت كل هؤلاء وأنا طفل، وكنت أطرب فعلا للنوعين من الغناء وأحفظهما وأغنيهما، وكان لي صوت يؤدي وكان يعتبر صوتا جميلا، كنت حافظ أغاني السيد درويش..أقعد في الشباك ويأتي عم نجيب وهو كان سوري، يطلب من أن أغاني له.. فأغنيها كلها.

(أحب) طبعا الغناء الكلاسيكي لارتباطه بمرحلة الصبا متمثلا في الموشحات والأدوار، يتبعها أغاني سيد درويش، أما الأغاني التي أدندن بها: بعض أغاني أم كلثوم، وعبد الوهاب، مثل :النوم يداعب، ومن أد إيه كنا هنا. عندما أقرأ لا أقرأ بصوت عال وإنما همسا، أي أنني غير معتاد على العمل باستخدام الصوت، صوتي لم استخدمه إلا في الغناء كنت أغني الأغاني القديمة وأغاني عبد الوهاب وأم كلثوم، وكان لي سميعة وصوت مقبول، وكان أصدقائي يطلبون إلي أن أغني فأجيب، ولو لم أكن كاتبا لأصبحت مغنيا ولكن من حظ عبد الوهاب أني أصبحت كاتبا.

العلم مستقبلنا

وفاتني كذلك أن أحدثك عن ناحية هامة من قراءاتي وهي كتب خلاصات العلوم: في البيولوجي، والطبيعة، وأصل المادة، فقد صدرت أيام الدراسة مكتبة شبه علمية من تأليف وترجمة الدكتور فؤاد صروف، وأحمد مظهر، وسلامة موسى وغيرهم.

وأذكر مثلا أن أحد الاكتشافات الجديدة التي كانت السلسلة تبدو فرحة بها كانت الفيتامينات، ولا أذكر في الطبيعة إن كانت قد وصلت إلي نظرية الاحتمالات؛ أم أنها توقفت عند النسبية، وكنت أقرأ هذه الكتب باهتمام شديد، وأعتقد أن لها أثرا كبيرا في ثقافتي وتفكيري. أحببت بصفة خاصة الطبيعة والفلك، أتذكر أن مصطفى محمود كان لديه مرصد، ودعاني ذات مرة لأشاهد القمر والنجوم، شيء رهيب.

ألتهم كتب العلم في ساعات، أما في الروايات فلا أقرأ أكثر من فصل واحد. العلم يشبع في نفسي أشياء كثيرة غير عادية. الكتاب العلمي يعطيني الحقائق المقطرة. ماذا تعطيك الرواية؟ بصيرة وإبهار..أليس كذلك؟ أي بصيرة وإبهار أكثر من رحلة القمر؟ العلم هو أعظم ما وصل إليه الإنسان. في الغد سيتحكم الإنسان في ذكائه وتفاؤله وتشاؤمه، ولذلك فأي هجوم على العلم، يشقيني خصوصا الكاريكاتير. نهاجم العلم لأنه يتعسنا..من قال هذا؟ نحن القتلة وليس العلم..إنسان العصر الحجري كان يقتل بالطوبة، الإنسان هو القاتل دائما وليس العلم.

أرجو أن يأتي اليوم الذي نتفق فيه جميعا على أن العلم وحده هو ديوان العرب؛ في مطلع حياتي كنت متجها اتجاها علميا، لكن بسبب قراءاتي الأدبية والفلسفية فقد تحولت إلي اختيار الأدب، وكانت البيئة في ذلك الوقت تكبر من شأن الأدب كثيرا، ولا تكاد تفطن إلي قيمة العلم إلا باعتباره يهيئ أساسا ماديا محترما للمتخصصين، فتوهمت أن مفتاح الحقيقة في الفلسفة والفن، ولم أدرك القيمة الحقيقية للعلم إلا بعد فوات الأوان، وطبعا أرجو ألا تفهم من كلامي أني أقلل بأي حال من الأحوال من دور الفن في حياة الإنسان.

قراءتي موزعة بين الأدب والفلسفة وخلاصة العلوم، وأعترف أن خلاصات العلوم المكتوبة لغير المتخصصين أصبحت أمتع لدي من الفلسفة والأدب الحديث..فهي تمتاز عنها بالدقة والوضوح والحصيلة الوفيرة..فمن الغريب أن يقرأ الإنسان في الفيزياء وهو غير متخصص فيها فيفهمها ويستمتع بها استمتاعا غريب أكثر مما يفهم بعض القصص. فن الفيزياء يفتح عالما جديدا بجماله، والمتعة الجمالية التي تحصل عليها في كتب الفلك أو الطبيعة أكثر وأمتع مما أحصل عليه من شعر الحديث.

أذكر أنني اقتنيت عام ١٩٣٠م كتابا أشبه بدائرة المعارف يسمى (المعرفة الجديدة) new knowledge وقد كنت شغوفا جدا بهذا الكتاب، فقد كان عمري أقل من ١٨ عاما، وكان الكتاب يحيط بكل الأنشطة الإنسانية التي كانت تساورني فيها الأسئلة، من علوم وفنون وآداب، ولقد احتفظت بهذا الكتاب طوال حياتي لأنه كان من الكتب التي نقلتني في مجالات كثيرة من حالة اللامعرفة إلي حالة المعرفة.(قراءاتي)استقرت الآن علي هذا الترتيب:

خلاصات العلوم أولا: كتب الثقافة العامة .

ثانيا : كتب الفلسفة.

ثالثا:الأدب والفن .

هل تأثرت رواياتي باهتماماتي العلمية؟ أتصور شيئا من هذا قد حدث في روايتي "المرايا انها عبارة عن توحد شخصيات في شكل صور تعطي إحساسا، عاما بعصر معين ،أحيانا بينها ارتباطات خفيفة شيء ما يذكرك بالمجموعة الشمسية، وفي (أولاد حارتنا) قلت :العلم هو مستقبل الإنسان ،الأدباء الذين درسوا العلم (اقتصاد ،طب،زراعة،هندسة)شغفوا بالدين والذين درسوا الفلسفة ـ وهي ذات قربي للدين – شغفوا بالعلم فلعل كل فريق مال إلي نقيضة٠وارجو آلا تنسي في حالتي الخاصة إنني تتلمذت علي سلامة موسي – أبي ثورة يوليو الروحي – ومنة تعلقت بالعلم والاشتراكية.

أخطر مرحلة في حياتي

ومشيت في طريق الفلسفة حتى خيل لي أنه الطريق الوحيد أمامي، وشغلت نفسي بتحضير رسالة الماجستير عن فلسفة الجمال.

كان الأدباء الذين أثروا في وأنا في أواخر المرحلة الثانوية يمثلون ثورة فكرية أكثر منها أدبية؛ فطه حسين، وسلامة موسي، والعقاد، قدموا لنا أفكارا ومناهج فكرية أكثر مما قدموا لنا نماذج أدبية وحتي الأدباء والشعراء الذين وجهونا إلي الاهتمام بهم كأبي العلاء؛ والمتنبي؛ وابن الرومي؛ يغلب عليهم الطابع الفكري، وعلي ضوء تأثري بهذه الأفكار يتضح سبب اختياري للفلسفة. علي إني لم أهمل قراءة الأدب أثناء دراستي للفلسفة، وسارا في تواؤم طوال فترة الدراسة، وان كانت الغلبة للفلسفة بطبيعة الحال واذكر أنني في أواخر عهدي بالجامعة أردت أن أتخصص في الأدب، ولكن سكرتير الكلية – وكان أسمة عباس محمود قال لي: بعد الانتهاء تماما من دراسة الفلسفة وبعد

حصولي علي الليسانس أستطيع الالتحاق بقسم اللغة العربية وأبدأ من السنة الثانية لماذا طلبت ذلك؟ ربما في ذلك الوقت أدركت بشكل ما أن الأدب بالنسبة لي أكثر من هواية- بعد التخرج كان على أن أعد للماجستير وأن أكتب الأدب في وقت واحد. والذي حدث هو أنني بين عام ١٩٣٤و١٩٣٦عانيت مشقة الاختيار، لأن التعارض بين الدراسة الجادة للفلسفة وبين التخصص في الأدب كان يزداد وحده يوما بعد يوم، فكلاهما يحتاج لوقت مررت بفترة تنازع بين الفلسفة والأدب عذبتني كثيرا، وأحسست أن علي أن أختار بينها، وبلغت هذه الأزمة قمتها وأنا أعد رسالتي للماجستير مع المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرزاق ثم واجهت أخطر مرحلة في حياتي .

كنت أمسك بيدي كتابا في الفلسفة وفي اليد الأخرى قصة طويلة من قصص توفيق الحكيم أو يحيى حقي أو حسين، وكانت المذاهب الفلسفية تقتحم ذهن في نفس اللحظة التي يدخل فيها أبطال القصص من الجانب الأخر..ووجدت نفسي في صراع رهيب بين الأدب والفلسفة، صراع لا يمكن أن يتصوره إلا من عاش فيه.. وكان على أن أقرر شيئا أو أجن كانت هذه الأزمة التي عشتها في نهاية مرحلتي الجامعية، وكنت في حيرة: أين أنا؟ هل أنا مع الأدب وله، أم للفلسفة ومعها، وكيف أجمع بينهما؟ وبدأت أسأل نفسي: كيف أصبح موظفا وأديبا ومفكرا؟ وكان لابد أن أجسم هذه المشكلة فلا شك أن الفلسفة كانت أفيد لي من الناحية المادية، من الناحية المادية، فقد كنت طالبا متفوقا، والماجستير وبعدها الدكتوراه ثم أصبح أستاذا في الجامعة لا أعاني شيئا مما يعانيه المشتغلون بالأدب في بلادنا، كان الأعقل والأحكم أن أختار الفلسفة.

ومرة أخري قامت في ذهني مظاهرة عن أبطال : أهل الكهف ،الذين صورهم توفيق الحكيم ،والبوسطجي الذي رسمه يحيي حقي ،والفلاح الكفيف الصغير الذي لا يعرف أبعد من حدود عيدان الغاب المنتصبة علي حافة الترعة في رواية "الأيام" ، وأشخاص كثيرون من أبطال قصص محمود تيمور.. كلهم كانوا يسيرون في مظاهرة واحدة.. وقررت إن اهجر الفلسفة وان أسير معهم.

عندما تخرجت كان ترتيبي الثاني علي دفعتي وشرعت فعلا في إعداد "رسالة الماجستير" والتحضير لسفري إلي الخارج، وكلما حاولت إنهاء الرسالة تطاردني فكرة إبداعية لقصة أو رواية فأنصرف عن البحث العلمي وأتجه للإبداع بحكم ميولي الشخصية.. ولم يطل التردد بين المجالين.. حسمت الأم لصالح الإبداع.. فالأدب كان طريقي.

فقطعت العمل وأنا في منتصف الرسالة، إذ أحسست أن كل تقدم فيها يزيد من حدة التمزق المؤلم في نفسي، وقد حسمت الاختيار حسما نهائيا حيث كانت هي نفس السنة التي وقعت فيها معاهدة ١٩٣٦م التي اعترفت باستقلال مصر دون قيد أو شرط وحددت موعدا للجلاء، هنا كنت قد نضجت سياسيا، وأصبحت مدركا لما تعنيه هذه المعاهدة، فقد أعقبها مثلا إلغاء الإمتيازات، وكان ذلك في غاية الأهمية، وهي السن التي قررت فيها أن أكون أديبا وذلك بعد تردد دام بعض الوقت بين الأدب والفلسفة التي كانت فيها دراستي الجامعية، وتلك كانت نقطة مهمة في حياتي حددت لي الهدف والطريق، فقد كنت تخرجت من الجامعة وبدأت أنشر في بعض المجلات الأدبية، لكنني كنت مازلت أبحث عن نفسي، وفي الوقت الذي أكدت المعاهدة استقلال مصر حددت أنا أيضا اتجاهي في الحياة.

فبعد بداية لا بأس في كتابة المقالات النقدية والفلسفية في المجلات الأدبية مثل الرسالة والمعرفة وغيرها، قررت في عام ١٩٣٦م أن أتوقف تماما عن الكتابة الصحفية، وأن تكون كتابتي في الأدب فقط، أما قوتي اليومي فكان من الوظيفة الحكومية وليس من الصحافة أنما أن يستنزف الأديب نفسه في مقال هنا ومقال هناك، فهذا قد يعطل أنتاجه الأدبي تماما، وهناك فئة غير قليلة من أدبائنا تشتغل بالصحافة إلي جانب الأدب وهؤلاء يتأثرون مرغمين بعلمهم الصحفي الذي يطبع إنتاجهم الأدبي بطابع الخفة والسطحية.

وقد ظلت اهتمامي بالفلسفة قائما حتى بعد أن اخترت الأدب فقراءاتي الفلسفية لم تتوقف منذ ذلك الحين وإن كانت قد انكمشت نتيجة لطغيان الأدب عليها، وأعني بالقراءات الفلسفية، الفلسفة بمعناها أو رواية فنصرف عن البحث العلمي واتجه للإبداع بحكم ميولي الشخصية ، ولم يكن التردد بين المجالين حسمت الامر لصالح الابداع ٠٠ بالادب كان طريقي(٥٨) فقطعت العمل وانا في منتصف الرسالة ؛ اذ احسست ان كل تقدم فيها يزيد من حدة التمزق المؤلم في نفسي (٥٩) وقد حسمت الاختيار عام ١٩٣٦ حسما نهائيا(٦٠) (حيث) كانت (هى نفس السنة التي فيها معاهدة ١٩٣٦ التي اعترفت باستقلال مصر دون قيد او شرط وحددت موعدا للجلاء؛ هنا كنت قد نضجت سياسيا؛ واصبحت مدركا لما تعنيه هذه المعاهدة ؛فقد اعقبها مثلا الغاء الامتيازات ،وكان ذلك في غاية الاهمية ،وهى السن التي قررت فيها ان اكون اديبا وذلك بعد تردد دام بعض الوقت بين الادب والفلسفة التي كانت فيها دراستي الجامعية، وتلك كانت نقطة مهمة في حياتي حددت لي الهدف والطريق ، فقد كنت قد تخرجت في الجامعة وبدات انشر في بعد المجلات الادبية، اكنني كنت مازلت ابحث عن نفسي ، وفي الوقت الذي اكدت المعاهدة استقلال مصر حددت انا ايضا اتجاهي في الحياة(٦٠) ٠

فبعد بداية لاباس في كتابة المقالات النقدية والفلسفية في المجالات الادبية مثل(الرسالة)و (المعرفة) وغيرها ، قررت في عام ١٩٣٦ ان اتوقف تماما عن الكتابة الصحفية ، وان تكون كتابتي في الادب فقط٠ اما قوتي اليومي فكان من الوظيفة الحكومية وليس من الصحافة ٠٠٠ انما ان يستنزف الاديب نفسه في مقال هنا ومقال هناك فهذا قد يعطل انتاجه الادبي تماما (٦٢) ٠ وهناك فئة (٠٠٠) غير قليلة من ادبائنا تشتغل بالصحافة الى جانب الادب وهؤلاء يتاثرون مرغمين بعملهم الصحفي الذي يطبع انتاجهم الادبي بطابع الخفة والسطحية (٦٣) وقدظل اهتمامي بالفلسفة قائما حتى بعد اخترت الادب (٦٤) فقراءاتي الفلسفية لم تتوقف منذ ذلك الحين وان كانت قد انكمشت نتيجة لطغيان الادب عليها ، واعني بقراءاتي الفلسفية لم تتوقف منذ ذلك الحين وان كانت قد انكمشت نتيجة لطغيان الادب عليهـــــا، واعنــــي بــــالقراءات الفلـــــسفية، الفلـــــسفة بمعناهـــــا الضيق كالميتافيزيقا والابستومولوجي(نظرية المعرفة) وغيرهما ،وكذلك العلوم المتصلة بالفلسفة كعلم النفس والاجتماع وفلسفة الجمال، وهذه الفروع الاخيرة استثارت بجانب كبير من اهتمامي في تلك المرحلة فقرات فيها كثيرا٠٠ ترى اين ذهبت كل هذه القراءات ويخيل الى ان الثقافة الحقة كالغذاء يتمثله الجسم ويستفيد منه وان لم يبقى له اثر واضح في(٦٥) ، أتصور مثلا أن (الطريق) (ثرثرة فوق النيل) و(ملحمة الحرافيش) و(ليالي ألف ليلة) من أكثر الروايات التي تتضمن بعدا فلسفيا واضحا ، تعرف أني أعددت نفسي للفلسفة حتى بعد انتهاء دراستي الجامعية وبعدها فقط بدأت

في دراسة الأدب كان قد فاتني الكثير وعلى أن اعوضه لو كنت اكتشفت اتجاهي الأدبي منذ البداية لكسبت كثيرا من الوقت والقراءات ولذا لا أستطيع أن أقول انني تأثرت بفلان من الكتاب:لأن معنى ذلك أنني قرأت له الكثير من الكتب ليس هناك مؤلف قرأ أكثر من كتاب أو اثنين ، ولذلك تأثرت بهم جميعا ، كنت أود مثلا أن اقرأ(الحرب والسلام) أو(البحث عن الزمن الضائع) أو(الشيخ والبحر) ولكنني مضطر للاكتفاء بمرة واحدة ، كنت اقرأ هذا كله مع الكتب العربية طبعا واترك التفاعل يحدث وحده في الداخل) . كنت أتمنى أن ادرس في قسم اللغة العربية أو الأدب الانجليزي وان تكون دراسة الفلسفة في الخلفية في شكل ثقافة عامة، كنت أتمنى اعكس الحال فأدرس الآداب وانمي هوايتي في قراءة الفلسفة، لكن هذا ما حدث :وبما لم أكن قد تبينت طريقي بوضوح . كثيرا ما كنت اشعر بالأسف لأنني لم أتخصص في الأدب وجعلت الفلسفة ضمن الثقافة العامة، وليس العكس).

ولكن حين درست الفلسفة استفدت كثيرا، ويكفي أن أقول لك أنها كانت وسيلة لسعة الأفق واستنارة العقل، والفلسفة بما يسرته لي من دراسات منهجية وضعت العالم أمامي كما لو كان بين قوسين والفلسفة علمتنا أشياء كثيرة ثمينة:

كيف لا نتسرع في الحكم، ونتأمل الأشياء، وكيف نتسامح لدرجة غير مخلة،لأن لكل شئ أكثر من وجه، وكل موقف له وما عليه،علمتنا الفلسفة النظرة الكلية للأشياء ، ننظر للشجرة وننظر معها للحديقة، وفي أشد الأزمات تعقيدا كانت الفلسفة تعطينا قدرا كبيرا من العزاء العقلي ثم لم اغفل فضل الفلسفة على كتاباتي ؟ واعتقد أن هذه الصفات الجليلة جعلت بإمكان الانسان وهو يحكي حواديت للناس يطعمها بأكثر مما هو حدوتة وتسلية .

كبير على سن الطلائع

لكن(٠٠٠) فيه فرق بين دخول الفلسفة في الادب ككون متفرق، وبين دخولها كفلسفة مركزة٠ فقد يكون الاديب حاملا للواء فلسفته – اوفلسفة غيره- مثل كامي وسارتر، حتى يعرض فلسفته بوسيلة مباشرة كبحث ، اوغير مباشرة كسارتر، وجملة ادبه تعكس وجهه نظره الوجودية،ومثل ذلك قد يوجد

في الماركسية ،اما الاديب فيعبر عن الفلسفة تعبيرا ليس مركزا اذا اعتنق فلسفة معينة يعبر عنها ويدعو اليها،ولكنه كاديب يتسلل الى الفلسفة كتربية،كمزاج يكتسبه يجعل له نظرة شمولية، كما يكتسب من العلم النظرة العقلية (٠٠٠) اما عن الفلسفة الحقيقية (لي) فقد اعتبرت الفلسفات وانا امر بها كانهانظارات ممتازة جدا لرؤية الوجود من عقول ممتازة، ماالذي غرس في اكثر من غيرها ؟سادخل في بحث فلسفي يشبكني، لكن ربما النقد الحصيف يقول:الفلسفة الفلانية اثرت اكثر من غيرها (لكن) طبعا فيه مناهج اعجبتني وقتها مثل ديكارت، المنهج الماركسي في بحث المجتمع ، ايضا النظرة الصوفية على خفيف، انما ايها اثر في سلوكي وكتاباتي، لااستطيع انانبئك به وانا مطمئن(٠٠٠)

وكان اساتذتنا : منصور فهمي، ومصطفى عبد الرازق، يقدمان الفلسفة كما لو كنا في معرض، حتى انه كان يهيا لنا ان الفلسفة استعراض اكثر منها للاعتناق(٠٠٠)

وعندما رأيت د. محمد عبد الهادي ابوريدة (بعد ٥٠ سنة) اتهزيت من أعماقي لأني تقريبا لم أره منذ أن تخرجنا، فقد ذهب كل منا في طريق، ومن العجيب أنني كلما قابلت أحدا من الفلاسفة – أقول له:أخبار أبو ريدة إيه؟ رغم الفراق الطويل لكنه من الزملاء الذين لا أنساهم، كان الأول علينا وفي غاية الذكاء والخلق، وكنا أنا وهو وتوفيق الطويل وعلي احمد عيسى،رباعي، وفي وجود ابوريدة نتحول إلى الجد والحديث في الفلسفة الإسلامية وعندما نكون نحن الثلاثة وحدنا نضحك أحيانا ونتكلم في السياسة أحيانا أخرى، وكنا نقوم بالتزويغ - من الفلسفة - بعد الظهر لنحضر محاضرة للدكتور/طه حسين في الأدب ، ولقد كنت التقي بعبد الرحمن بدوي في منزل المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق، فقد كان عبد الرحمن بدوي من تلامذته المقربين وكنت كثيرا ما أزور الشيخ مصطفى والتقي بعبد الرحمن بدوي هناك ، أما بداية تعرفي بعبد الرحمن بدوي فكانت في أثناء الدراسة

بالجامعة، فقد كنت في السنة الرابعة بقسم الفلسفة بآداب القاهرة، وكان هو في السنة الثالثة وكنا ندرس(التحقيق) معا على يد البروفيسور(كراوس)، لذلك كنا نلتقي أسبوعيا في هذا الدرس، ولقد مات (كراوس) بعد ذلك منتحرا وهو مازال شابا، بينما شب عبد الرحمن بدوي ليصبح واحدا من أكبر من حققوا النصوص الفلسفة في عصرنا الحديث، وما قدمه من ترجمات ومؤلفات هى علامة مهمة في مكتبتنا الفلسفية، وقد كرس سنواته الأخيرة للدفاع عن الإسلام فهاجم كل المستشرقين الذين كان لهم موقف من القران أو من الرسول(صلى الله عليه وسلم) .

كلام ضد عبد الرحمن بدوي

كانت معرفتي بالفيلسوف الراحل عبد الرحمن بدوي معرفة سطحية وحذرة ذلك انه كان إنسانا له أسلوب خاص في الحياة ليس فيه مجال للود المتبادل بين الناس لقد كان عبد الرحمن بدوي راهبا في محراب الفلسفة، ولم يكن يميل للاختلاط بالناس أو إضاعة وقته في مجاملاتهم ولم تكن الناس تتقبل ذلك بسهولة، واذكر أن احد الأصدقاء الذين كانوا يجلسون معنا في كازينو أوبرا وكان اسمه الشيخ عجلان، قد لمح ذات مرة عبد الرحمن بدوي سائرا أمام الكازينو فحياه

،لكن عبدالرحمن بدوي كعادته اكتفى بان اوما اليه باشارة من بعيد دون ان ينطق بكلمة ترد التحية،فما كان من الشيخ عجلان الذي استاءالا أنه سبه وجرى فى أثره يريد ضربه ، وظل الاثنان يجريان أمامنا فى ميدان الأوبرا الواحد وراء الاخر

كنت أتتألم

كانت أيام جميلة ، رحنا الفلسفة بآمال كبيرة ، أتذكر وأنا أختار التخصص أن الغالب على الثقافة، هو

الفكر الذى كان يمثله سلامه موسى والعقاد (مع أن الدراسات الفلسفية قد تتعارض أحيانا مع فن كتابة القصص والروايات) إلا أننى استطعت أن أقوم بحل هذه المعادلة ، فمع دراستى للفلسفة وعشقى لها كنت لا أتخلص تماما من أننى أكتب القصة أو الرواية وأعترف بأن شيئا من الصراع كان يحدث فى داخلى بسبب ذلك لكن طوال المدى سمت بأننى روائى وقصاص .

وبمناسبة حديثنا عن النزاع بين الأدب والفلسفة ، وتحولى من دراسة الفلسفة إلى الاشتغال بالأدب يهمنى أن أقول لك أن هذا النزاع يمثل التوقف الاول من ثلاثه توقفات عرضت لى فى حياته الادبيه ٠ أما ثانيها فكان حينما هيئت نفسى لكتابة تاريخ مصر القديمة كله فى شكل روائى على نحو ما صنع وولتر سكوت) فى تاريخ بلاده ، وأعددت بالفعل .

موضوعا لروايات تاريخيه رجوت أن يمتد بى العمر حتى أتمها ، وكتبت ثلاثة منها بالفعل هى (عبث الأقدار) و (رادوبيس) و (كفاح طيبه) ، وبقى ٣٧ موضوعا جاهزا للكتابة .

وفجأة إذا بالرغبة في الكتابة الرومانسية تموت فى نفسى ، وأجدنى أتحول إلى الواقعية (القاهرة الجديدة) بلا مقدمات ، وظللت غارقا فيها حتى أنهيت الثلاثية فى أبريل عام ١٩٥٢، وكانت أمامى سبعة موضوعات لروايات أخرى فى نفس الاتجاه الواقعى النقدى ، لثوره يوليو تقوم فتموت معها الموضوعات السبعة من حيث الدافع لكتابتها عن المجتمع الذى أنها ، لكنى وجدت أن الاستمرار فيها يصدق عليه المثل القائم الضرب فى الميت حرام وهكذا توقفت وتصورت أننى أنهيت مهمتى كأديب

وأذكر أننى عرضت هذه الموضوعات على عبد الرحمن الشرقاوى وبعض الزملاء والأدباء ودهشوا لأني لم أكتبها ، فما أكثر الذين بدأوا بعد الثورة ينقدون فى أعمالهم الأدبية مجتمع ما بعد الثورة أما أنا فقد حدث التوقف الثالث فى حياتى الأدبية ، إذ حينما ذهب المجتمع القديم ذهبت معه كل رغبة في نفسي لنقضه وظننت أنني انتهيت أدبيا ولم يعد لدى ما أقوله أو أكتبه ، وأعلنت ذلك وكنت مخلصا فيه ولم يكن الأمر دعاية كما ظن البعض وظللت على هذه الحال من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٥٧ لم أكتب

كلمة واحدة ، ولم تنبعث في نفسي رغبة في الكتابة وكنت أعتبر المسألة منتهية تماما فاتجهت إلى السينما وسجلت نفسي في نقابه المهن التمثيلية ككاتب سيناريو ثم بعد ذلك بسنوات شعرت بأن هناك شيئا بداخلى عاد يتحرك من جديد ، وسألت نفسي : هل وجداني الأدبى سيعود إلى الحياة من جديد وتماديت في هذا الإحساس ، وكانت فرحتي بأول رواية كتبتها بعد هذا التوقف لاتقدر ، كانت أكثر رواية فرحت بمولدها طوال حياتي الأدبية " أولاد حارتنا "

طيلة عمري كنت أتألم ألماً من نوع خاص سببه البحث عن العبارة المناسبة لكن فترات توقفي الأدبية أكثر آلاما "

توفيق الحكيم معلمنا

اخترت الأدب ، لعله الاستعداد النفسي أو أي عامل داخلي أخر فليس لذلك تفسير واضح أما فنيا فقد تأثرت بتوفيق الحكيم .. هذا الكاتب الكبير يقف وراء جيلنا كله من الناحية الفنية كان الحكيم ولازال النهر الدفاق الذي تتفرع عنه جداول كثيرة في الرواية والقصة والمسرحية .
لقد تتلمذت عليه أثره في حياتي فوق ما تتصور ولولا توفيق الحكيم ما أصبحت أديباً كنت أدرس الفلسفة وأعتبر الأدب على ما سبق حياتي ولما داخل الحكيم من بوابة الأدب عرفنا قيمة الأدب وكيف أنه يكرم الإنسان .
أيامها كنت قارئا وليس هناك ما يغرني إطلاقا بقراءة كتاب لتوفيق أفندي الحكيم فمن يكون وقد تصادف أنني قرأت في " الجهاد " مقالا للعقاد عن صاحب هذا الاسم وقبل أن أتوجه إلى الجامعة ذهبت إلى المكتبة التجارية لأشترى الكتاب .
أذكر أنني عرفت توفيق الحكيم عن طريق مقالتين واحد لطه حسين والأخرى للعقاد والاثنتان عن شيء جديد أسمه " أهل الكهف " مقالة طه حسين كانت بالغة الروعة والعقاد أيضا أثنى عليها ثناء لم يكن منتظراً من العقاد .. في هذه الفترة كانت الأعمال الإبداعية نادرة .. كنا نقرأ لأساتذة الجيل " زينب " لهيكل و " الأيام " لطه حسين .. كانت أعمالاً تعجبنا جداً ولكن احتكاكنا بالجديد جاء عن طريق توفيق الحكيم وأذكر وقتها أنني كنت طالباً بكلية الآداب اطلعت على " أهل الكهف " وكانت تمثل شيئاً جديداً ورائعاً بحيث اعتبرتها بداية جديدة للفن الأدبي العربي . كان تأثيرها كبير جداً نتيجتها الأساسية الزمن ونقده لم يفارقني حتى " أنها " أحسن ما قرأت له لكن أنا أعتبر روحي خرجت من " عودة الروح " .
إن ما قرأناه من روايات قبل توفيق الحكيم في أدبنا العربي الحديث عيسى بن هشام " للمويلحي ، زينب لمحمد حسين هيكل ، فتاه غسان لجورج زيدان ، قبلة الملوك لمحمد فريد أبو الحديد ، وبعض ما آلف طه حسين، والمازني من الروايات . هذه الروايات لها قيمتها وتأثيرها بالتأكيد لكن حين قرأنا "عودة الروح " لتوفيق الحكيم شعرنا بأننا انتقلنا من مرحلة إلى مرحلة جديدة ومن مجال إلى مجال أخر فقد كان لعودة الروح سحر وجاذبية خاصة ذكرنا تماما بالسحر الذي وجدناه في بعض الروائع المترجمة مثل " الحرب و السلام " لتولوستوى " " البؤساء " ليفيكتور هوجو ، " فاوست " لجوتر. ورغم أن فيها ما يشبه المقالات وأيضا رغم خروجها على أشياء كثيرة في الفن الروائي .. رغم كل هذا كان لها امتياز وسحر يخصها وحدها جعلها تفرض روحها على عالم الرواية ككل فقد

كان تأثيرها في جيلنا عميقاً جداً ويصح أن تقول أنها مدرستنا الأخيرة أو المدرسة التي نشأنا في كنفها وتخرجنا منها ، فالرواية عملية سحرية من البداية حتى النهاية ويصح أن تجدها مضبوطة ومحكمة وكل الشروط التي تفترضها في بناء الشخصيات ، وفي الحبكة وفي التعبير الفني كأنها تطبق قواعد حرفية لكنك تجدها ثقيلة ومرفوضة لأن ليس بها أي سحر خاص ومن هنا كان الحكيم فنانا ساحراً من الطراز الأول ، وكل شيء وضع يده فيه كان يشع منه سحراً ، فالأساتذة السابقون على الحكيم كانت أساليبهم تجمع بين التراث والمعاصرة في بنية واحدة مثل أسلوب محمد حسنين هيكل ، طه حسين والعقاد ، إلى أخر هؤلاء الرواد لكن الحكيم ظهر بلغة جديدة أفضل أن أسميها لغة توفيق الحكيم لأنها لغة خاصة به وحده لم يسبقه إلها أحد فأسلوب الحكيم هو أسلوب الحكيم ولغة الحكيم هي لغة عذبة وبسيطة وسلسة ومصرية ومع كل هذا هي ابنة شرعية للتراث العربي وقد تجلت هذه اللغة في الحوار فقد كان رحمة الله يجد سعادته في الحوار وكل سحره تلمسه في الحوار في أحاديثه في كتاباته وكل ما تذكر لرواياته حوار ويبدو أنه خلق ليكون مسرحياً قبل كل شيء ، كان الحكيم يمتاز بذكاء نادر وثقافة موسوعية مكنته من التقاط الجزيئات التي قد لا ينتبه كثيرون إليها سواء في التراث أو التاريخ أو الحياة فمثلاً تجده في مسرحية (أهل الكهف) يصور لك الناس الذين خرجوا من الكهف فاكتشفوا أن عملتهم ليست متداولة .. هذه أسطورة قديمة ومذكورة في القرآن ومعروفة لنا جميعاً .. لكن الحكيم التقطها ليخاطب بها مصر الحديثة ووظفها توظيفاً معاصراً لأن عينه دائماً على الحاضر حتى أن (إيزيس) انقلبت عنده إلى ما يشبه ثورة شعبية وأيضاً (السلطان الحائر) رغم أنها حادثة تاريخية صغيرة إلا أن الحكيم أستطاع أن يستخرج منها معاني من أجمل المعاني وأبلغها وأنا شخصياً أعتبرها في قمة ومقدمة مسرحية ويصح أن نضعها عنوان للمسرح الحديث .لقد كان الحكيم من جيل موسوعي أثري الحياة الثقافية والأدبية والفنية بإعطاء أمثلة في كل شيء للفن كله : مسرح رواية .. قصة قصيرة لكن كان عليه أن يستقر بعد عناء الرحلة في بيته في المسرح) ومن كل هذه الأمثلة الأدبية والفنية التي أعطاها توفيق الحكيم خرج أدباء مصر الحديثة فقد كان الحكيم هو الحلقة التي أكملت سلسلة الحلقات ما بين أدب العقاد وطه حسين وجيل ما بعد توفيق الحكيم) كنا نقرأ أعماله ونعتبره ظاهرة لأنه أعاد خلفه الفن العربي من جديد كان الحكيم يشعل فينا الحماس والرغبة في الإبداع وكان تأثيره أكبر وأعمق من أن تعبر عنه الكلمات .. لقد تمكن الحكيم من قلب القيمة عند ظهوره بمعنى أنه استطاع أن يكسب الأدب الاحترام الذي يستحق بعد ما كان النقد وحده يستحوذ على كل الاهتمام والاحترام)

لن أنس ما حييت كيف غمر حياتنا الأدبية بين يوم وليلة مفاجأة مثيرة سعيدة بلا مقدمات مجلس على العرش متوجاً بتسليم ورحاب مؤيداً بمبايعة عمالقة العصر كله واعترافهم بعبقريته وتفرده . منذ ذلك التاريخ في الثلاثينيات تحول مجرى حياتنا الأدبية من النقد والتاريخ والتعريب إلى الفن الخاص بجامع رونقة وجمال وفلسفة أمنا بكل يقين أن الأدب ليس الشعر وحده ولو كان شعر شوقي وحافظ ومطران وأن المسرحية والرواية والقصة تستطيع أن تسمو إلى مدارج الشعر وسماواته وأن تمد القلب والعقل بيضاء الفن وعمق الفكر ومتعة الروح . لقد عدل الحكيم من نظرتنا للأشياء وأعاد رسم خريطة الحياة الثقافية في مصر .

للإختصار

منذ ذلك التاريخ أيضاً اسفرى الحكيم في حياتنا الثقافية بحيرة ثرية مترامية دفافة انطلقت منها الأنهار والجداول خالقة أجيالا من الروائيين والمسرحيين والقاصاصيين ازدانت بهم أسرة أهل الفن عصر من عصوره الذهبية وكسب المسرح بظهوره مؤلفا مسرحياً أصيلاً بعد ما كان مقتصراً على الاقتباس والترجمة) .

كان هو معلمنا الحقيقي للأشكال الأدبية الحديثة أنا تعلمت في الجامعة الفلسفة ، ولكن تعلمت الأدب الحقيقي في أدب توفيق الحكيم ، ولأنه كان يعمل في أسمى الهيئات وهي القضاء فقد منح الفن

والأدب الشرعية الاجتماعية ، من ناحية كيف يشغل واحد من ذوات وظيفة في ذلك الوقت من أسمى الوظائف (وكيل نيابة) ثم يترك وظيفته وكل شيء من أجل أن يتخصص في الأدب والرواية) زلن ننسى للحكيم أنه الكاتب الأول الذي جعل الدولة تحترم الفن والأدب وتخصص لها ما يسمى بالتفرغ العقاد وتوفيق الحكيم وفر علينا جهاد مائة سنة لم يعد الأدب مهنه مرتزقة) لما قال لنا صديق مشترك إن توفيق الحكيم يريد رؤيتي سعدت جداً واعتبرت ذلك جائزة كبيرة لأن الحكيم كان هرماً تعلمنا منه لذلك أتهيب الجلوس على مكتبه وفي ذلك حكاية قالها لي وهي أنه رأى مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق يتقدمهم أخوهما الثالث المزارع . فقال إنه احترم هذه الأسرة جداً فما بالك والحكيم هو زارعنا كلنا)

نبوءة العقاد

في أواخر العشرينات الماضية وقد كنت وقتها ناشئاً في المرحلة النهائية من الدراسة الثانوية قرأت مقالاً للعقاد عن فنان رسام أسمه (محمود سعيد) وقد تعجبت جداً لذلك فالفن في ذلك الوقت لم يكن له وجود كبير في المجتمع فكيف يفرد العقاد الكبير مقالاً كاملاً عن أحد الفنانين ؟ وقد تناقشت في هذا مع بعض أصحاب الرأي فقيل لي : إن الأدب ليست وظيفته الأدب وحده وإنما عليه أن يدرس الفنون كلها مثل الفن التشكيلي والموسيقي وغيرها ينهل منها ما يستطيع ولقد كان محمود سعيد هو الذي عرفني على عالم الفن التشكيلي وقد اكتشفت بعد ذلك أنه كان يقام معرض سنوي وحيد في شارع إبراهيم باشا بالقاهرة تعرض فيه جميع أعمال الفنافين فلم تكن هناك معارض خاصة في ذلك الوقت لكل فنان، وفي هذا المعرض العام الذي تعودت ارتياده كل سنة تعرفت على أعمال محمود سعيد لأول مرة ولوحات مازالت منطبعة في مخيلتي بألوانها مثل (بنات بحري) و(بائع العرق سوس) والكثير من البورتريهات النسائية التي اشتهرت بها والتي استطاع فيها أن يجسد الجمال شعبي كما لم يفعل أحد من قبله وقد كان بالفعل رجلاً عظيماً وقد أكد لي بفنه المتميز القيمة الحقيقية للفن التشكيلي خاصة بعد أن علمت آنذاك أنه كان مستشاراً لكنه ترك القضاء ووهب وقته كله للفن رغم أنه وظيفة المستشار كانت واحدة من أرقى الوظائف في المجتمع تلك الأيام وقد كان لذلك تأثير على القرار الذي اتخذته بعد ذلك السنوات حين تركت الفلسفة التي درستها بالجامعة وتفرغت للأدب)
بالطبع لقد خلق العقاد عندي قيما عزيزة أولاً قيمة الأدب كفن سام لا وسيلة تكسب وكان دائماً يرفع بالفن إلى مستوى الرسالة المقدمة وثانياً أهمية الحرية في الفكر وفي حياة الإنسان عموما ثم نظريات النقدية في الشعر التي جعلتني أتذوق جديداً وكذلك عرفت عنده أول قصة تحليلية نفسية وهي سارة ومع ذلك فقد حدث أن تعرضت للعقاد ذات مرة رغم حبي له فقد وحدته قد ظلم الرواية حين قال : إن الرواية ليست فناً كالشعر أي أنها ليست في منزلة الشعر فرددت عليه بأدب : إن الرواية الجيدة وكما توجد الرواية الرديئة يوجد شعر الردئ أيضاً والحقيقة أن العقاد لم يرد لأنني تكلمت بموضوعية شديدة وبأدب شديد دون استفزاز أو هجوم وهذا ما كان يدعوه للرد بعنف والحقيقة أيضاً أن العقاد أنصفني حين تقدمت لمسابقة مجمع اللغة العربية ضمن من تقدموا بقصصهم ولكنهم اختلفوا فيها وكان المازني في الجنة التحكيم وكان يريد إنصافي وبالمصادفة كان العقاد يمرعلى المازني لكي يرجعا سوياً فوجد خناقة فقالوا له تعالى لتكون أنت الحكم وهذه روايتهما وكانت جماعة التقليديين والأزهريين يريدون إعطاء الجائزة لمحمد سعيد العريان، و المازني يريد إعطاء الجائزة لي ، فلما قرأ العقاد لكل منا، قال : أوجه للمقارنة بيننا ، وانتهى الخلاف إلى إعطائنا الجائزة مناصفة".

وظل العريان طوال حياته يقول: لقد أخذ مني العقاد نصف جائزتي و منه لنجيب محفوظ. كذلك كان زميلي وصديقي د. توفيق الطويل- يرحمه الله- يتردد على صالون العقاد و بين حين وآخر ينقل لى ثناء العقاد وإعجابه بأعمالي التي تصدر.
أما المرة الثانية التي أنصفني فيها العقاد فكانت بعد ذلك بسنوات حين قال العقاد في حديث تلفزيوني أذيع قبل وفاته بقليل: إن عندنا في مصر من يستحق الفوز بجائزة نوبل ، وبعد حوالي ربع قرن تحققت نبوءته.

فرحة كبيرة

عندما بدأت أعمل لم أكن أفكر في جائزة على الإطلاق ، و هذا شيء طبيعي ، و لا أعتقد أن هذا خاص بي، فلا أحد يبدأ في الكتابة و ذهنه في الجائزة، و مع هذا فإن الجوائز كان لها قيمة كبيرة في حياتي ، لأنني في الوقت الذي كنت فيه أؤلف فيه روايات لا أعرف كيف أنشرها كنت أحصل على جوائز فقد أخذت جائزة قوت القلوب الدمرداشية عن رواية " رادوبيس" مناصفة بيني و بين أحمد باكثير ، فكانت قيمتها أربعين جنيها و كانت فرحتها كبيرة و كان حصولي على عشرون جنيها يومها حدثا كبيرا لأن مرتب مدير الإدارة وقتها لا يصل إلى هذا المبلغ" .
كانت السيدة قوت القلوب الدمرداشية ابنة الدمرداش باشا ، و هي سيدة مجتمع تحب الأدب ، و طه حسين كتب مقدمات لبعض كتبها ، و خصصت هذه الجائزة لتشجيع الرواية" . و أخذت جائزة المجمع اللغوي، عن رواية "خان الخليلي" قبل أن تنشر " ولما نشرتها مكتبة مصر كان الإعلان عنها يقول : القصة الحاصلة على مجمع اللغة ، و كانت الجوائز يومها لها قيمة كبيرة من الناحية المادية و من الناحية النفسية على المؤلف ، فقد تأكدت من أن هذه الأوراق المتراكمة في مكتبي لها قيمة ، و من الذي يعترف بقيمتها ؟ أساتذة كبار و أعضاء في مجمع اللغة. و طبعا لم تكن هناك وساطة ولا محسوبية لأننا كنا كتابا مجهولين" و أخذت جائزة وزارة المعارف " عن كفاح طيبة و كان علي أحمد باكثير ضمن الفائزين في جوائز وزارة المعارف ، وكان هذا الفوز هو الذي فتح أمامنا طريقا للنشر بعد أن كانت أعمالنا قابعة في الأدراج و لقد عرفت أحمد علي باكثير منذ سنوات الشباب حين كنا نخطو خطواتنا الأولى في الكتابة الأدبية، و أنا في الرواية و هو في المسرح ثم توطدت

العلاقة بيننا على مدى سنوات بعد أن صارت أسماؤنا معروفة في المجال الأدبي وقد كنا نلتقي أسبوعيا في كازينو الأوبرا.

لقد كان علي أحمد باكثير على ثقافة عالية و كان حجة في آداب اللغة الإنجليزية التي كان يجيدها إجادة تامة ، وقد عمل فترة طويلة مدرسا للغة الإنجليزية لكن انتقل بعد ذلك إلى مصلحة الفنون فتزاملنا مرة أخرى حيث كنت أعمل بها أيضا ، وقد كنت من أشد المعجبين بأدب على أحمد باكثير برغم أنه كان كاتبا مسرحيا تخصص في المسرحيات التاريخية، و أنا روائي ملت كثيرا إلى المعاصرة و الواقعية، على أن باكثير لم يقتصر إنتاجه الأدبي على المسرح وحده و الذي ترك لنا فيه أكثر من أربعين عملا ، و إنما كان شاعرا من الدرجة الأولى شهد له بها العقاد و المازني و غيرهما".

رفضت هذه الجائزة

كاتب لم يتمكن من النشر و يأخذ جوائز؟ كل ما يأتي له من تشجيع عن طريق الجوائز ، و يفترض أن مسابقات الجوائز يتقدم لها كثيرون و بالتالي يجد الكاتب في الفوز بها شيئا من العزاء. فكانت مهمة جدا في حياتي في الحقيقة .

بعد ذلك أخذت الجائزة التقديرية مرتين القديمة (جائزة فؤاد الأول) – و كانت الجائزة امتداد لتقليد متبع قبل الثورة- في الحقيقة أخذت الجائزة عام ١٩٥٧ لأخر مرة قبل إلغائها ، أخذته كاملة، و أخذها محمد كامل حسين و كان شخصية رائعة و عقلا ممتازا لا نظير له ، مثله مثل جمال حمدان في الجغرافيا ، بجانب أنه كان رائدا في جراحة العظام .

و قد نالها عن روايته العظيمة " قرية ظالمة " و أنا عن رواية" قصر الشوق" ، و كانت الجائزة أيامها ألف جنيه مناصفة بيني و بين د . كامل حسين. ولكن الدكتور طه حسين أصر على أن نأخذها كاملة فطلب (الوزير) كمال الدين حسين و قال أنه يريدها كاملة لفلان و فلان، فوافق على الفور ، و أنا أعتبر أنه مما يشرف روايتي أنها نالت الجائزة مع " قرية ظالمة" و الفضل في ذلك يرجع إلى الدكتور طه حسين، بعدها نالت جائزة الدولة التقديرية التي أنشأتها الثورة وقد ظللت أرشح لها من جهات مختلفة سبع مرات متتالية دون أن أحصل عليها ، و لكن في هذه السنة فاز عبد الرازق السنهوري بالجائزة و نظرا لموقفه من الثورة فقد تردد أن الرئيس عبد الناصر قد يلغي الجائزة ، لكن

يبدو أن الرئيس عبد الناصر قد رأف بحالي – وبما عسى أن يحدث لي إذا ألغيت الجائزة في العام الذي حصلت عليها بعد سبع سنوات عجاف – فلم يلغها .

أما جائزة نوبل فلم تكن متوقعة ، و قد ظللت أقول لزوجتي التي أخبرتني بنبأها أن تكف عن المزاح ، إلى أن فتح باب المنزل و دخل عليَّ خواجة ضخم فقلت له من أنت ؟ فقال أنا سفير السويد . عندئذ أدركت الحقيقة ".

و هناك جائزة عرضت عليَّ و لم يعرف بها أحد ، وهى جائزة مجلة "حوار" و كان يشرف عليها توفيق الصايغ" ... ذات يوم و أنا قاعد مع شلة الحرافيش حضر د . لويس عوض – الله يرحمه – و قال لي : توفيق الصايغ طلب أن أجس نبضك بالنسبة لموافقتك على قبول جائزة القصة و كانت (٢٥٠٠) جنيه . قلت له أن الرجل شخصية ممتازة، و لكن لا أعرف شيئا عن سمعة المجلة و تمويلها ، فالأكرم أن أبعد عن الشر . و قلت للدكتور لويس ألا يعرضها عليَّ بطريقة رسمية من الأول ، فهذا أكرم لهم ولي و المسألة انتهت و لم يعرف بها أحد غيري أنا و دكتور لويس. ثم عرضت بعد ذلك نفس الجائزة على د . يوسف إدريس الذي وافق على ترشيحه ثم عندما نالها رفض استلامها حيث قيل أيامها إن تمويلها من المخابرات الأمريكية".

الحسرات

لم أكن اهتم بالنشر ولا بالجوائز و كنت ماشي مثل " وابور الزلط " . الواقع أن الرغبة في الكتابة كانت موجودة منذ زمن قديم حتى قبل تبين دوافعها"

جاءت هذه البداية بطريقة تلقائية، فمن قراءة الروايات تولدت رغبة قوية عندي في كتابة مثل ما أقرأ من غير هدف بعيد أن يصبح الإنسان قصاصياً، ومع مرور الأيام أصبحت رغبة ثابتة طلت تقوى بتقدم العمر، وبالتقدم في الثقافة بجميع فروعها الأدبية والفنية والعلمية، وفي فترة التجارب كتبت الكثير مما لم يطلع عليه أحد، وهذه التجارب الساذجة بدأت سنة ١٩٢٦"

الدوافع أو الظروف التي كانت وراء هذا الاهتمام لم تكن أكثر من توافر وقت فراغ في أربعة أو خمسة أشهر في العطلة الصيفية، كنت أقضيها في القراءة، وفي هذا النوع من التأليف المزيف"

ففي أيام إدمان القصص البوليسية كنت أعيد كتابة بعضها في كراسة خاصة وأكتب عليها اسمي ، ياريت بقلم . فمعني ذلك توفر شيء من الأمانة كنت اكتب عليها تأليف نجيب محفوظ ، التأليف كان مخصصاً له فترة الصيف لا يجور على وقت المذاكرة، كنت أؤلف الكتاب الذي انتهيت من قراءته،

وأزود عليه تفاصيل خناقاتي مع الأصدقاء، وأكتب على الغلاف تـأليف نجيب محفوظ، وأضـع اسم أي ناشر وهمي"

كنت محاكياً ومتأسياً بلغة أستاذي طه حسين، أما المنفلوطي فقد ولدت في حضنه، لذا قمت بتقليده تقليداً صريحاً في أعمال لم أنشرها. فإذا كتب طه حسين "الأيام" كتبت "الأعوام" وإذا كتب المنفلوطي "النظرات والعبرات" كتبت "الحسرات"، وكنت أيامها في المرحلة الثانوية، وكان أصدقاء المنفلوطي ممن يجيدون اللغات الأجنبية يترجمون الروايات ثم يعربها هو بأسلوبه، وقد بكيت من هجوم المازني عليه، كما كنت أبكي عند قراءة "ماجدولين"

شعر الإفطار

وأذكر أنني في هذه الفترة كتبت الشعر. الحقيقة أن أي كاتب يبدأ بالتراث دون اختيار لأننا نجده أول ما نجده في الكتاب والمدرسة الابتدائية والثانوية، والتراث العربي أساسه الشعر" لذلك فإن استمساكي بالتراث كان وكأني لم أكتب الرواية وإنما سأكتب الشعر"

التراث هو المؤثر الأساسي في الرواية العربية الحديثة فالأساس الأول هو اللغة، اكتسب من التراث جماليات لا حصر لها من شعره ونثره، وقد عشنا مع الشعر العربي منذ صبانا أو طفولتنا من الجاهلية للعصر الحديث كان هو المفضل عن أي نوع من النثر فيما عدا ألف ليلة وليلة" والملاحم الشعبية، لكن تلك كلها لا تقاس بثراء الشعر مثلاً.

ومع أني نشأت على الشعر التقليدي إنما لما جاءت المدرسة الحديثة كان عندي من المرونة ما جعلني أستطيع أن أتماشى معها وأعشقها دون أن أتخلى عن الأصل، واستطعت أن أتذوقها تماماً، وجميع الشعراء في البلاد العربية الذين أسسوا المدرسة الحديثة مع بعض الشعراء المصريين قرأتهم بشغف، يعني الحقيقة لولا أني لست من الحفيظة، يمكن كنت أصبحت شاعراً.

لقد حاولت الشعر وأنا في سن المراهقة، وربما كنت آنذاك في السنة الأولي بالمرحلة الثانوية، وكانت لي كراسة ملأتها بالشعر الذي كنت أكتبه والذي في معظمه لم أكن أستطيع وزنه، لذلك اعتبرت نفسي من المجددين في الشعر، لأنني سبقت كل المجددين بهذا الشعر المكسور، ومع ذلك فقد كانت به بعض الأبيات الجميلة الموزونة، لكنها كانت الاستثناء، أما الباقي فكان كله مما لم أرض عنه ، وحينما وجدت الأبيات المكسورة كثيرة أطلقت الشعر وحررته من الوزن، فكنت رائد المدرسة الحديثة في الشعر بلا منازع! لأن هذا يرجع إلى سنتي ١٩٢٥، ١٩٢٦"

فأنا من عشاق الشعر، وخاصة الشعر العربي القديم لذلك لم تكن ترضيني تلك المحاولات الصبيانية الأولي في حياتي، وأذكر في تلك السنوات من صبايا كتابا كان مقرراً علينا في الدراسة وأعتقد أن اسمه كان "المختار" وكان الذي جمعه هو د. طه حسين والشيخ الأسكندري، كان هذا الكتاب يضم مقتطفات من أعمال جميع شعراء العربية من أجهل الجاهلية إلى العصر الحديث، وكان يصاحب هذه المختارات الشعرية نبذة عن الشاعر وحياته، ولقد احتفظت بهذا الكتاب مدة طويلة، وأذكر أنني قمت ذات مرة بعمل مختاراتي الخاصة من هذا المختار، كنت أدونها بنفسي في كراسة كبيرة كانت تضم أشعاراً للمتنبي والبحتري وأبو نواس وغيرهم، وكنت كثيراً ما أرجع لهذه الأشعار بشكل منتظم، فلم يكن يمر عليّ عام من الأعوام دون أن أقرأ هذه الأشعار من جديد والتي كانت تعتبر من أفضل القراءات بالنسبة لي، كنت أعود إليها كما يعود الإنسان لسماع موسيقى معينة يهواها، كلما استطاع"

كذلك قرأت التراث الحديث من شوقي وحافظ ومطران والعقاد ومدرسة أبوللو"
بعد سنوات الصبا التي عشقت فيها الشعر وحاولت كتابته اتسعت دائرة اهتمامي بالشعر فبدأت أقرأ للشعراء الأجانب، وأذكر على وجه التحديد ديوان الشاعر الفرنسي الكبير شارل بودلير " زهور الشر" طبعها هذه الأيام، فهذا الديوان هو من أمهات الشعر في العالم ويجب أن يكون متوفراً لشباب اليوم.
كذلك قرأت في شبابي الشعر الصوفي بجميع اتجاهاته، وكان يستهويني كثيراً شعر جلال الدين الرومي الذي كنت أحفظ الكثير من أبياته، كما قرأت أيضاً رباعيات عمر الخيام بترجمتيها تلك التي كتبها أحمد رامي والأخرى التي قام بها السباعي، وقد كانت ترجمة رامي هي الأدق لأن رامي كان يجيد الفارسية، أما ترجمة السباعي فكانت في نظري الأجمل.
واستمر معي هذا الاهتمام بالشعر في سنوات النضج حتى بعد أن أقلعت تماماً عن كتابته"
من القدامى أحببت المتنبي وأبا نواس وأبا تمام وحافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي...... ومن المحدثين: السياب والبياتي وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي مجازي وأمل دنقل"
أقرأ واستمع وأنسى وأنا متتبع للشعر بقدر استطاعتي حتى الموجات التي جاءت بعد أجيال الشعر الحديث وهى الحديثة جدا ، الواحد رغم الاستمتاع بها قد يجد فيها شيئا من الصعوبة تقدر تقول الواحد كبر فقل صبره عليها ، اى فنان يجب أن يكون هدفه الإيصال ، يجب أن يكون الفن مثله الأعلى وأن يصل لكل وجدان الناس ، أنا من عشاق الشعر ، أقول لك بصراحة إن أنا في الصباح بعد الإفطار لابد أقرأ حتى ولو بيت شعر واحد قبل ما أخرج أتمشى ...
وقد كان لكل ذلك تأثرا لا أستطيع إنكاره على كل ما كتبت من أعمال ، لأن التراث جزء لا يتجزأ من تكوين الأديب، فالأسلوب كان تقليديا موضوعيا في أعمالي المبكرة حتى الثلاثية كانت تقصي التفاصيل حتى أقصى مدى، وهنا كان إفتقار التركيز ولا تحظى إلا بالقليل من الشعرية، وفي الستينات حاولت الوصول إلى الشاعرية واختزلت التفاصيل لحساب الفكرة وكانت رواية السراب ، وفي الشحاذ كان فيها الأسلوب تأثيري، وهذا يعني في الرواية التركيز على الحياة الداخلية للشخصية الرئيسية دون الاعتناء كثيرا بالواقع الخارجي فالتحليل العلمي الموضوعي أو التشخيص للحالة لم أركز عليه في البطل رغم الغوص في أعماقه الداخلية وكان تركيزي عل الشاعرية في التعبير ..الشاعرية الكامنة في الموقف والشخصية .

نقد لاذع للمجتمع الحالي وشبابه وفنانيه وإعلامه

ومن حواره مع إحدى الصحف:

كتبت بعض الشعر على لسان بطل الرواية وقال لي د. عبد القادر القط آنذاك إنه كان أجدر بي أن أستعين بأحد الشعراء لكتابة هذه الأشعار

بيني وبينك في الماضي كنا نعتبر بيت الشعر جميلا لأن المدرس قال لنا ذلك ، مع أن المسألة متروكة لذوقنا ..ولكن التعليم كله إملاء وحفظ الآن لو أعطيت للطالب مائة بيت من الشعر، وجعلته يختار خمسين بيتا ، هنا تساعده على التذوق ..

لو قلت له : ما هو مكتوب على الأحجار عن تحتمس وانتصاراته لأنه يريد أن يبني إمبراطورية ..هذا يعلمه التفكير بدلا من الحفظ الذي ينساه بعد الامتحان لا تخف من أي فرض ، لأنه يناقش بالعقل ..لا تتعصب ، وبهذا نأمن على أولادنا من أي غزو فكري لأن الواحد منهم يستطيع أن يناقش وينفتح على

جميع الحضارات وأنت مطمئن ..وهذه التربية المدرسية لا تستمر معنا طول الحياة ..وأجهزة الإعلام ضاعت التربية انظر إلى الحاضر أمامك فستجد أن انتماء الكثيرين من الناس غير بارز وعرفتهم لتاريخهم القريب مجهولة ، بعض الشباب يتحدثون معي عن الديمقراطية المصرية من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٥٢ صدقني ليست لديهم أي فكرة على الإطلاق يتحدثون وكأن هذه الفكرة غير موجودة ، فما بالك قبل هذه الفترة؟!

ونهضة العرب في رأيي تقوم على أساس الديمقراطية والدين والعلم الديمقراطية التي أقصدها ليست مجرد مؤسسات تتمثل في برلمان وصحافة لابد أن تبدأ الديمقراطية من نظام التعليم في المدرسة ..تعليمنا قائم على التلقين والحفظ وهذا ظل للحكم الديكتاتوري والشمولي ، يجب أن يقوم التعليم على المناقشة وحرية الفكر من هنا نتعلم الديمقراطية

ولعل أغرب ما أسمعه عن النقاد المعاصرين أن الشتائم حتى أصبحوا كالفتوات في الأحياء الشعبية .

محنة الأديب

نطقت شعرا في السن الذي ينطق فيه أغلب المراهقين شعرا ، وهذه محطة يقف فيها الجميع ولا يثبت فيها إلا الشعراء الحقيقيون .

تحدثنا عن هذا الجزء سابقا

أشعاري كانت كلها في بادىء الأمر تدور حول الحب وربما ذكرت في بعض القصائد علاقات معينة وأسماء بطلاتها ثم بدأت أكتب إلى جانب هذا اللون قصائد أخرى تتصل بمشاعري الخاصة كفرحتي بالعيد ورمضان ونحو ذلك والواقع أن فترة الشعر لم تطل ، فقد عاودت التأليف مع قراءاتي للمجددين حين قرأت الأيام لطه حسين كما ذكرت سابقا ألفت كراسة أو كتابا كما كنت أسميها وقتذاك – أسميتها الأعوام رويت فيها قصة حياتي على طريقة طه حسين ، بعد ذلك ومع تعرفي إلى آراء المجددين في أدبنا والتفاني إلى شعر المتنبي وأبي العلاء ألفت كراسة أخرى وضعت فيها فلسفتي في الحياة والكون والخالق.. وحينما تقرأ ما كتبته في تلك السن المبكرة تحس أنك تقرأ الشخص قد أحاط بكل شيء علما، وأصبح له رأي حاسم في كل المشكلات التي حيرت كبار الفلاسفة والمفكرين!

وتأتي بعد ذلك مرحلة أخري أكثر نضجا بدأت في أواخر الثانوي وأوائل الجامعة ، واستمرت عدة سنوات كنت أكتب خلالها المقال والنقد الأدبي، وتلخيص المسرحيات والأقصوصة والرواية وكان يساعدني على ذلك أن العطلة الصيفية كانت أربعة أشهر وكانت تمتد في معظم الأحيان إلى خمسة .

بدأت إنتاجي الأدبي

كتبت سنة ١٩٣٦ حوالي ١٠٠ قصة فما أكثر الأقاصيص التي رفض نشرها، وكانت أيام عذاب ومحنة تتكرر مع كل أقصوصة أو مقال يرد على أن المقال كان أسرع في القبول من الأقصوصة فالنشر دائما صعب خصوصا في البداية، فقد كنا نختار بعض المجلات المتخصصة مثل بعض المجلات القضائية التي كانت تخصص معظم صفحاتها للإعلانات، فكانت ترحب بتسويد صفحاتها لكي تسند نفسها أمام الجهات التي تصدر عنها لكي تحصل على الإعانة اللازمة، فهذه كانت ترحب بما نكتبه، إنما وجدنا صعوبة بالغة في نشر أي شيء في مجلة تستحق هذا الاسم .

كنت أكتب المقال مع الأقصوصة والرواية ، وكان المقال يقبل والأقصوصة والرواية يرفضان ، وجاء وقت قبلت فيه الأقصوصة فانصرفت إلى كتابتها ونشرها وإن لم أمتنع في الوقت نفسه عن كتابة الرواية ..نشرت في الصحف حوالي ثمانين قصة .

نشرت حسن الزيات معظمها في مجلة الرواية ونشرت الباقي في الرسالة والثقافة وكتبت قبلها أكثر من ستين قصة لم أنشرها لأنني لم أكن راضيا عنها سأصرح لك بسر : لقد بدأت كتابة القصص القصيرة متأثرا بقصص محمود تيمور والمازني ومترجمات محمد السباعي القصصية وعندما عدت إلى كتابة القصة القصيرة لم أكن متأثرا بأحد من كتاب القصة القصيرة لم أكن متأثرا بأحد من كتاب القصة القصيرة بخلاف ما قرأت عن فن الرواية لم أقرأ إلا القليل عن القصة القصيرة بل وقرأته في سن متأخرة كذلك ليس في مكتبتي عن مجموعات القصص العالمية إلا القليل وأكثر ما قرأت في المجلات، وعن عجب أنه كان لي صبر بلا حدود في قراءة الروايات رغم طولها ولا صبر لي على قراءة القصة القصيرة .

المعنى مكرر

لم أكن أتصور أن الفن عليه أجر وقد نشرت على سبيل المثال ٨٠ قصة قصيرة دون مقابل مادي

وكنت في غاية السادة كان يكفيني أن أعبر عن نفسي وأن يجد هذا التعبير طريقه للنشر

جعلت الحياة الأدبية والفكرية حياة تحيا لا مهنة تمارس، بمعنى أنها تحوي كل أهميتها في ذاتها، فمجرد أن أعيش مفتوح الحواس والعقل أقرأ أو أكتب، هذه حياة وعمل وثمرة في الوقت نفسه دون النظر إلى نتائج خارجية، وهذا يعني أنني

ظللت أكتب كثيرا حتى جمعت أعمال لدي من غير نشر من غير أن أشعر برغبة في التوقف لأنني لم أربط العمل بثمرته وهذا ما جعلني أصبر على تجاهل عملي لما خرج إلى النور فيما بعد بهدوء وسكينة .ولو نظرت إلى الأدب كعمل وثمرة لتغير الحال .

يعني قابلني صمت طويل ولكن صبري كان أطول منه وتعلمت أن الصبر الإيجابي مفتاح الفرج ، الصبر عندي ليس مرادفا للإستسلام إنما باعث على العمل دون إنتظار النتيجة كتبت ثلاث روايات ولم تنشر فبدأت أكتب الرواية الرابعة .

يوم من أيام صيف ١٩٤٠ كان يوما من أسعد أيام حياتي بالطبع أتت بعده أيام أخرى سعيدة لكن طعم هذه السعادة أبدا لم يتكرر ! كنت أمشي في شوارع القاهرة بلا هدف ، وفوجئت بالصديق- المرحوم- صلاح ذهني يصيح على بلهجة أحسست معها أن حادثا ما خطيرا قد حدث .

- أين أنت ؟ يبحثون عنك منذ شهور ومن هم؟
- مجلة الثقافة لك جنيه عندهم.. ثمن قصتك الأخيرة وهم يريدون التخلص من هذا الجنيه الذي يربك لهم تسوية ميزانيتهم !

كنت قد كتبت ونشرت حتى ذلك اليوم ما يقرب من ثمانين قصة، ولم أقبض مليما واحدا منذ عام ١٩٣٤ وأنا أنشر قصصا قصيرة في مجلتي الرسالة والرواية دون أن يدخل جيبي مليما واحدا .
طرت طيرانا إلى مجلة الثقافة

ما الذي حدث؟
لم أنتظر لأعرف الجواب ..كنت أحس أني أحمل ثروة ضخمة، ووجدت الجنيه في انتظاري فأخذته وانطلقت إلى أصدقائي وليلتها شهدت العباسية سهرة أصدقاء مرحة إستمرت حتى الصباح!! في تلك الليلة ظننت أن أبواب الثروة قد فتحت لي ، فأرسلت لهم قصة أخرى كانت حوادثها كلها تدور داخل غارة، فقد كنا أيام الحرب العالمية الثانية، ولأول مرة تكوى القاهرة بهذا النوع من الحروب، وكان طابع القصة هو الرعب الذي تحدثه الغارات في النفوس.
نشرت القصة بالفعل، فذهبت لأقبض ثمنها وأسلمهم قصة جديدة، غير أني ما إن دخل على سكرتير التحرير ورآني حتى هاجمني شرر ينطلق من عينيه، وهجم على كما لو أنه يريد أن يخنقني على خديعتي له!!
أي خديعة؟!
في تلك الأيام كانت الرقابة العسكرية تمنع أي كتابة تثير الخواطر، وما إن نشرت قصتي عن الغارة ، حتى فوجئت المجلة بإنذار من السلطات وخصم المسئولون في المجلة جزء من مرتب سكرتير التحرير لعدم يقظته!رأيت هياج سكرتير التحرير فلم أنتظر حتي ثمن القصة بل وليت هاربا ولم أعد إليهم وبقى الجنيه الوحيد الذي أخذته منهم ذكرى يتيمة لكن جميلة غمرت قلبي بالأمل في المستقبل كانت النقود أيامها هي آخر شيء يفكر فيه كاتب ناشىء مثلي نعم ظللت أعتبر نفسي ناشئا حتى بعد كتابة ونشر ٨٠ قصة! كان النشر في تلك الأيام هو المجد الأعظم والمتعة التي لا يعلوها متعة!! كان جيلنا لا ينظر للأدب على أنه مصدر رزق إنني أتذكر تلك الأيام وأضحك وأفكر كم تغير الزمن !
اثنان أو ثلاثة فقط هم الذين كانوا يقبضون على ما يكتبن طه حسين والعقاد والمازني أما جيلنا فكان المجد في النشر وحده واحد فقط من جيلنا ثار على هذا الموضوع " عادل كامل " عزم على انه يحترف الأدب ويعيش منه فماذا حدث له؟ كان أول أديب من جيلنا توقف عن الكتابة ، كان يكتب الرواية فلا يناله منها قروش كان يكتب المسرحية فلا تحيا شخصياتها إلا في ظلام درج مكتبه ، أعلن هجرة الأدب واحترف المحاماة !!

هذا الجزء به إطالة

تلك كانت محنة الأديب أو الفنان في تلك الأيام ، هذا مع أننا لم نكن نحس فيها بطعم المحنة ، لقد كان شقاء في سبيل ما نحب !! كنا ننفق على الفن والأدب من مرتباتنا التي نقبضها من الوظيفة !

همنا الوحيد : أن نكتب ، و نكتب ، و نكتب

اذكر في مطلع حياتي وأنا موظف في إدارة الجامعة ، سمعت أسمة فيردي قالوا عنة أنة عن طريق (البنورة المسحورة) يكشف عن أشياء غريبة جدا .

قلت في نفسي لن اخسر شيئا وكلها عشرون قرشا .... طبعا ثبت لي بعدها أن الرجل عنده فراسة شديدة ، تجعله يستطيع أن يعرف ما بداخلك .

قال لي : حياتك كلها ورق ، ورق ، و سطور ولكن الرزق ليس بالوفير .

وهذا الكلام وان كان ينطبق على أي موظف مصري، فهو ينطبق أيضا علي، فحياتي كلها ورق ومن ذوى الدخل المحدود .

أول رواية

دخلت الأدب وأنا في نيتي أن اعمل لأخر نفس ، نجحت سأستمر ، فشلت سأستمر ، كنت مقرا إلا يعوقني أي شي الفن حياتي ، لم أكن أضع غاية أن لم أصل إليها سيصيبني اليأس وسأتوقف كنت قد قدرت أن أسير في طريقي و لا شيء يوقفني عندما اخترت الأدب كان اختيارا حتميا ولم الجأ إليه كشيء بديل عن أي شيء أخر قد انصرف عنه إذا ما تحقق البديل الأساسي ان اختيار حياة ، ولم يكن ثمة تردد ، وكان لابد من الاستمرار والمثابرة أيا كانت النتائج ، كان الأدب بالنسبة لي نوعا من المسئولية كالزواج الذي أنجب الإنسان ابنا وأصبح من المستحيل عليه أن ينفصل عنه أو يتخلى عن أبنائه فيه .

مديح لنفسه وعيب في الآخرينثانيا أنني أقدمت على العمل الأدبي وآمالي فيه ليست كبيرة كآمال عادل كامل ، لذلك لم تكن الخيبة حادة بالنسبة لي ... كانت علاقتي بالفن علاقة حياة وحب أشبه بالتصوف بحيث انك تحبها وترضي عنها سواء أكانت مجزية أم دونما جزاء على الإطلاق .

وإذا أردت أن تضيف لهذين السببين أنى كنت تلميذا مجتهد ، وانك تستطيع أن تنسبني للعمال الذين نبوا الأهرام وليس المهندسين الذين اجتنوا الثمار .

أحيانا يقولون أنى " مهندس الرواية المصرية " ،

وحبي للهندسة والعلوم الرياضية اكسبني ذهننا مرتبا ومنطقيا وساعدني على تنظيم حياتي وهذا التنظيم كان ضرورة لأني كنت موظف ملتزم بمواعيدي ، وأريد أن أتفرغ لفني الذي أحبه فحددت له وقتا ثابت لا أتنازل عنه ، ثم أنى أحب الناس ومرتبط بأصدقائي فخصصت لهم وقتا محددا .
و إذا لم أكن منظما بهذه الصورة لما أنجزت أي شي في حياتي للأسف الأدب عندنا لا يعتبر مهنة ، ولذلك لا يعيش الكاتب ملكا " كوليام جولدنج " بعد حصوله على نوبل وطبع ٣ ملايين نسخة من روايته "لورد الذباب" و "ملك الذباب.
عند تخرجي من الجامعة لابد من وظيفة تؤمن لي حياتي الشيء الوحيد الذي كنت أتمناه هو : لو كان في إمكاني أن أتفرغ للأدب منذ مطلع شبابي . لم يكن هناك خيار لابد من الوظيفة وكان الخيار فيها فقط بين وظيفتين : أما العمل بالتدريس أو العمل ككاتب بإدارة الجامعة ووجدت أن العمل في الوظيفة الكتابية بالجامعة هو الذي سيعطى لي فرصة لممارسة هوايتي الأساسية وهى كتابة القصة والرواية.
و بدأت انظم حياتي على هذا الأساس رغم أن الرواية لم تكن فنا معروفا ولها من يحترفها في مصر وكانت تأتى على هامش اهتمامات الكتاب و المفكرين ، فمثلا كتب العقاد"سارة" وكتب طه حسين"الأيام" ولم يظهر الكاتب الفنان المحترف حتى هذا الوقت ١١

نوفمبر١٩٣٤

لا اذكر الكثير عن يوم الوظيفة سوى أنني نجيب أفندي محفوظ عبد العزيز إبراهيم احمد الباشا اشتغلت في إدارة الجامعة بعد أن حصلت على الليسانس وبقيت بها حتى سنة ١٩٣٨ وكانت هذه الفترة أخصب فترات حياتي فالعمل قليل والمكتبة أمامي ألتهم مجلداتها كل يوم وفى وقت محدد من الصباح إلى الظهر فقط، ولذلك كان محصول هذه الفترة غزيرا بالقياس إلى السنوات التالية، كتبت في هذه الفترة ١٠٠ قصة قصيرة و٣ روايات طويلة هي: عبث الأقدار، رادوبيس ، كفاح طيبة .

الوظيفة أمدتني بمادة خصبة من الشخصيات الإدارية التي عاشرتها ، وأيضا فقيود الوظيفة كانت تستفزني ، لكي أجد نفسي ، وأحقق ذاتي في الكتابة جربت أن اكتب الرواية الطويلة قد يكون لذلك أكثر من سبب فمن الطبيعي أن يبدأ الكاتب تجاربه بإشكال يمكن إنجازها في وقت قصير ، وبمحاولات لا تستعص على النشر ، ولو في المجلات والصحف ، وقد يكون السبب أن الإنسان لا يعرف نفسه إلا بعد تجارب متعددة ، هذا إلى مزايا الرواية الفنية، فالحق أنها من حيث الإمكانية تتضمن إمكانيات الأقصوصة والمقالة والمسرحية والشعر،أي أنها تتسع لكل تعبير أدبي .

في الراوية تجد اللحظة أو الموقف الواحد اللذين تمتاز يهما الأقصوصة ، وفيها تجد التحليل والنقد كما في المقالة ، وتجد الحوار والموقف الدراماتيكي كما في المسرحية ، وفيها متسع للتعبير الشعري والخيال الشعري أن وجد الاستعداد لهما ، كما في الشعر ٠ بل أن في الرواية إمكانيات الوسائل التعبيرية الأحدث منها كالإذاعة والسينما ، وبينما تجد في كل شكل في مجالا محددا للتعبير لا يستطيع الفنان أن يتجاوزه، فان الرواية لها حدود تجدها فهو شكل فني لا نظير له .

وعندما تشرع في كتابة أقصوصة تصطدم بقيود يفرضها مجمل العمل الأدبي الذي بين يديك فيحدد ذلك نمط السير وطريقته، قالب لا يجوز أن يخرج عنه ، وعندما تشرع في كتابة مسرحية تشعر بقيود اشد يحددها المسرع نفسه والجمهور أما عندما تشرع في كتابة رواية فانك لا تشعر مقدما بقيود يفرضها زمان أو مكان فالمكان قد ينحصر في متر مربع ، وقد يشمل العالم والكون ، أما بالنسبة إلى الزمان فباستطاعتك أن تملكه بدأ وحتى الأبدية . ولكن الحرية لا تعني الفوضى أو السهولة ، بل على العكس فأنني اعتقد انك بقدر ما تحظى من حرية بقدر ما تعانى من مسئولية ٠ فالرواية باب مفتوح كله أغراء ، ولكنة يقود إلي الهلاك إذا لم تعتصم بمسئوليتك الذاتية .

الرواية شكل عجيب من حيث انه يحوي جميع الأشكال الأدبية ، بل الفنية ، مثال ذلك أن المسرحية إذا حوت لمحة روائية عد ذلك عيبا ، ولكن الرواية قد تحوي المسرحية والشعر والموسيقي والفن التشكيلي.

ومن هنا يمكنني القول أن الرواية معي أفضل أداة للتعبير في أي عصر يسمح للأدب بحرية التنفس كنت امضي العام كله وأنا اكتب رواية واحدة ثم أخذها تحت إبطي في أخر العام و اركب الترام إلى الفجالة، ادخل " حارة ميخائيل جاد " و أدق باب احد البيوت ، فيخرج إلي سلامة موسي ويأخذ مني الرواية وأسبوع يمر وأروح لسلامة موسي البيت فأفاجأ به يقول لي : مش بطال لكن حاول مرة ثانية وكان الأديب الوحيد الذي قبل أن يقرا رواياتي الأولي وهي مخطوطة بل كان سلامة موسي هو احد العوامل الكبرى التي ساعدتني في حسم اختياري الأدبي .

وقد بدأت اكتب في المجلة الجديدة منذ أنشأها عام ١٩٢٩ ولم أزل طالبا بالبكالوريا ، واذكر أن سلامة موسي قال لي يوما : أن اغلب الذين يكتبون القصة في مصر من المتأثرين بالغرب ، فكيف يمكن كتابة رواية مصرية لحما و دما ؟

و اذكر للتاريخ انه أجاب : ربما كان الأزهريون نعم الأقدر على القيام بهذه المهمة ، ليت أزهريا يكتب رواية مصرية .

قلت له : ولكن للرواية شكل حديث ، وأنا شخصيا أحاول ٠ فسألني : هل تكتب روايات ؟

قلت : نعم تساءل : هل نشرت ؟ وقلت : لا بالطبع ، ولكني اكتب لنفسي ولا ادري ما إذا كان ما أكتبة يستحق النشر أم لا وطلب مني أن يطلع على شيء مما اكتبه وفعلا أطلعته على بعض ما أكتبه فكان يقول لي : أنت تملك موهبة روائية ولكن هذه الكتابات لا تصلح للنشر، وقد كرر على مسامعي هذا الكلام مرارا .

وكان يوما من اسعد أيام حياتي : ذهبت له براويه " عبث الأقدار " وحين قرأها فاجأنى : هذه تصلح للنشر وحجزها لديه .

وكانت فرحة لا تقدر كنت أسميتها حكمة خوفو ، فلم يعجبه وقال لى : هذا عنوان غير روائى ولن يحبه الناس واستقر الرأي على عبث الأقدار .

قال لى فى هدوء : سوف أطبعها وأقدمها هدية من المجلة الجديدة ، فى أجازتها السنوية وكانت لهذه المجلة أجازة شهران : يوليو وأغسطس ، تعطى فيها للمشتركين كتاباً بدلاً من المجلة !!
لحظتها لم أصدق ما أسمع غير أنى كنت أثق فى كلام الرجل مع هذا ظللت لا أصدق نفسى حتى فوجئت به فى أحد الأيام يقول لى بهدوئه المعتاد :
اذهب إلى المطبعة وصحح روايتك .
جريت إلى المطبعة وفرحة الدنيا لا تسعنى .
أذكر الآن أول رواية نشرت لى ، فتتعالى دقات قلبى ، لو أنى أملك قوة البعث ، لبعثت حياً هذا الرجل العظيم الذى نشرها لى وأثر على جيل بأكمله : سلامة موسى.
كم هى جميلة تلك اللحظات التى أتذكر فيها بداية علاقتي به ، حين صدرت المجلة الجديدة ، كنت أول قارئى أشترك فيها ، فأرسل لى سلامة موسى خطاباً يشكرنى ويقول فيه أعتبرك من أصدقاء المجلة .
وأصبحت فعلاً من أصدقائها لا بالقراءة فقط ، ولكن بالكتابة أيضاً ! كنت أرسل إليه مقالات فى الاجتماع وفى الفلسفة ، وغالباً ما كان ينشرها لى عشر سنوات كاملة بين ١٩٢٩ و ١٩٣٩ كان سلامة موسى هو الراعى والمربى الادبى لى.
نشر لى وأنا فى الثانوى ، ثم فى الجامعة ، عشرات المقالات ، وكتابا مترجما .
كنت ما أزال طالبا فى المرحلة الثانوية عندما رحت أترجم كتابا إنجليزيا إلى العربية عنوانه (مصر القديمة) لجيمس بيكي ، كان هدفى هو تقوية نفسى فى اللغة التى انقل عنها ، وقد أرسلت الترجمة والأصل إلى سلامة موسى حتى إذا اعجبته كان هذا اعترافا جميلا منه بأننى قادر على الترجمة ، وقلت أنه ربما ينشر فصولا من الكتاب فى (المجلة الجديدة) ولكن الذى حدث اننى فوجئت بترجمتي مطبوعة في كتاب يوزع على قراء المجلة كهدية للمشتركين فيها مقابل توقفها شهرين في السنة عن الصدور أنه استاذى العظيم ، ومن النادر في الماضي أو في الحاضر إن تجد رجلا مثله يكتشف الموهبة ويواكب نموها بالرعاية الكاملة حتى تصل ومن النادر كذلك إن تجد مثل الأخلاق الرفيعة
التي كان عليها باع كل ما يملك من أجل الرسالة التي نذر نفسه من أجلها .

المصير في الدرج

واجهت المجلة الجديدة بعد ذلك ظروفا مالية صعبة ، فقفلت أبوابها فلم يعد امامى الا دور النشر الأخرى وبعد سنة ١٩٣٩ اغلقت مجلة (الرواية) وكنت انشر فيها معظم اقاصيصى ٠ وحددت أزمة الوارف عدد صفحات الصحف والمجلات فلم تعد تهتم كثيرا بنشر الاقاصيص ، فانصرفت بكل جهودي إلى الرواية ٠ كنت اكتب الرواية وأدور بها على دور النشر من جديد ٠٠ وبالطبع نفس المصير : تقبع مع اختها فى درج مكتبى وابدا فى رواية اخرى ، وما ان انتهى منها حتى احملها بدورها والف بها على دور النشر من جديد ٠٠ وبالطبع نفس المصير تقبع مع اختها فى درج مكتبى حتى تجمع عندي ثلاث روايات بلا نشر راد وبيس ، كفاح طيبة ، القاهرة الجديدة ،،

غريزة ماتت

لقد أثرت حياتي الخاصة بتجاربها المختلفة على الكثير من مؤلفاته الأدبية ، كما ان الوالدة لها فضل فعلا ، أول حكايات سمعتها في حياتي كانت منها . عرفت النساء في الأحياء الشعبية من المعايشة المباشرة ، يكفى جلوس إمام بيتنا في الجمالية ، كن يجئن إلى امى ، أحداهن تبيع الفراخ

، أخرى تكشف البخت ، دلالات ، منهن نساء واظبن على زيارتنافى العباسية ، كنت أصغى إليهن في أحاديثهن مع الوالدة ، وهن يروين لها الاخبار ، وعرفت نماذج عديدة منهن ظهر في رواياتي فما بعد كذلك من الناحية المعرفية لعبت امى دورا كبيرا جدا لأنها ولا ادري الأسباب ـ كانت إلى جانب زيارة الأضرحة والأولياء ، كانت مولعة بزيارة الآثار القديمة التي كانت تهتم بها اهتمام كبيرا رغم أنها كانت سيدة كبيرة وأمية ، من الجيل القديم ، واستطيع إن أؤكد لك أنى زرت معها دارالآثار المصرية " الانتكخانة " عشرات المرات، والهرم وابو الهول ، وكانت تقف أمامها فى انبهار وكأنها فى حالة تعبد ، كذلك زرت معها جميع الآثار (الإسلامية والقبطية) ومنها كنيسة مار جرجس التي مازلت اذكر زياراتي المتكررة لها فقد كانت امى جوالة ، ولست اعرف كيف نمت عندها هذه الغية ،ولقد كانت تعرف شهرة هذه الأماكن فتختارها بالتحديد ، وكنت اصحبها في هذه الجولات منذ سن الرابعة او الخامسة ، كنا نخرج مع الوالدة وأحيانا بمفردنا ، زرنا حجرة المومياءات عدة مرات ، وبالطبع اثر فى هذا كثيرا .

كانت والدته مهتمة كثيرا بالآثار الفرعونية وتاريخ الشعب المصري ، ولذلك كتبت روايات عديدة منها "كفاح طيبة" و "رادوبيس " هوايتها هذه هي السبب الذي شكل بداخلي أشياء كثيرة ، واعتقد ان موضوع " كفاح طيبة " جاء إلى ذهني وانا في زيارة معها إلى حجرة المومياءات ، عندما رأيت الملك "رع" الذي تهشم في الدفاع عن مصر شاهدت في شبابي اكتشاف " مقبرة توت عنخ امون" وهو جعلنى اقرا بنهم فى التراث الفرعوني ، وبالتالي من الطبيعي إن تكون روايتي الأولى " عبث الأقدار " عن التاريخ الفرعونى ، ولكن الذي حبب إلى الكتابة التاريخية هو ما استطعت إن اطلع علية من مؤلفات جورجي زيدان وقعة " ابنة المملوك " لمحمد فريد ابو حديد ثم وجدت نفسي اتجه إلى التاريخ الفرعوني في كتابة الرواية ،ووضعت لنفسي نظاما فى هذا المجال كان من الممكن ان يستغرق عمري كله ، وانأ غارق فى محيط عصر الفراعنة بكل ما يزخر بة من حياة اجتماعية ، وعلوم وفنون وآداب ٠٠ واستهواني هذا الخط الفرعوني : فقرات فيه بتوسع غير عادى ، ساعدني على استخراج عشرات الموضوعات لروايات تسجل رؤيتي وانفعالي بهذا العصر الزاهي ، وقد بدأت فعلا بكتابة ثلاث روايات أخذت مادتها البكر من هذا العصر ٠ وكانت امامى موضوعات لاكثر من خمسين رواية كانت كل هذه الموضوعات من التاريخ الفرعوني ، وبسببها حضرت محاضرات قسم الآثار في الجامعة المصرية بعد الظهر ، ودرست تاريخ مصر الفرعونية باكملة دراسة وافية توشك إن تكون دراسة متخصص ، وعزمت على كتابة هذا التاريخ في روايات مثلما فعل جورجي زيدان أو والترسكوت ٠

لقد كانت الوطنية المصرية متأججة في ذلك الوقت ، وكان هناك مد حقيقي للفرعونية ، وهو مد كانت له مبرراته الموضوعية ، اذكان العصر الفرعوني هو العصر الوحيد المضئىفى مقابل عصر المهانة والانحطاط الذي كنا نعيش فيه وقتها ، مهانة الاستعمار الانجليزي وسيطرة الأتراك معا .

إن نظري دائما على الواقع في كل اعمالى مهما تكن الرواية تتحدث عن التاريخ او تستلهم التراث، فالحاضر هو الذي يركز حتى وانأ اكتب عن الماضي ٠

فى الثلاثينات وجزء من الأربعينات كان الحماس الوطني في أوجه ، وكنت أبحث عن الكتب التي تتناول تاريخ مصر ن ولم أكن وحدي في ذلك ، بل كان أغلب أقراني يفعلون ذلك ٠

قررت أن أورخ لوطني في صيغة روائية حتى أن شيخ مصطفى عبد الرازق قال لي : إنني سأحاكي جورجي زيدان ، أما أحمد أمين فقد سألني على إثر فوزي بجائزة عن " رادو بيس " : لماذا ذكرت العجلات الحربية التي لم يعرفها المصريون إلا بعد أن دخل الهكسوس مصر ؟

فأجبته : إنني تعمدت ذلك ٠

والحقيقة أن مصر الفرعونية كانت ينبوع إلهام في مرحلة مظلمة تكاد تكون نقيض ما يمثله تاريخنا المصري القديم من عزة وفخار ٠ إنني أنتمي إلى جيل أو قطاع من جيل يكره الإنجليز والأتراك ،

ودرسنا جذورنا الحضارية دراسة جيدة ٠ وبالنسبة لي بلغت هذه الدراسة مشارف الاحتراف ٠ كنت أذهب إلى محاضرات قسم الآثار وأتابع كل جديد حول مصر الفرعونية متابعة دقيقة ٠ وقد أعددت في خيالي وربما نقلت إلى الورق أفكاراً روائية عن ذلك التاريخ ، ماتت فجأة بالسكتة القلبية ، كنت قد أعددت مسلسلاً كاملاً ٠

أعددت بالفعل أربعين موضوعاً لروايات تاريخية رجوت أن يمتد بي العمر حتى أتمها ، وكتبت ثلاثة منها بالفعل هي " عبث الأقدار " و " رادو بيس " و " كفاح طيبة " وبقى ٣٧ موضوعاً جاهزة للكتابة "

من الممكن جداً معالجة الحاضر من خلال الماضي "

أنت تعرف أن التاريخ يستخدم في أكثر من طريق ، هناك من تراه مغرما بالتاريخ في حد ذاته ، إنه ينقلك إلى فترة تاريخية وبتركك هناك ، هذا ليس أنا ، وهناك من يغرم بالتاريخ ولكن الحاضر هو نقطة انطلاقه ، ولذلك ينعكس التاريخ على الحاضر ، إخناتون ، ألهمني الكتابة عنه وعن الحاضر في وقت واحد ، ومن هذه الزاوية هناك علاقة بين أعمالي الأولى وهذا العمل ، عبث الأقدار ، حكاية مصرية قديمة استكملتها ، وفيها صورة الحاكم وابن الشعب ، رادوبيس ، ثورة على ملك ، فهي واضحة الدلالة ، كل المكتوب عن هذا الملك في التاريخ أنه تولى الملك فترة قصيرة وأنه قتل في ظروف غامضة ٠٠ هذا هيكل عظمي تحول إلى بشر وأحداث ومواقف في الرواية التي كتبتها " بل الحق أن " رادوبيس " و " كفاح طيبة " قصد بهما الحاضر أ:ثر من الماضي " ٠

كنت ككاتب تحت يدي مارة أطول من عمري ٠٠ كانت لدي موضوعات عن الرعامة والتمامسة وحتشبسوت وكنت أدخر موضوعاً أعتبره هاماً جداً " عن إخناتون ٠

والغريب أنه بعد كتابتي رواية " كفاح طيبة " أصبحت بحالة نفسية لا أدري لها سبباً ولا تعليلاً حتى الآن ٠٠ وجدت نفسي غير راغب على الإطلاق في كتابة أي عمل روائي جديد عن الفراعنة ٠٠ اسمها ماشئت ٠٠ هل هي نوع من التشبع العاطفي والذهني بتاريخ هذا العصر بحيث لم أعد قادراً على المضي فيه إلى أبعد مما مضيت ٠٠٠ أو سمها لعنة الفراعنة حلت بي ككاتب مصري تجرأ على تراث هؤلاء الأجداد العظام وحاول أن يعمل فيه قلمه بالتحليل والتفسير والتخيل ٠٠ المهم أنني توقفت نهائياً وإلى الأبد رغم وجود المادة الخام بين يدي لعشرات الروايات الطويلة عن تاريخ هذا العصر ، وكأنها غريزة ماتت في جسدي الغدة الخاصة بها ٠٠ وانتقلت بعدها فجأة إلى التفكير في القاهرة الجديدة ٠٠ قاهرة الأربعينات "

وإذا دفعني إلى تنحية الموضوعات التاريخية ، فإنني أقول :

إنه يبدو أنني وجدت أن التاريخ قد أصبح عاجزاً على أن يمكنني من أن أقول ما أقوله ٠٠ كنت قد قلت عبره جوهر الموضوعات التي أردت أن أقولها ٠٠ خلع الملك والحلم بثورة شعبية وتحقيق الإستقلال ، ويبدو أنني بعد ذلك كنت سأدخل في عصر الإمبراطوريات بينما كنا نعيش في الواقع في عصر المهانة ٠٠ ولو فعلت ذلك لكان علي أن أكتب روايات تاريخية من النوع الأول ـ الإلتزام فيها بالتاريخ ـ لا من النوع الثاني القريب إلى نفسي ٠٠٠ كانت الوطنية هي البؤرة الأساسية ، ثم ظهرت برفقتها نزعة الإصلاح الإجتماعي ، وخاصة في رواية " كفاح طيبة " حين قلت إن " أحمس " قد وزع أرضاً على الفلاحين ٠٠٠ فحققت بذلك نوعاً من المزج بين مدينتي الفضل والتاريخ ، لكن المدينة الفاضلة التي كنت أحلم بها كانت تنهض على فكرة كون الأرض ملكية عامة يزرعها الفلاحون ويعطون الدولة قدراً من غلتها ٠

وقد حاولت أن أمزج بين مدينتي الفضل والتاريخ عندما كتبت هذا الموقف غير الثابت تاريخياً ، وبعد " كفاح طيبة " أخذت نزعة الإصلاح الاجتماعي تتغلب ٠

الإفلاس

لم يعد التاريخ القديم قادراً على إلهامي ، ف

كتبت " القاهرة الجديدة " عن العصر الذي أعيش فيه كتبت عشرات القصص القصيرة ربما كانت أقرب إلى الروايات الملخصة عن مصادر فرعونية ستجد بعضها في " همس الجنون " التي شاء الناشر أن يكتب تاريخها عام ١٩٣٨ ــ وهو تاريخ يصلح لزمن كتابتها ــ ولكنها في الواقع نشرت في كتاب للمرة الأولى بعد " زقاق المدق " ٠٠٠ وانقطعت صلتي فعلاً بالتاريخ القديم حتى ظننت يوماً أنني استنفدت جزءاً من عمري في دراسة لم أستفد منها ٠٠٠ طبعاً هذا ليس صحيحاً ، فقد دخل التاريخ الفرعوني في تكويني ولو بصورة غير واعية ، قد ألجأ إليه لتفسير ما يغمض علي في حياتنا المعاصرة ثم إني اعتقدت دائما أن الكتابة التاريخية في الأدب نوع من الإفلاس ٠٠٠ التاريخ " بنك " أتجه إليه بحثا عن موضوع حين أفلس أنا من موضوعات الواقع ٠٠٠وأنا مشغول من زمان بعيد بما عشته في الواقع وبما أعيشه ٠٠٠فالأدب ينبع من الداخل أساسا٠٠من الذاكرة ٠

الشـــــك

في سنة ١٩٣٩ نشر لي سلامة موسى أول رواية وهي " عبث الأقدار " أما الرواية السابقة فقد أعدمتها ٠٠٠ من الطريف أن هذه الرواية الأولى ظهرت يوم هجوم هتلر على بولندا ، وكان هذا بداية الحرب العالمية الثانية ٠٠٠ فهل هذا من عبث الأقدار ؟ ٠

جاء عبد الحميد جودة السحار وأنشأ دار النشر للجامعيين فانفكت بها أزمة النشر بالنسبة إلي وإلى عدد كبير من أدباء جيلي " ربطتني به علاقات وثيقة ٠٠٠ كان يأتي إلينا في مقهى عرابي مع بعض الأصدقاء ، وكنا جميعاً مؤلفين لا يجدون وسيلة لنشر أعمالهم ، وأنا على سبيل المثال كنت أكتب الرواية وأقوم بتبييضها ثم أودعها درج مكتبي ، لكن عبد الحميد جودة السحار فكر أن ينشئ ما سماه لجنة النشر للجامعيين ، ولولا وجود شقيقه الأكبر سعيد معه في هذا المشروع ومساندته له لما وجد المشروع ٠٠٠ الذي أفرج أزمة النشر عند جيل كامل من الأدباء هو الجيل الذي أنتسب إليه ومنه عادل كامل وعلى أحمد باكثير وأمين يوسف غراب وغيرهم ، رغم أن مثل هذا المشروع لم يكن مربحا ، لدرجة أننا اتفقنا في ذلك الوقت على ألا يتقاضى أي منا أي أجر على الكتاب الأول ، فإذا نجح الكتاب وتم نشر كتاب ثان كان للمؤلف أجر ، وأذكر أن أول مانشرت عندهم كانت رواية " رادوبيس " ثم " كفاح طيبة " ثم " خان الخليلي " إلخ ، وكانت بعض دور النشر الأخرى قد عرضت علي بعد نوبل أن أنشر عندهم بشروط أفضل لكني لم أستطع أن أنسي فضل آل السحار علي في بداية حياتي ٠

وبعد أزمة النشر جاءت أزمة الإهمال ، ولم يكن أحد يعبرنا ٠

أقنعت نفسي بأن الفن حياة تعاش لذاتها لا مهنة يجب أن يجني الإنسان ثمرتها ، لأريح نفسي من تعب انتظار التقييم.

كنا خمسة من جيل واحد بدأنا بنشر أعمالنا معا : السحار ، وعادل كامل ، وأحمد زكي مخلوف الذي نشر رواية واحد هي " نفوس مضطربة " ٠

جزء متشائم وعبثي

وحينما أعود بذاكرتي إلى هذه السنوات أجد أن باكثير والسحار لم يداخلهما أي شك في قيمة انتاجهما ووجوب استمرارهما فيه ، فقد كانا ممتلئين بالإيمان والتفائل ، أما الثلاثة الآخرون ـ عادل كامل ، وزكي مخلوف ، وأنا فكنا نعاني أزمة نفسية غريبة جدا طابعها التشاؤم الشديد والإحساس بعدم قيمة أي شئ في الدنيا والعبث ، وبقية ما تقرأه في الأدب الأوروبي الحديث ... كنا كأبطال " كامي " قبل أن يكتبهم ، ولعل منشأ هذه الحالة راجع إلى تبلور كل هذه الصفات في حياتنا السياسية وقتذاك ، كان هناك إحباط غالب على سلوكنا وحياتنا لأن الذي كسب معاهدة سنة ١٩٣٦ هو الملك وليس الوفد ... فهذه الفترة يمكن القول أنها فترة ما أعقب المعاهدة من هزيمة نفسية ... نعايش الواقع ونحن نعلم أننا مهزومون فيه ، ولكننا لا نعرف كيف نتغلب على ما أصابنا من الهزيمة والإحباط ، أو بمعنى آخر لا نعلم كيف نتغلب على الملك أو على أحزاب الأقلية ، فكنا ننتهي إلى أن كل جهد يبذل في الأدب ضائع تماما ولا قيمة له ولن يفيدنا أو يفيد أحد من أبناء بلادنا ، وأن كل جهد يجب أن يوجه إلى العمل الإيجابي المثمر بدلا من أن يضيع في محاولة للتعبير عن عواطف وأفكار لا فائدة منها ، وزاد من إحساسنا بهذه الأزمة أننا تقدمنا ـ أنا وعادل كامل ـ بروايتين إلى مسابقة المجمع اللغوي ، فرفضتا لأسباب أخلاقية ، واستدعانا أمين سر المجمع ليسدي إلينا النصح وكأننا من الضالين وهو يهدينا سواء السبيل .

كان السؤال الذي نسأله لأنفسنا دائما هو : لماذا نكتب ؟

وكنا مجمعين على أن الكتابة عبث والنشر عبث ، والرغبة في الكتابة يجب أن تعالج على أنها مرض .. غاية ما في الأمر أن صديقي اعتبرا نفسيهما شفيا من هذا المرض ، وما زالا إلى اليوم يدعون لي بالشفاء .

وكانت مناقشاتنا متسمة بالتشاؤم واليأس من كل شئ ، وكنا نحب أن نجلس في المساء عند قطعة معشبة مستديرة عند كوبري الجلاء ، فأسميناها الدائرة المشئومة ... هذا هو تفسير الأزمة التى دفعت عادل كامل وأحمد زكي مخلوف إلى الإقلاع عن الكتابة .

أما أنا لست عبثيا .. هل تعرف ماذا يعني العبث ؟ إنه يعني بإختصار أن الحياة لا معنى لها ، والحياة بالنسبة لي لها معنى وهدف .. إن تجربتي الأدبية كلها مقاومة للعبث ولكن الإنسان في هذه الأحوال يطمئن ساعة ، ويقلق ساعة أخرى ، ويظن أنه وصل ، ثم يعود ثانية ليسأل ، ولكنها شئ مفتوح وفوق الوصول السهل .

طريق الخلاص لا يأتي إلا من داخلنا ، ومجرد إحساسنا بغموض المعنى وسحره هو في حد ذاته دليل على قربنا من جوهر الدين ، ولا تنس أن سعيد مهران بطل " اللص والكلاب " لم يجد الخلاص عند الشيخ جنيدي ، يمكن أن يحدث هذا إذا فكر الإنسان في العقيدة بعقله ، فقد يشعر الإنسان أن الإحاطة الكاملة بها أكبر منه ، وقد يساوره الشك ، وتكون تلك تجربة حياتية وجودية ليست بسيطة ... مررت بلحظات شك حين أردت في مقتبل حياتي أن أخضع عقيدتي للعقل والمنطق والعلم ، كانت تلك فترة طويلة وأليمة .

حاولت أن أخضع يقيني الديني لعقلي وفشلت ، لكنني خرجت منها بعد أن قرأت القرآن جيدا ، فقد أدركت من قراءاتي له أن القلب هو الوسيلة الأكثر نجاحا في كل ما يمس الغيبيات والعقائد .. الدين ضروري ... هذه الفترة كانت أليمة وقاسية على النفس لأنها استمرت فترة طويلة نسبيا حوالي أربع سنوات ، لكني خرجت منها كما خرج الإمام الغزالي المفكر الإسلامي المعروف الذي سمى عدو الفلسفة وإن كان هو في رأيي خير من شرحها ، ومؤلفاته تقترب من الـ ٢٠٠ كتاب طاف فيها بجميع مجالات المعرفة ، وانتهى الأمر إلى الشك الفلسفي الذي أسلمه إلى التصوف ، فوجد فيه اليقين ، لكنه يقول : إن الوصول إلى المعرفة الكاملة لا يكون بالتعليم وإنما بما أسماه الذوق ، أي أن يذوق المرء الحقيقة لكي يعرفها ، فهناك فرق بين أن تعرف ماهي الصحة وشروطها وبين أن تكون صحيحا ، والمعرفة الحقه عند الصوفية هي أن تعيش الحقيقة لا أن تعقلها ... خرجت من لحظات الشك كما

خرج الغزالي ، أي خرجت بقلبي لا بعقلي ، خرجت منها باليقين لكنه يقين الإيمان ، أما العقل فقد سحب اليقين وراءه ... في تلك الفترة لم أكن قد بدأت الكتابة بعد ، لكنك يمكن أن تجد لها أصداء فيما بعد في روايات مثل " الطريق " أو " الشحات " حيث محاولة معرفةالمطلق معرفة عقلية ، وهي محاولة تفشل في الروايتين .
" في الطريق " يسعى البطل لمقابلة والده يتعرف عليه أو ليبادله السلام لكنه لا يصل إليه أبدا رغم شعوره الأكيد بوجوده . أما في " الشحات " فهناك خطوة متقدمة على ذلك هي أن البطل يتنازل عن المطلق حين يشعر به بقلبه ، أي يتنازل عن المعرفة العقلية في مقابل المعرفة القلبية بعد أن يكتشف البطل في نهاية الرواية أن هناك معرفة أخرى هي المعرفة القلبية .
الحياة تجربة واقعة أحب أن أتعامل معها على فرض أني أستغنيت عن الأسئلة إياها : من أين ؟ وإلى أين ؟ وما السبب ؟ لأن هذه أسئلة ليس لها نتيجة ... المهم أن الشئ الملموس أننا وجدنا في الحياة وإننا نمكث فيها فترة محددة .. إذا فإن كل من الأنانية والإيثار يطالبننا بأن نجعل هذه الفترة أحسن ما يمكن ... فمثلا لو وجد الإنسان نفسه في واحة منعزلة لمدة يوم فهل يمضى هذا اليوم متفجرا بائسا أم يحاول أن يجعله يوم سعيدا ؟
طبعا الناس تختلف في مفهوم السعادة ، لا كن التجربة الإنسانية على مر الزمان بينت بوضوح أنه لا بد من مراعاة عدة إعتبارات مثل تعمير المكان مثلا ، والتعاون مع الباقين ، وأن سعادة الجزء لا تكتمل إذا كان الجزء الآخر تعسا .. إذا نجد أن المبادئ التي نادت بها الأديان السماوية والمذاهب الإجتماعية والثقافية هي حقيقة و لا يمكن تجاهلها .

لم يحضر أحد

" أولاد حارتنا " في الأصل رواية دينية إيمانية تنتصر للدين وتؤكد ضرورته في الحياة إلى جانب العلم لأن سيطرة أحدهم على الحياة خطر كبير .
وإذا كان العلم يحقق للإنسان التحرر والتقدم ، فإنني أرى أن الدين الحق والتمسك بصحيح مبادئه يحقق للإنسان التحرر والتقدم فإنني أرى أن الدين حق والتمسك بصحيح مبادئه أهداف نبيلة ، ويوفر له طمأنينة نفسية لا حدود لها ، كما لا أجد تناقض بين الدين والعلم فهما معا يحققان للإنسانية حضارتها وتقدمها . فالعلم والدين صنوان لا يختلفان ولا يفترقان عن بعضهما ، بل هما يكملان بعضهما ، فالعلم قائم على الدين والدين قائم على العلم ، وإلا فكيف يكون حال الدين عند جاهل ؟
أحب أن أقول حتى رواية " أولاد حارتنا " التي أساء البعض فهمها لم تخرج عن هذه الرؤية ، ولقد كان المغزى الكبير الذي توجت به أحداثها أن الناس حين تخلوا عن الدين فمثلا في " الجبلاوي وتصوروا أنه بالعلم وحده فمثلا في " عرفته " أن يديروا حياتهم على أرضهم " التي هي حارتنا أكتشفوا أن العلم بغير الدين قد تحول إلى أداة شر ، وأنه قد أسلمه إلى إستبداد الحاكم وسلبهم حريتهم ، فعادوا من جديد يبحثون عن " الجبلاوي "
إن شرط الحضارة المعاصرة إنه لا بد أن يكون لها عمودين تقوم عليهما هما : العلم والإيمان إن هذه الرواية أتهمت ـ ظلما ـ بأنها تقتل القيم الروحية في وقت هي فيه رواية تبحث عن القيم الروحية ، ولا أريد أن أذكر بحيثيات جائزة نوبل كي لا أتهم أنني أردد وجهة نظر الغرب ، ولاكن لا بأس من أن أذكر أن الفقرة الأخيرة في هذه الحيثيات تقول أن هذه الرواية تناول صاحبها " بحث الإنسان الدءوب عن القيم الروحية " .
وهذا تقدير جاء من الأغراب أليس هذا شيئا محزنا ؟ ... إن هذه الرواية ــ أولاد حارتنا ــ ليست مصادرة إلا في مصر ، وهي ــ في الوقت نفسه ــ متداولة شرقا وغربا ، في البلاد الإسلامية في

المشرق والمغرب ، وفي البلاد الغربية في أقصي الغرب ٠٠٠ وفي هذه المساحات الشاسعة على الكرة الأرضية ، في الجهات الأربع لم يعترض عليها مسلم واحد سواء من المسلمين العاديين أم المتخصصين ٠

بعد ذلك أضيف : إن موقف أساتذة الدين وعلمائه عندنا يصعب فهمه ، وهذا يعود إلى موقف فني أكثر منه إلى موقف ديني ٠ إن المشكلة الأساسية هو ما غاب تماما عند قراءة الرواية ٠ إن الرواية يجب أن تقرأ كرواية وليست كتاريخ قط ٠

المطلوب أن نقرأ " الفن " العمل الروائي ، ليس الدين أو التاريخ ، وسوف أضرب أمثلة موضحة فيها وجهة نظري ، يغنيني عن العودة إلى هذا الموضوع من أن الآخر ٠

إن لدينا في التراث العربي كتاب " كليلة ودمنة " ، وهو كتاب عن عالم الحيوان ، هل أحد يجهله ؟ بالطبع لا ، طيب ، فلنتوقف عنده برهة ، إن رموزه ترمز إلى ملوك وأمراء ووزراء وحكماء وأخيار وأشرار ٠٠٠ الخ هذا الكتاب يقتضى أن نقرأه ككتاب حيوانات ٠٠٠ لنستنتج ــ بعد ذلك ــ مغزى الرمز وفحواه ، لغة واحدة فللفن لغة واحدة لا يخطئها الوجدان قط ٠

معنى هذا أنه لا يجوز ــ على سبيل المثال ــ أن نعترض على أن الثعلب الذي يرمز له ــ في هذا النص التراثي الكبير إلى الوزير ــ أي وزير ــ هذا الوزير الذي ينبش في " الزبالة " ، فتعترض على مؤلف الكتاب ، وتقول : كيف ينبش في الزبالة هذا الوزير ؟ ٠

إن الذي ينبش في الزبالة ــ ياعزيزي ــ هو الثعلب وليس الوزير ٠٠ أليس كذلك ؟

غير أن مغزى الحكاية التى يقوم بها الثعلب هي التي ترمز إلى معنى الوزير ٠

فالمسألة إذن : جبل أو رفاعة أو قاسم ــ أو أي واحد من " أولاد حارتنا " في الحارة يعتبر من الأبطال المصلحين ليس من الأشرار قط ٠

هذه هي المسألة ٠ وبعد ذلك نستطيع أن نطرح المعنى الرمزي ٠ لكن أن نتجاوز " جبل " فنقول أو نزعم أنه سيدنا موسى ، فإن هذه يعتبر في الحقيقة تجاوزاً في القراءة ٠

إن هذه بوضوح ــ هو جبل أبن الحارة ٠

إذن : إنهم لا يعرفون كيف تقرأ الرواية ٠

ولكن أحب أن أوضح أن حكومة عبد الناصر لم تكن مسئولة عن منع طبع " أولاد حارتنا " فقد حدث سوء فهم لها من بعض رجال الدين واعتبروها ماسة بكرامة الأنبياء وصنعوا ضجة ضخمة وطالبوا بمحاكمتي ، ولولا إصرار هيكل لما استمر نشرها مسلسلة في " الأهرام " فلما انتهت الاهرام من نشرها اتصل بي حسن صبري الخولي مندوب الزعيم عبد الناصر ، وقال لي : من الصعب السماح بطبع هذه الرواية لأنها ستصنع ضجة كبيرة نحن في غنى عنها ، فإذا شئت اطبعها في الخارج ، ووعدني بأن يمنع أي كتابة عنها في الصحف المصرية سواء معها أو ضدها

ثم قال لي : هل عندك استعداد أن يناقشوك في الرواية في مكتبي ؟ فأبديت استعدادي لكن ٠٠٠ لم يحضر أحد ٠

ولو كنت جلست مع بعض رجال الدين وشرحت لهم وجهة نظري لأقنعتهم بها ٠ أرجوا أن يعيد الأساتذة الافاضل من علماء الدين قراءة الرواية ٠٠٠ بعد التخلص من غشاوة الأتهام ، والله يحكم بيني وبينهم في الدنيا والآخرة ٠

وبعد أن نشرت كاملة في الاهرام حولتها إذاعة صوت العرب إلى مسلسل أذيع بالكامل دون التنويه عنها في برامج الإذاعة أو الصحف ٠٠٠ و (٠٠٠) الذي تحمس لتقديمها إنسان كان يعمل في صوت العرب وفي مكتب شعراوي جمعة " وزير الداخلية " ٠

إنني حريص دائما على أن تقع كتاباتي في الموقع الصحيح لدى الناس حتى وإن اختلف بعضهم معي في الرأي ، ولذلك لما تبينت أن الخلط بين الرواية والكتاب قد وقع فعلا عند بعض الناس وأنه أحدث

ما أحدث من سوء فهم ، اشترطت ألا يعاد نشرها إلا بعد أن يوافق الأزهر على هذا النشر ، ولا يزال هذا موقفي إلى الآن ، وكل ما نشر منها لم يكن بإذن مني ٠

القصص القرآني

أعتبر الدين شيئا هاما في أعمالي ، اعتزمت أن أبرز من خلاله حقيقة المواطن المصري بعاداته وتقاليده وشخصيته ، لذلك لم يكن ممكنا أن يختفي عنصر الدين من أعمالي ٠ كان القرآن الكريم من أوائل قراءاتي ٠
إن أول ما كون مفهومي للقصة هو قصص القرآن الكريم ، فقد كنت أطالع القرآن أقرأ قصصه بعناية لأنها كانت تستهويني كفن روائي راق ، كتبت كأجمل وأفضل ما تكون الكتابة القصصية ، ومازالت حتى الآن أكثر القصص الإنسانية تأثيرا في وجداننا هي القصص القرآنية ، فمن منا يستطيع أن يأتي بقصته مثل قصة مريم عليها السلام ، أو سيدنا يوسف ؟
كما أن القصص القرآنية كتبت على أحدث ما يكون الفن الروائي ، فالقصة في القرآن لا تبدأ مثل الرواية القديمة في القرن التاسع عشر ببداية ثم تتطور إلى أن تتعقد خيوطها وتتأزم لكي تصل في النهاية إلى نقطة الحل ، تسلسل الرواية لا يسير وفق التسلسل الرتيب للاحداث وإنما وفق المقتضيات الدرامية التي تحتم أن يرد جزء معين من القصة في هذا الموضع وجزء آخر في موضع آخر ، وقد كان هذا يمثل انقلابا في الفن الروائي الحديث ، وجدناه عند " جيمس جويس " مثلا في بريطانيا ، وعند مارسيل بروست في فرنسا ٠
لكن منذ قراءاتي الأولى وجدت أن هذا هو الأسلوب المتبع في سرد القصص فقصة مريم لا تبدأ في سورة مريم من بدايتها ، وتتسلسل بالترتيب المنطقي لأحداثها إلى أن تنتهي ، لتبدأ بعدها قصة جديدة أو سورة جديدة ، وإنما نجد قصة مريم موزعة على سور مثل البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة ومريم والمؤمنون والاحزاب والتحريم ، حيث يرد في كل منها جزء من قصتها أو قصة المسيح عليه السلام في موضع يتفق مع هذه السورة بالتحديد ٠
لذلك كان القصص القرآني أول ما شكل عندي مفهوم الفن الروائي من حيث المضمون السامي لهذه القصص وأيضا من حيث الأسلوب الفني في روايتها ، وهو تأثير ممتد في كتاباتي بشكل عام لكن لعله أوضح ما يكون في أحاديث الصباح والمساء ٠

السكرتير البرلماني

انطلقت إلى وزارة الاوقاف اشتغلت فيها سكرتيرا برلمانيا للوزير من سنة ٣٩ حتى ١٩٥٥ . هذه الوظيفة أصبحت تراثا قديما هي الأخرى ،ففي الماضي كان للوزير عدد من السكرتارية ، فهناك السكرتير الخاص وهو للشئون الخاصة مثل فتح الرسائل ، وفي الغالب يكون من أقربائه لانها وظيفة يكون القريب المتعلم أصلح لها ٠٠٠ فهي شئون خاصة كما قلت ٠٠٠ وهناك السكرتيرالصحفي وهو المتحدث باسم الوزارة بين الصحفيين ، وكان يختار عادة من العاملين في مجال الصحافة أما السكرتير البرلماني فهو همزة الوصل بين الوزارة وبين مجلس النواب والشيوخ ، فإن جاء سؤال أو استجواب ، أو طرحت ميزانية وزارة الأوقاف للمناقشة كنت كسكرتير برلماني أجمع رغبات مجلس النواب والشيوخ وأقوم بتوزيعها على الأقسام المختلفة بالوزارة لتوضع موضع التنفيذ ، ثم أفيد بالنتيجة قبل مناقشة الميزانية التالية .
وكان المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الأوقاف ، يعفيني من العمل بعد الظهر ، ويقول لي : علشان تلاقي وقت لقلمك يا نجيب ٠

كان أستاذي في الجامعة ، وقد ربانا تربية فكرية علمية راقية ، وله منهج وطريقة في التفكير تقوم على التفسير ومواكبة نشأة الظواهر وتتبعها تاريخيا ، وهو تلميذ الشيخ محمد عبده وخليفته ، وقد اختارني من الجامعة ونقلني للعمل معه في وزارة الأوقاف وهو وزير لها ، وهي فترة من أجمل وأخصب فترات حياتي بإطلاق ، وظللت معه زمنا ليس بالقليل . ، وهو يظن أنني قبطي مسيحي نظرا إلى الالتباس الذي أثاره إسمي لديه . وحدث ذات مرة وكان يقوم بشرح مسألة أو قضية إسلامية لنا ، أن قال فجأة : طبعا هذه الأمور معروفة لكم لأنكم مسلمون ... بيد أنني أود أن أشرحها وأوضح جوانبها حتى يفهمها زميلكم نجيب محفوظ المسيحي ، فانفجرت ضاحكا وأخبرته أنني مسلم .

لقد كان يرحمه الله ـ شخصية نادرة قل أن يجود بها الزمان ، وكان بيته مفتوحا لنا جميعا دون استثناء ، ومكتبته ملكنا ، ولم يبخل علينا بشيء .

من غير شك إن الشيخ مصطفى عبد الرازق كان أهم الذين تركوا بصمة واضحة في عقلي وتفكيري فقد كان خير مرب للعقل ، فضلا عن كونه رمزا للنبل الإنساني ، وكان نموذجا فريدا للانفتاح على الثقافات العالمية والمزج الموضوعي بين التراث الإسلامي والفكر الغربي .

كان (...) يقف وراء أفكاري ، لأنه كان يجمع بين الإيمان العميق والاحترام الكامل لإيجابيات التراث ، وبين الفهم الواسع للحضارة الحديثة ، كان يرى جانبي الصورة متأثرا بأستاذه الشيخ محمد عبده .

وجاء أخوه الشيخ على عبد الرازق ففعل معي نفس الشيء (يعفيني من العمل بعد الظهر) كان قد تغير عهد وكنت في مكتب الوزير ، فجاوا وقالوا لي : الوزير الجديد أتى بالطقم الخاص به فاختر لك مكانا غيره مكتب الوزير ، ولما كنت أعتبر الوظيفة قيدا مفروضا علي ، وأعتبر أ، الركنة الحقيقية في وزارة الاوقاف هي المكتبة ، فقد اخترت المكتبة ولم يكونوا مصدقين ، فنقلوني إليها ، وكانت شهور من أسعد أيام حياتي ، وكنت مع المرحوم الأستاذ " السندوبي " وقاعد وسط كتب في الحي الذي أحبه وهو حي الغورية ، وانتزعوني منه فخرجت مثلما خرج أدم من الجنة ، ولولا هذه الفترة ما كنت قد قرأت مثلا " بروست " وأثر في ضمن من تأثرت بهم في مكوناتي الثقافية الواقعية النفسية عند " جويس " و " بروست " هما عمار الأدب الحديث في القصة كلها .

وفي آخر هذه الفترة (٩٣٩ ـ ١٩٥٥) كنت قد عينت مديرا " لمؤسسة القرض الحسن " وكانت مهمة جيدة لأنها تتعامل مع الجمهور ، ووككاتب استفدت كثيرا من معرفة الكثير من الشخصيات .

وكانت أكثر هذه الشخصيات " النساء البلدي " .

والأديب الموظف والأديب الصحفي أو الأديب الذي يضطر إلى ممارسة أي عمل آخر غير الأدب إذا استطاع الإنتاج الأدبي فإنه لن يستطيع أن يجاري الزمن في الاضطلاع الثقافي العميق ، ولا يستطيع مواصلة القراءة النامية الواعية المحيطة التي هي ألزم له من الطعام ، بل يضطر إلى الخطف على حد تعبير أستاذنا الدكتور طه حسين ، أو يقرأ في أحسن الأحوال كما يقرأ أي موظف أو أي مثقف عادي آخر لا كما ينبغي أن يقرأ الأديب الجاد المقدر لدوره ومسئولياته.

ولو تأملنا انتاج أدبائنا لوجدنا أن الذين استطاعوا منهم أن يواصلوا الإنتاج فترة طويلة من الزمن كانوا في الأغلب ممن أتيح لهم قدر من التفرغ يرجع إلى ظروفهم الخاصة كمحمود تيمور وتوفيق الحكيم ، فإنتاج هذين الأدبين بالذات شاهد بغزارته وتنوعه وعمقه على ما للتفرغ من مزايا .

أما أضرار عدم التفرغ فأكثر من أن تحصى وهي لا تحتاج إلى دليل ، ولعل أقوى مثل أستطيع أن أقدمه على صدق ذلك تجربتي الشخصية في هذا السبيل وهي تجربة بسيطة للغاية .

كنت قد عينت عقب تخرجي في إدارة الجامعة وظللت في هذا العمل من عام ١٩٣٥ إلى عام ١٩٣٩ وهي الفترة الوحيدة التي اشتغلت فيها بعمل بسيط نوعا ، وفي وقت محدود من الصباح إلى الظهر

فقط ، ولذلك كان محصول هذه الفترة غزيرا بالقياس إلى السنوات التالية ، فقد ترجمت فيها كتاب " مصر القديمة " وكتبت عشرات العشرات من المقالات في الفلسفة والاجتماع والنقد وعلم النفس ، وما لا يقل عن مائة أقصوصة ، بالإضافة إلى الروايات الآتية : " عبث الأقدار " ، " رادوبيس " ، " كفاح طيبة " ، " القاهرة الجديدة " .

ومن سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥٩ أي في خلال عشرين سنة لم أكتب سوى روايات : " خان الخليلي " ، " زقاق المدق " ، " بداية ونهاية " ، " السراب " ، و " ثلاثية بين القصرين " . وذلك لأنني نقلت في تلك المدة إلى وزارة الأوقاف ثم مصلحة الفنون ، وكنت أعمل في كل منهما صباحا ومساء في معظم الأيام .

وأكثر ما يزعجني في هذه الظاهرة ليس قلة الإنتاج ، وإنما قلة ما حصلته خلال تلك الفترة من الغذاء الفكري الضروري ، فلا شك أنه كان من الممكن أن يكون أضعاف ما حصلته لو أتيح لي شيء من الفراغ .

يا عديم الخال

عندما التحقت بوزارة الأوقاف كان يلازمني المرحوم كامل الكيلاني ، وحذرني من إظهار أي نشاط أدبي ، وطلب مني أن أخفي هويتي كمؤلف . قال لي : إنهم لو عرفوا سيضطهدونك .

وكان الشاعر كامل الشناوي مندوبا للأهرام في البرلمان في الوقت الذي كنت فيه سكرتيرا برلمانيا بوزارة الأوقاف ، وكنت أهديه كتبي . فقال لي ذات يوم : سأعترف لك بشيء وهو : أنني لم أقرأ كتبك الأولى . فلما سألته عن السبب ؟ قال : كنت أنظر إليك فأقول في نفسي : لا يمكن أن تكون هذه هيئة أديب ! لأنه لا يعرف إلا الصعاليك من شلة الأدباء مثل عبد الرحمن الخميسي وغيره ، بينما هو لا يجد أمامه إلا موظفا مزرر الجاكته ، يأتي في ميعاد ويخرج في ميعاد ، فقال : هذه شخصية لا يمكن يطلع منها أديب أبدا .

كموظفين كان الإسم الثلاثي ضروريا لنا ، وفيما بعد اكتشفت أن الاسم الثنائي أفضل فاكتفيت به عندما صدرت رواية " القاهرة الجديدة " وأنت تعرف أن الناس تقرأ الروايات وكأنها حكايات حقيقية.

كنت أعمل سكرتيرا لوزير الأوقاف ، وحدث اضطراب في الوزارة وتساءلوا عما أقصد ؟ وقام بالتحقيق معي الشيخ أحمد حسين شقيق د . طه حسين .

وسألني الشيخ أحمد عن الأحداث . فقلت له : هذه رواية مثل التي علمها لنا أخوك طه حسين . ففهم الرجل أنني تلميذ طه حسين رغم أنني لم أره . فقال لي : كويس أنل فهمت الوضع وسأشرحه لهم . وقال لي : لماذا تكتب عن فضائح الباشوات وتعرض نفسك للمشاكل ؟ أكتب عن الحب أفضل وأكثر امنا .

كنا نعيش في أيام محجوب عبد الدايم في ظل الأزمة العالمية التي بدأت في الثلاثينيات . وكانت الحالة الاقتصادية في مصر حرجة إلي أبعد الحدود ... فسوق القطن نفسه كانت راكدة ... حتى جميع الأعيان والملاك كانوا في أزمة ... كانوا كثيري ودائمي الإقتراض في البداية ، ثم كانوا يشهرون إفلاسهم بعد ذلك ؟ أما المطمئنون بعض الشيء فكانوا أصحاب الدخول الثابتة ، عكس الحال الآن تماما . كانت مرتباتهم رغم ضآلتها الشديدة بالقياس إلى الآن ، هي المضمونة والباعثة على الاطمئنان ... وكان كل شيء رخيصا جدا على الأقل لكونه متدهور آنذاك .

ورغم هذا اليسر فقد كان الموظفون يعانون من ناحية أخرى ، والسبب أنه صدرت قوانين تمنع التعيين والترقيات إلى أجل غير مسمى ٠ أي كانت الحالة في منتهى الصعوبة ، ولذلك كان دخول الحكومة في ذلك الوقت ولا دخول الجنة . ٠٠٠ فكانت الواسطة مطلوبه بإلحاح ، والوسائط كانت متعددة ! نفوذ ٠٠٠نقود ٠٠٠ إلى آخره ٠

فكان محفوظ عبد الدايم يمتاز بالإنتهازية والرغبة في الوصول لهدفه من أي سبيل ، وهذ لا يختلف فيه عن انتهازي اليوم ، بينما ما نختلف فيه هو الوسائل والأشياء الخارجية ٠

فالإنتهازي القديم ضحي بشرفه من أجل درجة وجنيهين ، أما انتهازي اليوم فيضحي بشرفه من أجل ١٥ مليون جنيه يهرب بها ٠

مازلت أتذكر مونولوجا حفظته وأنا طفل ، يقول :

يا عديم الخال　　　　يا قليل المال
رفعتك محال　　　　في زمان الأنذال

ومنه

الدنيا دي زي الأنجر　　　　مليان فته وسط الأزهر
حواليه خفر ونقيب أكبر　　　　يدي لقرايبه ويبحتر
ويهب في قفى غلبان

لا أعرف مؤلف كلماته ، ولا ملحنه على وجه اليقين ، ولكني لم أعرف كذلك ما هو أبلغ منه في وصف أسلوب الحياة المتبع في بلادنا ، الذي يعتنقه الجميع ويسلم به الجميع كأنه دين مقدس ، إنه دين كل حزب وكل عصر وكل ثورة ، لا فرق بين عهد ليبرالي وآخر شمولي ، وقد كان الامر كذلك منذ ارتفع صوت الفلاح الفصيح بالشكوى ، كنا وما زلنا فئتين : ذات الحظوة وذات الحسرة ٠

تتكون الأولى من ذوي القربى والمال والمناصب ، وتتكون الثانية من عامة الشعب ٠ وقد يضاف إلى الفئة الاولى بعض الأصدقاء من المقربين أو بعض المماليك والحاشية والخدم ٠ والإعتماد في تقسيم الغنائم يتم اعتمادا على الامتيازات والسلطة والواسطة ٠ وتحظى " ذات الحظوة " بكل الخيرات ، بالوظائف المميزة ، والتسهيلات في جميع المجالات ، والخدمات الاستثنائية ، والمصالحات الوردية مع القوانين والتعليمات ٠

أما ذات الحسرة فلا يبقى لها إلا الكدح والعناء والبلاء والأمراض والأحزان والبطالة والعشوائيات ٠ والخلاص يبدو بعيدا وكأنه مستحيل ، مع أنه أبعد ما يكون عن ذلك ٠ كل ما نحتاجه قانون عادل لا يستثنى من حكمه أحد ٠ ولكي يوجد هذه القانون لا بد من قيام دولة عادلة وحرة ٠

المنسيون

حينما كنت موظفا بوزارة الاوقاف كان هناك أحد السعاه اسمه " عمر إبراهيم " يقوم على خدمتنا ، وكانت شخصيته طريفة لأنه متقدم في العمر ودائما يتحدث عن متع الحياة التي هو في نفس الوقت محروم منها . فمن هنا جاء السؤال أو جاءت الخاطرة ماذا لو أراد " عمر أبراهيم " هذا أن يتمتع بتلك الأشياء التي حرم منها والتي لا يكف عن الحديث بها ؟ وإذا تم له ذلك فمن أين تأتيه امكانات تحقيق أحلامه وكيف تتم ؟ أشياء من هذا القبيل ولكنه والحمد لله في الواقع لم يقترف شيئا مما ورد في القصة (دنا الله) لم يجد حيلة غير أن يأخذ ما يظنه حقه عنوة وذلك بأن استلب مرتبات الموظفين ولكنه كان على قدر من الإنسانية ، فحين علم أن أحد الموظفين فقير محتاج فقد ذهب إلى بيته وترك له مرتبه .

(أما) أحمد عاكف (فقد) كنت أعرفه حق المعرفة ، كان زميلا لي في إحدى الوظائف التي شغلتها في حياتي ، كان رجلا مشهورا بعصبيته وكبريائه ، وكان أيضا معتزا بنفسه إلى الحد الذي ضيع به على نفسه فرصا كبيرة في الحياة بكبريائه التي لا تقوم على أساس من العلم الصحيح قدر ما تقوم على الغرور . فمثلا واتته فرصة ثمينة حين أرسلوه ليؤسس جامعة الأسكندرية من الناحية الإدارية ، فاصطدم بطه حسين الذي كان أول مدير لها . طه حسين أراد ببراءة أن يصحح له شيئا يسيرا في إحدى المذكرات التي كتبها ، فثار وقال له : أنا لا يصحح لي أحد . أنا أكتب منك ومن العقاد !
فقيل له إن طه حسين خاف بالطبع وقال له شكرا .
لكنه طلب نقله فورا وإعادته إلى القاهرة فضيع بهذا فرصة كبيرة جدا اهتممت به لكونه نموذجا لكثير من الموظفين المحبطين في ذلك الوقت ، خاصة أنه في تلك الفترة عرف نوع من الموظفين اسمهم الموظفون المنسيون ، وكانت هذه من الغرائب والعجائب ، كان هذا النوع من الموظفين يسقط في درجة واحدة لمدة عشرين أو ثلاثين سنة ، ويبدو أن الحكومة نسيتهم ، فسموا بالموظفين المنسيين إلى أن جائت إحدى الوزارات واوجدت لهم حلا مقبولا بإنصافهم لقد تعمدت أن أسمي الشخصية الروائية بالأسم الحقيقي المقتبس منه ، لانه كان لي رأي مؤداه : أننا حين نأخذ الشخصية من الحياة ونعطيها التفسير الجديد الروائي ، فإن صاحبها نفسه لا يفطن إلى ما حدث ، فتعمدت أن أعطي الشخصية نفس الأسم الأصلي ، وكان في ذلك مخاطرة كبيرة لي ، لأنني أعرف خطورة الشخص الأصلي فلو تنبه إلى أنه هو نفسه هذه الشخصية التي لا تخلو من جوانب سخرية لا حصر لها ، وهذا كان تفسيري له ، فإن في ذلك خطورة علي ، لكنني قررت أن أتحداه لست أدري لماذا ، وتحملت الشعور بالخطورة ، وأسميت الشخصية بأسمه فجأة " عاكفا " أي بمعنى أنه " عاكف " (فصحيح أنه كان منسيا ومضطهدا لكن له يدا في صنع ظروفه الخاصة الكبرياء والغرور والطموح غير القائم على أساس متين مقنع ، وتحديد هدف هو غير مستعد لتحقيقه ، وحياته في وهم كاذب انفرط في سبيله كثير من سنوات عمره ، إن رواية " خان الخليلي " تحوي مقتطعا من الحياة الإنسانية ، أنا دائما أكتب عن المنسيين والمضطهدين وهكذا الحال بالنسبة لأحمد عاكف .
وجدت في البداية إهمالا شديدا من جانب النقاد الأدبيين ، ولكنني أدركت أن هذه عقبات طبيعية وبمثابة أختبار للتحمل ومدى عشق الإنسان لعمله وتصميمه عليه .
وبهذه المناسبة يهمني أن أذكر أن أول ناقدين كتبا عن مؤلفاتي في مجلة " الرسالة " وهما : " سيد قطب " و " أنور المعداوي " فقد كان لهما الفضل في انتزاعي من الظلام إلى النور .
لقد انفعلت بأول مقال كتب عني بقلم سيد قطب ، الصمت لا يطاق ، أتذكر أول مقال كتبه عني سيد قطب وكان عن رواية " كفاح طيبة " هذا مقال ممتاز.
لقد كتب عني قبل أن يعرفني معرفة شخصية ، كتب عني لمجرد أنه وجد فيما أكتب ما يستحق أن يتوقف عنده حتى ولو كان صاحبه غير معروف له أو حتى غير معروف للقراء ، لقد كان ذلك عصر آخر له تقاليد أخرى واخلاقيات أخرى ، وكان سيد قطب صاحب تقاليد وأخلاقيات .
وكان والحق يقال ـ من أذكى وألمع أبناء جيلنا ، فقد أعطى النقد حقه ، كما أن مؤلفاته الإسلامية في غاية العظمة والمتانة والقوة ، وكان بمقدوره أن يكون الناقد الأول في جيله لو أستمر في النقد ، لكنه اهتدى إلى الجانب الديني وتغير كثيرا .
تلاه سنوات صمت حتى كتب أنور المعداوي مقالا أخر ٠ وأعقب ذلك سنوات من الصمت أيضا.
صحيح أول من كتب عني كان المرحوم سيد قطب (٠٠٠) وبعده كتب عني أنور المعداوى ، وكان هذا أمرا طبيعيا ، لأن قطب والمعداوي كانا شابين يحملان فكرا جديدا ، ومن الطبيعي أن يهتما بشاب مثلهما وعنده شيء جديد ٠٠٠ وكانت أول لفته اهتمام بأحد من غير الكتاب الكبار المعروفين ٠
في هذه الحالة ازداد شعوري بالمسئولية والنقد الذاتي ٠

الشهرة أحرجتني

أذكر أثناء الأزمة الاقتصادية الطاحنة في الثلاثينيات أني أخذت علاوة خمسين قرشا ، وعندما ذهبت إلى المنزل وأخبرت والدتي ، هزتها الفرحة وقالت : يا ما أنت كريم يا رب .
كان أمل الناس تقريبا : الوظيفة للحصول على الضمان والاطمئنان ، كان ذلك واقع مجتمعنا ، واقع حياتنا ، فلم يكن من المعقول أن أترك هذا الواقع وأكتب رواية تاريخية أخرى ، أو رواية رومانسية يملأ الحب جنباتها ، في حين أنني أشعر وأعيش ظروفا مؤلمة موجعة إلى حد غير محتمل ظروف مجتمعنا وأيضا ظروف العالم ولم يكن هناك بديل ما دمت اخترت الأدب سبيلا ، لكن ينبغي أن تدرك شيئا هاما ، أنني لم أقرر كتابة رواية واقعية بناء على موضوعية النظرة والاحساس كما تقول ، وإنما قررت أن أكتب رواية ، ولكن عموما فالمادة الأصلية للرواية مقتبسة من البيئة الجامعية التي عشناها في الفترة ما بين ١٩٣٣ و ١٩٣٤ بإيجابياتها التي ظهرت في الرواية ، وبسلبياتها التي تعتبر استثناء ، ووجدت أيضا في الرواية .
كان أدبنا من أدب المعارضة الذي نقد الاوضاع السيئة ، ولم نجد من السلطة كبتا جارحا وعنيفا لأن الفترة المذكورة غلب عليها طابع الليبرالية ، وأضيف أن النكسات السياسية التي كانت تحدث ، كانت تقتصر على الحيز السياسي ولا تمتد إلى الفكر والأدب ، ولذلك فإننا لم نصطدم بالرقيب في فترة ما قبل الثورة إلا نادرا ، ولا بد أن أذكر هنا أن روايتي " القاهرة الجديدة " كشفت فضائح وزراء ومسئولين ، فجاء الرقيب وألغى أحد فصولها .
صدرت طبعتها الاولى قبل الثورة ، ولكن بعد أن قامت ثورة يوليو أراد يوسف السباعي نشرها في سلسلة " الكتاب الذهبي " ولكنه رفض نشرها تحت عنوانها القديم ، حتى لا يفهم أن " القاهرة الجديدة " هي قاهرة الضباط ، فقام بتغيير العنوان (فضيحة في القاهرة) وفيما بعد عادت إلى عنوانها الأصلي .
أول رواية كان لها صدى في العالم العربي هي " القاهرة الجديدة " ، وحققت خان الخليلي " نجاحا أكبر ، ثم إذا بزقاق المدق تغير الموقف تماما ، وإن ظلت الكتابات عن مؤلفاتي في العالم العربي ـ في سوريا والعراق ولبنان ـ أكثر منها في مصر بنسبة خمسة إلى واحد ، وأول عمل لفت الأنظار لي " زقاق المدق " ثم " الثلاثية " ثم السينما والمسرح والتليفزيون وكانت الشهرة لذيذة وأنا شاب . ولكن عندما كبرت أضجرتني .

القصة على مكتب الوزير

كثيرا ما سبب لي ولعي بالكتابة الأدبية مشاكل لا حصر لها ، وأعد لي مقالب لا قبل لي بها . وأذكر مثلا عند بداية تخرجي في الجامعة أن عملت بوزارة الأوقاف وقت إن كان عبد السلام الشاذلي وزيرا ،وقد كان الشاذلي باشا رجلا حازما وصارما أراد أن يصلح من الوزارة ، فأصدر أمرا بأن تغلق الوزارة أبوابها كل يوم في تمام الساعة الثامنة صباحا ، ولا يسمح لأي من موظفيها بالدخول بعد ذلك ،وكل من هو ليس موجودا في الثامنة يخصم اليوم من أجازته ، فإذا تأخر ثانية تطبق عليه أقصى عقوبه يملكها الوزير وهي خصم ١٥ يوما من مرتبه ، وقد كنت أرى كبار موظفي الوزارة حين يطلبهم الوزير وهم واقفون في قلق على باب مكتبه لا يعرفون المصير الذي ينتظرهم 0
ولقد منع الوزير دخول الجمهور إلى الوزارة ، فكان رئيس قسم التحقيقات هو الذي يقابل المواطنين على الباب ليستفسر منهم عما يريدون ، فإذا كانت زيارة خاصة رفضت ، وإذا كان عملا يقوم رئيس قسم التحقيقات بنفسه بالإتصال بالموظف المختص ويعرض عليه الموضوع ثم يخطر المواطن بعد ذلك بالموعد المحدد ولم يكن عمله قد تم، يخصم من الموظف المختص ١٥ يوما .

كذلك منع الوزير الاكل في الوزارة وقراءة الجرائد ، فكان البوفيه يقتصر على تقديم القهوة والشاي فقط ، ومن كان يضبط وهو يأكل سندوتشا أو يقرأ جريدة كان يخصم من ١٥ يوما ٠

ولقد كنت السكرتير البرلماني للشاذلي باشا ، وأذكر أنني أعددت له يوما ردا على استجواب موجه له في البرلمان ووضعته في مظروف ، وعند وصولنا إلى البرلمان سلمت الوزير المظروف في مكتبه وخرجت ، وبينما أنا جالس خارج المكتب فتحت مظروفا أخر كان معي لألقى نظرة أخيرة على قصة قصيرة كنت قد كتبتها ، وكنت سأقوم بتسليمها في نفس اليوم للزيات لينشرها في مجلة الرسالة ، ولك أن تتخيل حالتي حين وجدت أن المظروف الموجود بين يدي ما زال به رد الوزير، وأيقنت أن المظروف الذي تركته له به قصتي ، ولم أدر بنفسي إلا وانا أندفع إلى مكتب الشاذلي باشا قبل أن يدخل القاعة وأقوم باستبدال المظروف هذا بذاك .

وكان الشاذلي باشا مشغولا بالحديث مع أحد الوزراء ، فتصورت أنه لن يلاحظ شيئا ، ومع ذلك فقد سألني ماذا تفعل عندك ؟ فقلت على الفور : لاشيء ذي بال ٠ وخرجت وأنا أتنفس الصعداء

فلست أعرف ماذا كان يمكن أن يكون مصيري لو أنني تسببت في أن يقرأ الشاذلي باشا قصتي على أعضاء البرلمان بدلا من رده على الإستجواب ؟ ! .

ذهول

أتذكر أنه دار حديث عن مشروع ما ، لم يتم واعترض عليه أكثر من نائب ، وكان من بينهم فكري أباظة ، ولكن الوزارة أصرت على الاستمرار في المشروع ، ثم حضر الجلسة مندوب من السفارة البريطانية اسمه مستر " سمارت " واعترض هو الآخر فاستجابت له الوزارة وتراجعت عن المشروع ٠ هنا نهض فكري اباظة قائلا وهو يشير إلى جسده : هو لازم يعني أكون " سمارت " علشان تسمعوا كلامي .

حققت كثيرا من أحلامنا أول ما جاءت ، وان تحقيق الأحلام بالنسبة للكاتب يزهد في الكتابة أنا لا أؤمن بأن اى نقد لغير الحاضر هو تأيد مقنع ، وقد خلقت معارضا لا مؤيدا ، ولك إنسان مزاجه ، ومن طبعي اننى إذا شعرت بالراحة و الانسجام مع الأشياء ، كففت عن الإنتاج (١٦٨)

الغريب أنى كتبت رواية " بداية ونهاية " سنة ٤٦ /٤٧ ونشرتها سنة ١٩٤٨ ، وبعد الثورة كنت اجلس مع الناقد احمد عباس صالح وكان يحللها نقديا لي ، وكانت في تحليله كأنها نبوءة بما حدث ، وأنا أصغيت إليه وظللت أقارن بينما يحدث فحصل لي ذهول للتطابق (١٦٩).

أنا والثورة وعبد الناصر

لعل المجتمع الجديد لم يكن قد تبلور بعد حتى اتخذ منه موقفا واضحا، في حين كنت اكتب من قبل عن مجتمع واضح الملامح يسيطر سيطرة كبيرة على تفاصيله .

"بين القصرين" :

تبرز فيها العوامل الطبقية كعامل من إفساد هذه الثورة

وفى "السكرية ":

تتجدد ثورات مع دخول شباب جديد إلى المسرح ، الثلاثية من أحب الأعمال إلى نفسي . وأول باعث لي على التفكير في كتابتها وفى موضوعها قرائتى لرواية طه حسين " شجرة البؤس" لا اعرف على وجه اليقين هل كنت قد قرئت فعليا (شجرة البؤس) لتوى أم أن الفكرة كانت سابقة ؟ هل " شجرة البؤس"

أول قصة أجيال أقرؤها انم اننى سبق أنى قرأت في الأدب الغربي مثلا روايات قبلها لا أستطيع أن احكم ألان (٤) . أول ما سمعت بطه حسين كنت طالبا بالمرحلة الثانوية .
وكانت في ذلك الوقت الأسطورة ، فالجميع كانوا يتحدثون عنه بسبب الأفكار الجديدة التي كان يطرحها .
فتأثيره في نفسي سابق تأثيرى به عن طريق القراءة ، وقراءته له كانت قراءه أدبيه في الأساس لانى لم أكن أحب أن اقر مقالاته السياسية التي كان يكتب فيها ضد الوفد ،فكنت مثلا أتابع " حديث الأربعاء " وقرأت له "على هامش السيرة" و" الأيام" وكانت لهذه الأخيرة تأثيرا كبيرا جدا في نفسي .

---

(١٦٨) نجيب - حياته وأدبه- السابق (١٦٩) الرؤى المتغيرة - السابق
(١) مجلة الطليعة – يناير ١٩٧٣- نقلا عن نجيب محفوظ سيرة - السابق
(٢) السابق (٣) "سعودية " عكاظ ١٩٨٤/٠١/٠٧ (٤) نجيب محفوظ بقول- السابق

والحقيقة أن طه حسين اثر في جيلي شيئين :
أولا بالثورة الفكرية التي أحدثها ، ثم برواية "الأيام" التي كانت تحفه أدبية غير مسبوقة ، فعلى الرغم من أن الرواية كقالب فني كانت على هامش حياته، فانه قدم الرواية المعتمدة على الترجمة الذاتية " الأيام" فقد قدم أيضا الرواية الموضوعية الرومانسية في "دعاء الكروان" ،وقدم رواية اليوميات في "شجرة البؤس" (...) وقد أعجبني هذا النوع من الرواية للغاية ، متابعته عند الايطالى "جولزوروثى" والروسي "تولوستوى "،والالمانى"توماس مان " ، وربما جائتنى فكرة أن اكتب الثلاثية أثناء قرائتى "لشجرة البؤس" فقد فتنت بفكرة تنال الأجيال وما نكتشف عنه من تناقضات ،وما تريه من تاريخ وما تقدمه من مشاعر وعواطف ، فعلى الرغم من أن " شجرة البؤس" رواية قصيرة ،فأنها كانت لها ابعد الأثر في نفسي ، وقد أعطى لنا(طه حسين) هذه الإشكال المتعددة للرواية كأنه كاتب روائي متخصص (٥)
قرات الكثير فى علم القصة التى من انواعها القصة التى تعرض جيل الاجداد والاباء والاحفاد،فنبتت فى ذهنى ، فكرة رواية من هذا النوع اقدم فيها صورة مصر (٦) لكن كان امامى فى نفس الوقت اعمال كثيرة جدا خططت لكتابتها منذ فترة مضت ، وكان يحب عليا ان انجزها (...) مثلا : السراب ، بداية ونهاية ، زقاق المدق ، القاهرة الجديدة .
فقلت اوجلها حتى انتهى من كتابة هذه الروايات التى ذكرتها ، وافضيت بافكارى هذه لصديق العمر الاستاذ عبد الحميد السحار ، فهوايضا قرأ " شجرى البؤس " واعجبته ، ولكن لم يكن مشغولا مثلى بانجازات أخرى (...) فسبقنى الى كتابة رواية اجيال ، وبما كانت الفكرة لديه من قبل لأننا كنا من جيل واحد ، واهتمامتنا واحدة تقريبا او متشابهه على الاقل (..) فبدأ فى كتابة رواية " قالفة الزمان " .. ولما انتهيت من كتابة سلسلة روياتى ابتدأت افكر جديا فى كتابة الثلاثية .. حينما حان الوقت المناسب لها (٧)
بعد ١٩٤٨ بدأت اكتب (*) – استمر الاعداد لهذا العمل حوالى سنة تقريبا قرأت خلالها بعض الروايات العالمية من هذا النوع مثل " الحرب والسلام " (لتولوستوى) ، ورواية " توماس مان " – فأنا قرأت عائلته - ، ثم قمت بعمل ارشيف لكل شخصية حتى لا انسى الملامح والبصمات ، وانتهيت تماما من كتابتها
بعد ثلاث سنوات من الاعداد (...) حوالى ٩٩ % من شخصيات الثلاثية من الواقع من عائلتنا ، ومن الجيران ومن الاقارب ، واعتقد انه حينما يشعر الانسان بالنقص او الحزن فهو يبدع اكثر (*) ،ما قاله المفكر الامريكى " ديورانت " (صاحب "قصة الحضارة ")وهو يدافع عن ابن سينا وغيرة من الفلاسفة العرب فى انهم تأثروا بفلاسفة اليونان ،

فقال : ان المبدعين تمام الابداع ، والاصلاء تمام الاصالة لايوجودون الا فى مستشفى الامراض العقلية " (٨) وجدير بالذكر ان نتذكر هذه المناسبة كان ينبغى ان نتناول اسرة وتطورها و ان تختارها فى احسن مكان تحب ان تتحدث منه وعنه ..فهذه الاسرة وهذه الطبقة موجودة فى الحسين وفى العباسية اللتين اعرفهما افضل من غيرهما (...) هذه كما يقولون مرتع طفولتى : حى الجمالية .. وبعد ان رحلت عنها الى العباسية كانت المنطقة الجديدة مكانا واسعا وغريبا على الاقل فى البداية ، فكنت اميل اكثر الى المرتع القديم بما يحمل من ذكريات اعشقها ، ثم لما عشقت المكان الجديد عبرت عن عشقى للمكانيين معا .. هذا موجود فى الثلاثية .. فالمكان الذى يعشقه الكاتب يكتب عنه ، بل ارى ان هذا المكان الذى يحتل مركزا فى وجدان الكاتب يكون مصدر الهام له ايضا يمده باشياء كثيرة (...) هو الزاوية التى يلتقت منها الكاتب شيئا يتعلق باحساسه الشخصى ، (...) (ثم يأتى) الموضوع (وهو)يحوى من المشاكل والاهتمامات والقضايا ما كان مطروحا وقتئذ بالحاح فى المجتع (٩) " كمال " احد ابطال بين القصرين الذى يمثل الجيل الثانى فى الرواية ، اعطيته من نفسى كل الجانب العقلى فى حايته (١٠)

انا كمال عبد الجواد فى الثلاثية ، انه يحمل مايزد على ٥٠ % عن واقعى ، ولكن بشكل مروى ، ولكن مع ملاحظة ان التركيز الروائى تم على ازمته العقلية (١١)

---

(٥) نصف الدنيا – ٢٠٠٠/١٢/٢٤ (٦) عكاظ – السابق
(٧) نجيب محفوظ يقول – السابق (*) ملحق اهرام الجمعة – السابق
(٨)عكاظ – السابق (٩) نجيب محفوظ يقول – السابق
(١٠) عصير السابق (١١) اكتوبر السابق

نحن جيل نشأ على تربية تقليدة دينية محافظة ، ثم انغمر فى تيارات الحداثة والمعاصرة من عطاء قادة الفكر وروادنا والمجلات و . و . و . فكانت ازمة هذا الجيل " الاصتدام " اى نفس الازمة التى وجدت فيها الشيخ "الجبرتى " نفسه امام الثورة الفرنسية (الحملة الفرنسية)ولكن بصورة اكثر حدة وعنفا (...) وهذا هو الذى وجد فيه انفسهم بحق الناس الذين خرجوا الى بعثات وكتبوا عنها كـ يحيى حقى وكـ الطيب صالح وكـ توفيق الحكيم (...) ولكننا نحن تلقيناها هنا لا هناك (...) فى سبيل بيان هذه الازمة : نوعها وحجمها وتأثيرها ، كان لابد ان اجعله مستغوقا فيها لتوضيحها (...) فازمته الفكرية مصاحبة لازمته كفرد فى اسرة وكشفه لحقيقة ابيه ، ولواقعه كانسان .. وما هى الاسرة ؟ جزء من الكيان العام .. الجزء يحيا حياة الكل .. ازمة الوطن تحملها الاسرة الواحدة فى (...) كمال كان يعيش فى اسرة تحكمها قيم من شأنها ان تحافظ على كيانها .. وكفرد فيها كان عليه الامتثال لهذه القيم .. كما انه كشاب كان عليه ان يمارس شبابه بمثاليه.. وكواحد فى وطن عليه ان يطمأن الى صورة وطنه .. وككائن موجود كان عليه ان يطمأن الى صورة وجوده ، ووجوده هذا يرتبط بكل المعانى السابقة ويتأكد بها .. ومن هنا كانت الازمة فى اعتقادى (...) ويرتبط بكل هذه الاشياء الواقع السياسى للوطن والواقع الاجتماعى للوطن (...) فتعارض الصورة داخل نفسه مع واقع الامور امامه ، وتناقضها وتناقضه هو نفسه احيانا .. خلق هذه الازمة .. كل شىء يتغير حوله ويتحول من حال الى حال ثم لا يلبث ان يتغير هو نفسه من هذه الحال الى حال ثالثه .. الرؤى تتبدل امامه فاغترب او شعر بهذا .. هذه هى الازمه التى طحنت كما يقولون شباب تلك الفترة ومن بينهم كمال (...) انه قريب جدا منى .. لكن هذا لا يجعله انا ، ولا يجعلنى هو (...) وفى الواقع ان الفترة التى ابتدأ فيها كمال الدخول فى منطقه الوعى ، هى تلك التى انتكست فيها ثورة ١٩١٩ .(...)

اية ازمة كمال العقلية فى الثلاثية كانت ازمة جيلنا كله ، وكنت اظنها خاصة بى حتى ادعاها بعض الاصدقاء والنقاد انفسهم (١٢)

انا امثل جيل النكسات التى حلت فى اعقاب الثورة (١٩١٩) نتيجة الاتحاد بين الانجليزى.

سارت فى خط طبيعى وتطورت تطورها الصحى .. حلت اجيال محل اجيال واحزاب جديدة مكان الاحزاب التى تستنفذ غرضها وسياستها وهكذا .

ان الوفد مثلا كان قد انتهت رسالته عام ١٩٣٦ ولكنه عاش حتى عام ١٩٥٢ . كل هذه الحياة كانت مفتعلة بفضل اعدائه وبفضل غياب المناخ الطبيعى ، لقد ظل الوفد لأن الجمهور علق عليه اماله لخيبه امله فى الاحزاب الحاكمة .. والواقع ان الوفد . لم يكن بسبب الاقالة ولكنه عاش بسبب الاقالة ذاتها (*) (...) كان امالنا فى ذلك الوقت ان يتقوى الجناح اليسارى فى الوفد ليفتح صفحة جديدة فى حياة الامة تنضاف الى صفحة ١٩١٩ ، ولعل ذلك يفسر توافقنا مع الاشتراكية التى قامت بعد ذلك فى عام ١٩٥٢ (...) الحق اننى انتهيت من كتابة الثلاثية قبل ثورة ١٩٥٢ بثلاثة اشهر – بعد ١٩٤٨ بدأت اكتب بين القصرين (**) وقد صرفنى قيام الثورة الجديدة عن التفكير فى الماضى وتركيز اهتمامى فى الحياة الجديدة

---

(١٢)نجيب محفوظ يقول – السابق

(*) لم يحترم الملك الدستور واستخدم سلطاته فى اقالة حكومة الاغلبية من الحكم التى تتولى تقاليده سوى ٧ سنوات خلال ٢٥ سنة وهو ما يجعله للوفد رسالة جديدة فى محاربة دكتاتورية الملك ولذلك عاش مرة اخرى بعد ان انتهت رسالته بعقد معاهدة ١٩٣٦ التى اللغت الامتيازات الاجنبية واعترفت باستقلال مصر

عبد الناصر قرأ الثلاثية

(بالطبع اذكر ، فقد كان يوم ٢٣ يوليو هو احد أيام العمل ، وكنت ذاهبا إلى مكتبى بوزارة الأوقاف ، واذكر اننى وصلت إلى محطة الترام فى ساعة مبكرة من الصباح لكى اشترى الجرائد واركب الترام إلى الوزراة ، لكننى فوجئت بعدم وجود اى ترام ، وبعد ان طال انتظارى توجهت الى بائع الجرائد مرة اخرى اسأله : ماذا حدث للترام ؟ فقال لى : ان الجيش قام باضراب ! وكان مقر الجيش فى نهاية خط الترام بين مصر الجديدة والعباسية ، لكننى لم افهم كيف يضرب الجيش ، فسألت البائع مرة اخرى: اتقول أن الجيش مضرب ؟ قال : نعم مضرب وقد اقف الطريق ، ثم تذكرت حادثة انتخابات نادى الضباط التى فاز فيها اللواء محمد نجيب على غير رغبة الملك ورفض الملك للنتيجة ، مما أدى إلى تذمر كبير بين الضباط فتصورت أن كان هناك اضراب فلابد انه يتعلق بهذا الموضوع ، وقد اضطررت إلى ان أسير على قدمى طوال شارع فاروق إلى مقر الوزارة بالعتبة ، وأنا أتعجب طوال الوقت من قيام الجيش باضراب ، ففى اثناء سيرى مررت على مبنى الإذاعة الكائن ذلك الوقت بشارع الشريفين ، فندهشت لوجود دبابة حربية امام مدخل المبنى ، فأحسست على الفور ان هناك شيئا غير طبيعى فى البلد .

فقلت : ومتى عرفت ان هناك ثورة قد حدثت ؟ قال : لم يكن ذلك إلا بعد أن وصلت إلى وزارة الأوقاف ، حيث كنت اعمل بمكتب الوزير ، فهناك قال لى المرحوم عبد السلام فهمى ما حدث ، واستمعنا معا الى بيان الثورة الذى تقررت إذاعته عدة مرات فى ذلك اليوم .

كنت قد انتهيت (من كتابة الثلاثية) قبل قيام الثورة بمدة بسيطة وتعذر طبعا بسبب ضخامة حجمها ، وعرض علي " يوسف السباعى " ان يساعدنى على نشرها فى احدى المجلات ، لكن الثورة قامت قبل بدأ النشر فاحتفظ بها يوسف السباعى ونشرها فى مجلة " الرحالة الجديدة " ومعى المجلة التى اصدرتها حكومة الثورة وقتها .. ونشرت بين القصريين مسلسلة فى الإعداد الأولى منها ، وكان نجاحا مشجعا لسعيد السحار على ان يطبعها ، واقترح على تقسيمها

إلى ثلاثة أجزاء ليسهل طبعها وبيعها ، فقسمها حسب الفترات التاريخية واسميتها " بين القصرين " و" قصر الشوق " و " السكرية " .. اما اسمها الأول فكان " قصر الشوق " فقط . قال لي احد الضباط انه لما نشر خبر طبع بين القصرين اهتم عبد الناصر وطلبها ليقرأها .

الأعمال التي أمكنها أن تعطى رؤية متكاملة مثل : "الثلاثية"، أو "ملحمة الحـــرافيش"، أو "ألف ليـــلة وليــــلة " أو "رؤيتي المتكاملة".

أنا أعتز بالثلاثية جداً، و لكنني لا أضع "أولاد حارتنا" في المكانة نفسها ، أما " الحرافيش" فهي في مستوى "الثلاثية" وأكثر، و" ليالي ألف ليلة وليلة".

نشوة الإبداع أحسست بها بعد" اللص والكلاب"، و ملحمة "الحرافيش" ، و "ليالي ألف ليلة وليلة" ، و هي أعظم نشوة "الثلاثية" كانت هي الرسالة التي أردت أن ابعث بها عما يدور في نفسي من خواطر وآراء.

العمل التليفزيوني الذي اعتز به "الثلاثية" و تم إنتاجه في مسلسل خارج حيث تم إنتاج جزأين منه فقط "بين القصرين "، و "قصر الشوق" ، ولم يستطيعوا تقديم الجزء الثالث "السكرية" لأسباب سياسية.

خلعت الطربوش

لم أكن أتصور أبداً أن يقوم الجيش بانقلاب يطيح بالملكية ، ويوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، انتابني القلق الشديد على مصير مصر حيث تذكرت ثورة عرابي التي ضربها الإنجليز، و تلاها احتلال مصر و ظلت لفترة بين قلق وارتياب فيمن قاموا بحركة الجيش.

(كان) له علاقة بالضباط الأحرار ، بعضهم من العباسية ولقد دهشنا عندما رأيناهم بعد ذلك ، وكنا نعرف بعض قبل قيام الثورة، و لكن ليسوا ضباط القيادة الصف الثاني كنت اعرف بعضهم و أتذكر الآن أن بعض أفراد الصف الأول كانوا يسهرون فى "شلز" إلا يوم الخميس الذي أذهب فيه لان يوم الخميس بالنسبة لسهرة الشلة كان مثلما نقول يوم الحضرة . كان الضباط الأحرار يكشون منه فكانوا لا يحضرون يوم الخميس، منهم جمال سالم، ومنهم عبد اللطيف البغدادي . هذان العضوان البارزان كانا هما الوحيدان الذين يحضران إلى سهرات الشلة في أيام الأسبوع الأخرى، ولكنهما كانا يخشيان الظهور فى يوم الخميس لأنه يوم زحمة، وبعد فترة زال القلق و الارتياب مع إعلان الجمهورية و القضاء على الإقطاع ، ولكنني كنت منتظراً من الضباط الأحرار أن يكونوا من الديمقراطية ، فقد كنا نعتقد أن وجود محمد نجيب سيحدث فوزنا، فقد كان محمد نجيب مع حزب الوفد و الديمقراطية، ثم حدث صراع على السلطة بين أنصار عبد الناصر و أنصار محمد نجيب فيما عرف بأزمة مارس ١٩٥٤ و كنت منحازاً لنجيب.

وعندما اقبل نجيب فقدت الأمل في أن يتجه الضباط الأحرار نحو الديمقراطية و الاستعانة بالوفد، كنت اعتقد لو أن نجيب استمر فان الديمقراطية ستنتصر ، هذا ما فهمته منه و من اتصالاته بزعماء الأحزاب ، و كنت أتصور أن تستفيد الثورة من شعبية حزب الوفد ولو كان نجيب أو عبد الناصر انضما إلى حزب الوفد لتحقق لهما شعبية ساحقة.

برغم أن التاريخ لا يعرف "لو" أقول لو أن ذلك حدث لتغير وجه التاريخ فى مصر، هكذا كنت اعتقد و لكن عندما ذكرت ذلك فى كتاب "رجاء النقاش" أتذكر أن خالد محي الدين زعيم حزب التجمع

التقدمي وأحد الضباط الأحرار رد عليّ في الأهرام بأن محمد نجيب كان مع الديكتاتورية وان كلامه عن الديمقراطية كان في إطار الصراع على السلطة مع عبد الناصر.

كنت (مع الثورة) بدون قيد و لا شرط ، ولم أبد أي تحفظاً عليها إلا بعد مرور زمن ، ولكن ذلك لا يمنع الانتماء إلى ثورة يوليو باعتبارها ثورة اجتماعية قامت لإعادة تركيب المجتمع المصري على أساس عادل و دفعة للتقدم نحو المعاصرة في العلم و التكنولوجيا و الصناعة.

فيما قبل الثورة كان هناك ملك وانجليز و شعب يمثله الوفد ، الحكم كان أوتوقراطيا ، أما إطلاق الديمقراطية على هذا العصر فهذا ظلم لان الديمقراطية لم تحكم طوال هذا العصر إلا ستة سنوات فقط و لا تستطيع أن تحكم على هذه الفترة إنما كان هناك شعب حي يمثله حزب قوى يقاوم الاحتلال و الملك . كان إحساساً بالذاتية و آملا بالرغم مما كنا نعانيه من بلاوٍ ، وهذا العهد حتى سلبياته لم تخلو من مظاهر الديمقراطية ، الملك لم يحكم أبداً وحده بل دائما معه مجلس نواب ومجلس شيوخ و صحافة ، ففى أسوأ الظروف كان هناك قضاء مستقل و قدر من حرية الثقافة ، فإذن كان هناك مظاهر الحياة الديمقراطية و ليس ديمقراطية ، العيب الوحيد في هذه الفترة كان هو غياب البعد الاجتماعي خاصة في أواخرها بعد الحرب العالمية الثانية وارتفاع الأسعار وزيادة عدد السكان ، وبدا الناس لا يقصرون حديثهم على الدستور والاستقلال ، ولكن أضافوا إلى ذلك لقمة العيش ، الظلم الاجتماعي في هذه الفترة لا يمكن الدفاع عنه.

عبد الناصر غير الحياة من جذورها ، لقد حرر هذا الشعب من الإقطاع و أصحاب رؤوس الأموال المستغلين والذين كانوا يحكمون من وراء الحكام ومن الاحتلال الانجليزي و من الملك ، هذه الإنتقالة التي حدثت للشعب المصري لم تحدث في تاريخه من قبل.

و أنا اعترف أن اكبر نصير للفقراء في تاريخنا كله كان جمال عبد الناصر، وهذا المعيار كان في ذهني ... كنت افرح و أؤيد كل حاجة يعملها وكنت متحمسا "يعنى ناصري عير معلن" .

ثورة يوليو تبنت "أحلامـا" نبيلة و كان لديها فرصة تاريخية لتجعلنا مثل ألمانيا أو اليابان ، وكل قرار من قراراتها الإصلاحية كان يقربني منها".

كان تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ إحدى أهم محطات السعادة في حياتي و في حياة الشعب المصري، فقد شعرنا بأننا نسترد ما هو لنا بعد سنوات طويلة من الاغتصاب، لقد كانت خيرات هذا البلد تذهب جميعها للأجانب وقت الاستعمار، ولم يكن هناك للمصريين إلا الفتات ،ثم جاء التأميم ليؤكد لنا وللعالم أجمع أن البلد بلدنا وانه لن يتم استغلالنا بعد اليوم .

أقلعت عن لبس الطربوش بشكل نهائي بعد قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢، وكنت سعيداً بذلك سعادة كبيرة، فقبل عام ١٩٥٢، لم يكن من الممكن أن أدخل على مدير الوزارة بدون الطربوش ثم تطور الحال حتى أصبح المدير نفسه يأتي بلا طربوش لأن الطربوش كان رمزاً للتبعية التركية أو رمزاً للملكية القديمة التي كانت تتبع التقاليد التركية فكان رجال العائلة المالكة يرتدون الأحمر ، والنساء يرتدين "اليشمك" الأبيض ، وحين أسقطت هدى شعراوي الحجاب في بداية العشرينات هي لم تكن تسقط رمزاً إسلامياً، وإنما كانت تسقط رمزاً للتبعية السياسية لتؤكد الاستقلالية المصرية، أما الطربوش فلم يتم إسقاطه إلا بقيام الثورة.

والقبعة كنت ألبسها في الصيف فقط ، وكان لدى بعض الحساسية الجلدية التي كانت تتأثر بأشعة الشمس الحارقة، ولقد قام صديقي مصطفى أبو النصر بإهدائي قبعة وجدت أن بها فائدة ، وكانت عندي قبعة أخرى لا اعرف من أين جاءتني ولا أين ذهبت الآن هى وزميلتها.

لكن للقبعة تاريخاً آخر فى حياتنا حين كنا فى التعليم الثانوي ، وفى الجامعة ظهرت دعوة لارتداء القبعة كنوع من الفرنجة و الاندماج فى الحضارة الغربية على أساس أن الطربوش هو رمز التأخر وأن القبعة هي رمز التقدم وهناك من قادوا هذه الحملة مثل الراحل محمود عزمي ،وقد ظهرت فى ذلك الوقت منولوجات تتغنى بذلك فتقول "ما بدها زيطة.. ما بدها عيطة .. خلاص لبسنا البرنيطة"،

لكن تلك الدعوة لم تستهويني لأنه فى عز حماسي للحضارة الغربية، لم يقل عندى شأن الحضارة العربية الإسلامية التي هي الأصل فكنت ترى على مكتبي مؤلفات شكسبير جنباً إلى جنب مع المتنبي.

أنقــــــاض

كان لابد أن أتأمل ما يحدث و كان تحت يدي سلسلة من موضوعات الروايات الواقعية تكفى لعمري كله... واذكر أنني ناقشتها مع عبد الرحمن الشرقاوي ... وفجأة عاودتني حالة الموات الفني عقب قيام الثورة مباشرة ولكن هذه الفترة استمرت خمس سنوات كاملة (من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٧) ، وكدت انصرف نهائياً عن كتابة الأدب الروائي وأتحول إلى سينارست سينما محترف بعد أن فقدت رغبتي نهائياً وبشكل مفزع بالنسبة لكتابة الأدب ، بل و فقدت مجرد الرغبة فى التفكير فيه، لا استطيع أن أعطيك تفسيراً قاطعاً ... ربما كانت حالة ترقب لما ستفعله الثورة .... وربما كانت ارتياحاً مؤقتاً لخلاص مصر بعد الثورة من مظالم الحكم بعدها، وما نادت به من مبادئ العدالة الاجتماعية.

إن تحقيق الأحلام بالنسبة للكاتب يزهده في الكتابة هذا كان تفسير، ولكن هل هو حقيقي، أنا الآن أشك فى هذا التفسير.

كان لابد أن أتوقف وأتأمل وأرصد ، فضلاً عن ذلك فإن كل الذين كتبوا خلال هذه السنوات أنفقوا جهدهم في الكتابة عن الماضي ونقده، رغم أنهم لم يمارسوا ذلك قبل انهياره، فقد كانت كتاباتهم موزعة بين الحب والرومانسية و البوليسية، أما بالنسبة لي كما قلت فقد أشبعته نقداً وانتهى هو إلى انهيار و تحول موضوعي معه إلى أنقاض، فكان على أن أتأمل ذلك الجديد الذي يولد ويتشكل وينمو قبل أن يأخذ ملامحه الكاملة.

كما أن الإصلاح لا يتوقف فان تناقضات المجتمع لا تتوقف، فبعد فترة من الزمن يتعامل الإنسان مع تناقضات جديدة فى المجتمع الجديد ويعود إلى الشعور بالهوة التي تفصل الواقع عما يجب أن يكون، فيشحذ قلمه ويدخل المعركة.

أولاً يجب أن يكون للأدب موقفا يعبر عنه ثم يجب عليه بعد ذلك أن يكون على استعداد لتحمل تبعات هذا الموقف، فهناك عصور اتسمت بهامش كبير من حرية التعبير وأخرى ضاق فيها هذا الهامش إلى حد كبير.

وأنت تعلم كل وسائل التحايل والإيحاء والرموز والكتابة بين السطور و وهذا التحايل أفضل للأديب من أن يكذب أو يخون أمانة الكلمة بينه وبين القارئ، كما أن مثل هذا الأسلوب قد يبعد الأديب عن المباشرة التي يسقط فيها البعض حين يكون له الحرية الكاملة سواء بسبب اتساع هامش حرية التعبير أو لتوافق موقفه مع الموقف الرسمي لكن لديه في جميع الأحوال التزام بأن يقول كلمته وفق قناعاته وإلا فلا تصبح له قيمة ولا لما يكتبه، وخصوصا أن له مندوحة فإذا لم يكن على مستوى الصراحة ولا هو قادر على التحايل فليكتب فى موضوعات بعيدة تماماً عن أية شبهة سياسية.

إن الرسالة هي جزء من القيمة الفنية، ففي الفن المعنى والتعبير عنه لا ينفصلان عن بعضهما البعض لأن الشكل والمضمون لا ينفصلان فالشكل يؤثر في المضمون ، والمضمون يحدد الشكل وتلك هي الشخصية التي تميز الفن عن كل ما عداه.

غيبـــــة الوعي

تغيرات اجتماعية متلاحقة، بيئة اجتماعية كاملة تغيرت، التركيب الاجتماعي لم يعد كما كان، وظهرت أجيال لها طموحات وأشواق وأهداف جديدة، كان لابد لذلك كله من أن يترك أثره على رؤيتي

الاجتماعية، وأن تنعكس هذه المتغيرات على ما اكتبه. في الماضي كان هناك نوع من الاستقرار الشكلي . بالرغم من تغيير الحكومات ، والأخذ ببعض الإصلاحات . بعد الثورة لم نعرف الاستقرار: صراع مستمر على السلطة ، سلسلة متلاحقة من الإجراءات والقوانين، والسجون، والامتيازات، والحروب، والإصلاح الزراعي إلى تحديد الملكية بخمسين فداناً، ومن التمصير إلى التأميم، ومن الوحدة مع سوريا إلى الانفصال ، ومن عدوان السويس إلى هزيمة ١٩٦٧ إلى ، ومن التعليم المجاني إلى تمرد الطلاب فى ١٩٦٨، ومن التصنيع إلى السد العالي .

تغييرات تغييرات فى ١٨ سنة كأنها وقعت فى ١٨٠ سنة . وطبعاً نحن لسنا معزولين عن الدنيا التى راحت تتغير هى الأخرى من ستالين إلى خروشوف. ومن حرب فيتنام إلى ووترجيت، ومن تخمة الغرب إلى الجفاف والمجاعة والأوبئة فى العالم الثالث، ومن القنبلة الذرية إلى الثورة الالكترونية ومن الراديو إلى التليفزيون الملون . ثورة فى كل شيء لم نكن نستطيع أن نتجنبها. وقد تركت أثارها على عاداتنا وتقاليدنا وعلاقاتنا وقيمنا ، فكيف لا تنعكس على الكتابة؟

لقد احدثت هذه الثورة تاثيرا فى كتاباتى و غيرت الرؤيا كلها لانها اسقطت المجتمع الذى كنت ارفضه وانشات مجتمعا جديدا حققت فيه للشعب مكاسب وايجابيات ضخمة ، ولكن رافقت الثورة سلبيات كثيرة.

الثورة لم تحقق الديمقراطية على الرغم من انها فى نداءاتها ومبادئها الأولى كان اهم ما بشرت به هو نداء الديمقراطية و تحقيق الحرية ، ولذلك كل ما كتبته خلال الثورة مما اعتبره البعض معارضة للثورة لم يكن معارضة للثورة ولكنه كان بمثابة دعوة إلى الديقراطية و دفاع عنها .

المصيبة الوحيدة فى حكم عبد الناصر هى تاجيل ممارسة الديمقراطية(..) لقد طلب من المصريين اعتزال السياسة فتحول المصرى من كائن فعال منتم الى سلبى متفرج ،وحتى الان لانستطيع ان نضعه على مسرح الحياة السياسية ، وهذه مصيبة كبرى والاكثر من ذلك انه سلب من داخل المواطن شجاعته وإحساسه بالأمان، وهذا شىء فظيع ، وفى وسط هذا الكلام ظهر الفساد لان هناك من يستطيع ان يفسد وينتقد دون ان تصل المعلومات لمن يمكنه وقف هذا الفساد، حتى المشروعات الايجابية كانت تقررها مجموعة معينة وتكون مسئولة عن تنفيذها ، هذا التنفيذ يكون فى كثير من الأحيان خاطئا ، مثلا مجانية التعليم ، هل هناك شك انها ايجابية ، انها حق للمصريين لم يحصلوا عليه إلا من خلال الثورة ...ولكنها تقتضى برنامجا تخطيطيا طويل المدى يوفر مدارس مؤهلة و مدرسين وأدوات ،و يربط بين احتياجات المجتمع والتخصصات المتاحة ،وهذا لايتم بين يوم وليلة ، ولكن مع الاسف اصبح التعليم مثل الاتوبيس يحشر فيه الجميع ، وانتهت هذه الايجابية الكبرى الى ان تكون تجهيلا بمصروفات باهظة، وهذا بسبب غياب الديمقراطية.

فدور المصلح داخل مصر والذى لايدرى به احد لايتفق مع شخصية عبد الناصر . لو ان قدرات عبد الناصر ووقدراته وجهت الى التعليم و الزراعة والصناعة لتغييروجه الحياه فى مصر. لقد ابتدانا مع الصين .. فاين الصين واين مصر الان لو ان عبد الناصر اهتم بالداخل حتى بدون ديمقراطية لكانت مصر اكثر تقدما لو تقدم التعليم والصناعة والاقتصاد، تصبح الحرية ثمرة ونتيجة كانت الديمقراطية" هتيجى هتيجى" بدلا من الحروب والهزائم وقد ضحى الكثير فى سبيلها بارواحهم ،و لم تنقطع المظاهرات المطالبة بالديمقراطية ، واتذكر اننى قرات فى جريدة" التايمز " ان الالاف قد تظاهروا امام سراى الملك فى الاسكندرية ،مما اضطر الملك الى الابتعاد داخل البحر خوفا من اقتحام السراى.

كنا نتظاهر فى مواجهة الدبابات البريطانية ثم اصبحت الدبابات وطنية.وعندما اقيل محمد نجيب عام ١٩٥٤ اندلعت المظاهرات فى كل انحاء مصر تطالب بعودته. وبعد ذلك تلهى المصريين بلقمة العيش ثم انشغلوا بالصراع العربى الاسرائيلى. وقد جاء وقت علينا عاب فيه وعينا ،فما نراه فاسدا

ربما يكون بفعل التنويم فترة او شيئا عارضا ، لقد جاء على وقت "واقسم بالله العظيم"اعتقدت فيه اننا اصبحنا دولة عظمى ..كيف؟ من كثرة الدعاية ا،و الترويج الاعلامى والتاثير الخطابى،لكن ان يفقد الانسان المنطق ؟كيف ان دولة صغيرة مثلنا فقيرة اقتصاديا ومقوماتها محدودة تصبح "دولة عظمى" هذا ماحصل لوعينا فى فترة من الفترات.
فى الفترة من ١٩٥٢الى ١٩٦٧ و كنت فى الحالة التى قال عنها توفيق الحكيم حالة "غياب الوعى" احببت عبد الناصر وتصورت اننا دولة عظمى .
عددنا ليس صغيرا اى نستطيع ان نعمل "جيش كبير وقوى "ولدينا قوة ضاربة و مخيفة ندافع بها عن انفسنا ونحرر بها فلسطين و نصون بها كرامتنا و عزتنا وكنت اتسائل "يا اخوتى هل عظمة الدولة تاتىبهذه السهولة "كيف نبنى دولة بهذه السرعة".

يجب تاديبه

لقد منعت الثورة اشياء كثيرة لكنها منحت الادب نافذة كبيرة كى ينمو ويذدهر ونستطيع الان ان نراجع اعدادا كبيرة من المسرحيات والروايات التى صبت نقدها على الثورة ، ومع ذلك فقد فتحت لها باب النشر والانتشار لان عهد عبد الناصر لم يكن ابدا ثقيلا على الادب اوالفن بل كان مشجعا لهما الى ابعد الحدود. للادب مع السياسة قصة مثيرة فى عهد الثورة ،ذات تعاريج وارتفاعات و انخفاضات جرت مقاديرها بيد التخطيط تارة ،وبيد المناخ والظروف و الملابسات تارة اخرى ،وتعددت الاراء فيها تبعا للمواقف المختلفة والاهواء المتضاربة، ولعله لم يكن من الممكن استخلاص فكرة موضوعية عنها قبل ان يخطو التاريخ خطوة حاسمة و تصبح معالم طريقها الاساسية صالحة للمشاهدة عن بعد معقول ،فى مطلع الثورة وبعد ان تقرر مصيرها بيد الحكم المطلق ، واختفى من اجهزة الاعلام اى صوت معارض ، وقف الادب يتلمس طريقه المحفوف بالمخاطر بحذر شديد .و مضى الادب الحر يتحايل على التعبير من وراء اقنعة ورموز مؤثرا ذلك على الصمت ا والنفاق .ولا اعتقد ان سره خفى على السلطة و لا انها عجزت عن البطش به لو ارادت ، ولكن لعلها وجدت فى نقده المستمر محاسبة ذاتية لا رفضا لجوهر رسالتها او خصومة جزرية لها،او لعلها وجدت ان الدائرة التى تدور فيها الثقافة ضيقة محصورة لاتشكل خطرا حقيقيا،ولانها لا وزن لها فى توجيه الراى العام .او لعلها وجدت لسبب ما ان تخفف قبضتها عن الادب فتدعه متنفسا ينفع ولا يضر، بل وقد تستغله فى الدعاية ضد من يرمونها بالديكتاتورية،وخاصة فى الخارج.وايا ما كان الامر فقد تمتع الادب بحرية نسبية لم يتمتع بها صوت اخر،فدوى وسط الصمت الرهيب الشامل كانفجار مباغت لفت اليه انظار المكبوتين الملهوفين على كلمة صدق، او اشارة نقد، فهرعوا اليه من كل جانب ، وبذلك ضم الى جمهور قراءه الاصليين جما غفيرا من ضحايا السياسة والبطش ، اقبلوا ربما لاول مرة فى حياتهم على متابعة الروايات ومشاهدة المسرحيات بذهول وانفعال شديدين، متهامسين بمغزاها، متعزين بها عن صوت المعارضة المفقود والنضال الموءود.و بذلك الدور الاضافى الذى لعبه الادب تضخم حجمه الطبيعى و ترامت ابعاده ،واستفحل اثره فحقق نجاحا جماهيريا
لم يكن لياتى له بعضه لو ترك شانه.
ولقد نلت فى عهد عبد الناصر اكبر تقدير من الدولة على جميع المستويات من التكريم والاوسمة و الجوائز ولا اعتقد ان ثورة تمنح كاتبا كل هذا القدر من التقدير ثم تشعر انه خائن لمبادئها.
"ميرامار" تعرية للتسيب ولذلك اعتبرت نذيرا للهزيمة."ثرثرة فوق النيل " عزلة المثقفين والشعب عن المسئولية. "الحب تحت المطر" التناقض الحار بين حارة و مدينة غارقة فى الياس.

الكرنك: جهاز الرعب يقتلع روح ابناء الثورة.
شهر العسل: وجوب التغيير الجذرى"، والحقيقة اقول انه رغم نقدى لهذه السلبيات فلقد كنت اتمتع ككاتب بحريتى" فى كل الاوقات وفى كل العصور فانا اثناء الكتابة حر مائة فى المائةولم يحدث قط ان تنازلت عن حريتى عندما اكتب يركبنى عفريت الكتابة ولا استطيع منع نفسى ابدا من الرغى فيما ارغب فى كتابته. بعد النشر حين اسمع بعض التعليقات اشعر بالخوف.
انا عادة اكتب فى حرية تامة سواء فى عصر فؤاد الذى نسيته او فاروق او عصر الثورة ، والمشكلة تاتى عند النشر فكان وراء كل نشر ترقب ، انما من الواقعية ان اقول لك : اننى كنت اتاثر بالجو رغم رغبتى عير المحدودة فى التمتع بالحرية، يعنى مثلا الروايات التى كتبتها قبل الثورة هاجمت المجتمع و"عريته" كثيرا لكن فى حدود اقف عندها ، يعنى لااستطيع ان اهاجم هجوما صريحا البيت المالك،ان كنت من غير ان اشعر الاحظ اشياء . كذلك وانا اكتب الثلاثيةوقد كتبت قبل الثورة وتجد انه رغم ان ثورة ١٩١٩ وسعد زغلول هاجموا الملك انما كان ايضا فى حدود الاحترام والقانون، مما لايمكننى تجاوزه ، فلا استطيع مثلا ان استخدم الاساليب والالفاظ التى من الممكن ان تكتب عن البيت المالك بعد ثورة يوليو .ان كنت اكتب بحرية تامة ولكن لاشعوريا اقف عند حدود معينة ، كذلك فى نقدى بعد الثورة كان لى موئضوعات اعتبرها البعض جريئة واعتبرها الاخرون جنونية .
بعض الذى كتبته فى عهد عبد الناصر دفع بى الى حافة الهاوية ولكن ربنا سلم "

"ثرثرة فوق النيل"

تحدثت عن عزلة الشعب عن نظام الحكم ، وان الحكومة تقوم بكل شىء وكان الشعب لا وجود له ، والحقيقة ان الكلام كان ياتى على لسان حشاشين ، ولكن الحيلة لم تنكل على البعض فذهبوا الى جمال عبد الناصر و حاولوا اثارته".
علمت ان عبد الحكيم عامر قال عنى : لقد تجاوز الحد ، ويجب تاديبه . ولا أتذكر من الذي أنهى الى الخبر . ولكنه ليس هيكل لانه لم يكن يحب ان يخيفنى ،وحين كان يعرف أمرا كهذا لم يكن ينقله لى.
اخبرنى احد معارف د.حسن صبرى الخولى(...) صديق مشترك من شلة العباسية ان قرارا قد صدر باعتقالى وان تدخلا جرى عند عبد الناصر شخصيا ، و تدخل عبد الناصر ليوقف الاجراء. كانت وجهة نظر ثروت عكاشة انه لايليق بروائى بسبب رواية ومن قبل من؟ من قبل عبد الناصر ؟"
ثروت عكاشة كان يستعد للسفر الى اوروبا حين ساله عبد الناصر: هل قرات ثرثرة فوق النيل ؟فاجابه :لا ليس بعد : فقال له عبد الناصر : اقراها و قل لى رايك لذلك اخذها معه ثروت عكاشة وقراها وفهم سبب سؤال عبد الناصر ، وكان سؤالا غاضبا ، وقد خشى ثروت ان يصيبنى ضرر ولو بسيط كالاحالة الى التقاعد او نقلى الى مكان اخر ، لذلك قابل عبد الناصر حين عاد و قال له يا سيادة الرئيس اصارحك بأنه اذا لم يحصل الفن على هذا القدر من الحرية لن يكون فنا . قال له عبد الناصر بهدوء. وهو كذلك ، اعتبر الامر منتهيا".

الخوف

عبد الناصر عندما زار جريدة الاهرام فى عام ١٩٦٩ سالنى ما اذا كنت اكتب شيئا عن السيدة ، واجبته ضاحكا : بل عن سيدنا الحسين . فقال له : لم نقرا لك شيئا منذ اسابيع . قلت والله ياريس غدا تنشر لى قصة – وكان اليوم خميس والغد هو الجمعة يوم الملحق الادبى – فعلق هيكل : انها قصة ترسل صاحبها الى الجنايات . فوجه عبد الناصر الحديث ضاحكا "بل ترسلك انت"يومها صافح عبد

الناصر صلاح جاهين متعجبا من ضخامة حجمه ، وساله ان كان السبب فى ذلك هو تناول لحمة الراس.

فلقد اعترفت بكل الايجابيات و لم ارحم السلبيات ، ولااظن ان هناك انسانا منصفاينكر سلبيات هذا العصر اما عن الرمز او ما يسميه البعض بالغموض الذى الجا اليه فى اعمالى يصاحب موضوعات لايسمح بنشرها ولا مناقشتها ، و اعطيك مثالا : ففى" ميرامار"، وجهت اكبر نقض للانتهازيه ممثلة فى بعض اعضاء الاتحاد الاشتراكى فى فترة الناصرية، ولكن قصة مثل" روبابيكيا " فلقد كانت ضد المخابرات كجهاز فعل فعله فى هذه الفترة ،فكان من المستحيل ان تكتب بنفس الاسلوب ، وهذا ما حدث ايضا فى قصة سائق القطار التى كانت موجهة اساسا ضد الاستبداد " حاول بعض الشانئين ومن فى قلوبهم مرض ان يوقعا بينى وبين نظام الحكم ،فاشاعوا ان المقصود بسائق القطار ، هو جمال عبد الناصر شخصيا.فهب فريد ابو حديد، للدفاع عنى وانقاذى من وشايات كتبة التقارير السرية، وخصص افتتاحية مجلة "الثقافة" عن قصتى ، وعن مغزاها الانسانى ،ورفض تفسيرها الضيق الذى حصرها فى شخص عبد الناصر ،ورأى انه الانسان وما يحيط به من معضلات وتحديات.

وقد شرفنى الاستاذ فريد ابو حديد بحضوره ندوة الاوبرا "فقد كان لطيفا ...صاحب حضور وبديهة، او قل :كانانسانا بمعنى الكلمة تتلمذت على يديه حقيقة لا مجازا، فهو كاتب عملاق يكفى ان تلقى نظرة الى رواياته لتدرك ابعاد ما رميت اليه :"ابنة المملوك"، "ابن الشعب" "ابو الفوارس" ،"الوعاء المرمرى" الخ .وله فضل على لا استطيع ان اجحده او انكره ". و من هنا يصبح الرمز ضرورة فنية بحتة عندما يمليه طبيعة الموضوع ، مثل موضوعات التصوف والفلسفة وغيرها"

فاما انها كانت قصصا مرحلية تعد جزءا من النشاط السياسى ، واما ان يكون فيها شىء يستمر بعد انصرام الموقف و المناسبة ،وهذا تستطيع ان تحكم عليه بنفسك عندما تقرا هذه القصص الان .واحدى هذه القصص وهى قصة "الخوف " احدثت له مشاكل جمة فى حياتى وجرت على المتاعب .وتندهش اذا قلت لك : انها قصة واقعية ..فقد كان ضابط اسمه "أبو زيد " ادب فتوات الحسينية بهذا الشكل الذى صورته القصة ، ويعرفه اهل العباسية جميعا .وكان الامر فى حاجه الى بعض التنويع فى الاحداث بحيث ينطبق هذا الضابط الواقعى مع الضابط الذى جاء يلعب نفس الدور فى حياتنا. لكن ايمكن ان تقرا هذه القصة بعيدا عن هذا الرمز؟ نعم لانها تناقش مشكلة الثورة على السلطة المستبدة ثم ما ان يجلس الثائر على الكرسى حتى يتحول الى تقمص الاستبداد الذى ثار عليه ، انها تتحدث عن طبيعة انسانية ،وتكشف نوعا من الثوار هم فى اعماقهم مستبدون كالذين يحاربونهم .

ان لدى استعدادا لان اكتب قصة من هذا النوع لراى احترمه ولظرف سياسية امارس دورى فبها حتىلو قدر لهذه القصة ان تموت فور انتهاء المناسبة التى كتبت عنها ومن اجلها.

لقد اردت فعلا بهذا الكلام ان اجدد وظيفة الفن لان هناك من يقول بان الفن للخلود ، اى انه يتناول الامور الخالدة ، اما انا فاقول الخالدة واليومية، فللفن دور فى خدمة المجتمع يؤديه كيفما يتراءى له وبالوسائل التى تساعده على اداء هذه الخدمة.لنفرض اننا الان فى ثورة ،واننى لا أستطيع ان اساهم فيها الا بقصة لن تدوم فعاليتها اكثر من اسبوع،فاننى اكتبها لا اهتم بموتها بعد ذلك طالما انها ادت وظيفتها ،وهى حين تؤدى هذه الوظيفة فانها لا تموت ".

الكرنك

كنت مؤمنا باننى اذا لم اكتبها ،فان جزءا كبيرا من التاريخ الذى عاشته مصر سيختفى ولم اكن اتصور ان المناخ سيتغير بهذه السرعة بحيث يتاح لكل من دخل السجن او اعتقل ان يسجل تجربته السياسية فى كتاب مثل مصطفى امين او غيره ، ولو اننى انتظرت حتى ظهرت هذه السلسة من الكتب السياسية التى تسجل معاناة الشعب فى فترة الكبت والاعتداء على الحريات

لما كتبت رواية الكرنك ... والدافع الحقيقى وراء كتابتها انه كانت هناك تجربهشخصيه مريرة لاصدقاء لى كانت ستضيع عن عين التاريخ، وكانت هذه التجربة القاسية نحتاج فى تسجيلها الى شخص عنده قدر من الشجاعة ليكتبها... وانا شخصيا لى ظروف اجتماعية تجعلنى اقل تعرضا للخطر من غيرى ،وهذا هو الذى دفعنى الى كتابة رواية" الكرنك" كتعبير روائى عن تجربة المخابرات فى حياتنا فى مرحلة معينة وهذه الضرورة السياسية والتاريخية هى التى دفعتنى للكتابة عن عالم اسطورى اجهله وهو دنيا المخابرات.

بالتاكيد و"الكرنك " تختلف عن" روبابيكيا " فى "روبابيكيا" كتبت عن المخابرات ولكن احدا لايستطيع ان يمسك شخصيات بعينها ويقول: هذه هى المخابرات،بينما فى "الكرنك" نرى ونسمع ونلمس مدير السجن الحربى برسمه وشخصه. الفرق هو ان المناخ السياسى قد سمح بذلك"..

كنت اجلس مع الشباب فلا ينطقون ، وكانهم مامورون بالصمت وبالا يفتحوا افواههم،وكنت لا اسالهم ذوقيا وانسانيا حتى واتتنى الفرصة مع من تكلم ،فكتبت "الكرنك " ،للتاريخ وعذبتنى بها الرقابة ،وحذفت من الرواية المكتوبة مثل المعجم الذى نشر"..

والغريبة اننى قد قدمت هذه الرواية للاهرام ،فرفض نشرها .رفضها احمد بهاء الذى كان رئيسا للتحرير ، وهو نفسه الذى رشحها للنشر عند كمال ابو المجد(وزيرالشباب) فقررت ان انشرها فى كتاب ...وفد لاقيت الامرين من التردد على مكتب القيب فى هذه الفترة حتى اعتقدت حقيقة ان عهد السادات ماهو الا استمرار لعهد عبد الناصر ،فقد كان يحاسبنى على الكلمة والفصلة ويطلب الحذف والتتغيير فى مواقف كثيرة حتى صارت بيننا فى النهاية صداقة متينة من كثرة ترددى علية.

ولم تكد تمر ستة شهور على نشر الرواية حتى انفتح السيل على عهد عبد الناصر بكتابات مباشرة من اصحاب التجربة انفسهم يحكون عما صادفوه فى المعتقلات ولو اعرف ان هذا سيحدث او لو كنت تاخرت قليلا فى كتابة الكرنك ما كتبتها على

الاطلاق لانها كانت ستصبح بلا داع . ولما جاءت هذه الموجة ندمت على كل المجهود والتعب والعذاب الذى بذلته فى هذه الرواية ،خصوصا انها تسببت فى هجوم وسباب شديدين كنت انا فى غنى عنها مادام اصحاب الشان تكلموا ،وعموما بعد ما انفتح هذا السيل فى الهجوم على عهد عبد الناصر،تاكدنا جميعا انه قد حدث تغيير فى السياسة ،وان عهد السادات ليس استمرارا لعهد عبد الناصر" طبعا لم تكن الحملة ضد الناصرية بدات ،كنت اكتب بمعزل اى شىء سوى ضميرى وما اقتنع بصحته ،وكانت صورة النظام هى الصورة الناصرية ،ولكن الموقف تغير بعد قليل ولم تكن له اى علاقة من قريب او من بعيد بهذا التغيير ولا شان له باية حملات شنت بعدئذ. لقد قلت ما كنت اقوله فى ظلل عبد الناصر لو كان حيا .وفى حياته كتبت ما اريد بكل ما املك من ادوات التعبير . ولكن ماذا افعل وقد فوجئت به بعد شهور قليله ان كتبا تغزو السوق ضد الناصرية."الكرنك"ليس ضد عبد الناصر بل ضد من كان عبد الناصر ،ضدهم فما العيب فى مهاجمة هذه السلبيات لم اكن ضد اى شىء فى عهد عبد الناصر الا عدم وجود الديمقراطية السياسية وهى كفكر موجود فى ثورة يوليو المبدا السادس من مبادئها ولكنها كانت مؤجلة ".

وما ان تذكرت حكاية الحب تحت المطر وكيف كان للثلاثية اصول " اعترض عليها دكتور لويس عوض المستشار الثقافى للاهرام اعترض عليها فعلا الاستاذ احمد بهاء الدين وكان رئيسا لتحرير الاهرام اخبرنى(..) ان الرواية تتناول الجيش والمجندين الذين لايهتم بهم احد وبالتالى فهى تتدخل فى امور من شانها الاضراربنا جميعا ،ثم همس فى اذنى قائلا :انت عارف انتشار الاهرام وخطورة النشر فى الاهرام ،فبلاش من فضلك فاخذتها –الرواية-ونشرتها فى مجلة الشباب لقد خذفوا الجزء الخاص بالجبهة كاملا ،وكدت انا نفسى احجم عن نشر الرواية لولا ان الناشر طالبنى فى هذه الحال بدفع اجرة المطبعة ،وجد نفسه امام احد امرين :اما ان يطيع اوامر الرقيب او يخسر ثمن "الصنف" وهو لن يخسره طبعا ،وانما انا الذى ساعوضه ،لذلك قبلت ان يصدر الكتار مراقبا، فلم اكن استطيع ان ادفع

التعويض .كان النظام مراقبة الكتاب بعد طبعه ،و بالتالى فمن لايلتزم بتعليمات الرقابة بالنص المخطوط تقع المسئولية القانونية والخسارة المادية معا.
واصبحت الرواية المنشورة كانها طائر كسير الجناح ليس له سوى جناح واحد، فلم نعرف حياة المجند حتى نبرر السخط واغضب.

سالوالنبى

انا لاانكر ان ثورة ٢٣ يوليو حققت نهضة صناعية وزراعية وثقافية ولكنها للاسف خاضت عدة حروب انهكت الاقتصاد المصرى ولا زالت مصر تجاهد حتى الان لهذا السبب." وانا اعترف ان اكبر نصير للفقراء فى تاريخنا كله كان جمال عبد الناصروهذا المعيار كان فى ذهنى فكنت افرح واؤيد كل حاجة يعملها وكنت متحمسا انحيازه للفقراء يحسب له فى التاريخ، واغفاله الديمقراطية يحسب عليه ،انحيازه للفقراء هو ضيعه بتطلعه الى الخارج... خارج حدوده انا كنت عاوز حاكم يهتم بالداخل ،بالشعب الجعان ..الحافى ،ويحسن علاقته بالعالم كله ولا اية مغامرة تضر بالتنمية الداخلية للبلد.وهذا ما عبرت عنه ب" على قد لحافك مد رجليك"انا لم اوجه اى لوم لعبد الناصر او للثورة فى مساندتها لاخوانها العرب ما انتقدته كان الأسلوب الحماسي فى السياسة الخارجية ،يعنى تحول عبد الناصر لفارس مغوار ومحرر عالمى ...هذا حقق مجدا شخصيا ،لكن مصر خسرت الفرصة انا ضد سياسة استفزاز الدول الكبرى لان السبب الاول لمجىء يوليو ومجىء عبد الناصر هو سوء اوضاع الشعب.
اذن المهمة الاساسية لثورة يوليو كانتتحسين حال الشعب الممزق ،وان انا ادخله مرحلة حضارية جديدة العرب بيحبوا يعملوا وحدة اقتصادية،ثقافية.. هذا هو المدخل االذى لابد منه والا هيضيعوا فى العالم الجديد ".
السياسة اساسها فى نظرى المصلحة المشتركة بمعناها العام .... والسؤال المطروح هو:اين مصلحة مصر ؟انا اجد انه بيني وبين العرب تاريخا مشتركا وثقافة مشتركة ولغة مشتركة .من لا يستفيد من هذه الإمكانيات يكون أحمق بصرف النظر عن الدم الذى يجرى فى العروق وعندما سالوا النبى صلى الله عليه وسلم عمن يكون العربي ؟ قال الذى يتكلم اللغة العربية.ولم يقل بنى حمدان او بنى غسان افرض- وهذا فرض جدلى غير واقعى-اننى وجدت مصلحتي فى عمل اتحاد مع أفريقيا او مع البحر الأبيض... لماذا لا افعله؟ مع أنني فى الواقع احاول الاتحاد مع العرب ما معنى الهوية ؟ هل تخرج الهوية عن الثقافة ونحن ثقافتنا عربية واحدة .لكن المهم ان نركز على ما يوحد ولا يفرق وان نكون بعيدي النظر ،فهناك مصلحة اقتصادية مشتركة ، وهناك مصلحة ثقافية مشتركة ، المفروض ان توحد ...اذا بدأنا بالمصلحة السياسية سنختلف. الوحدة الألمانية جاءت بإلغاء الجمارك ،والتجارة... أي انك لو بدأت بالوحدة الثقافية والاقتصادية تجئ الوحدة السياسية ثمرة لذلك لكن اذا بدأت بالوحدة السياسية فسيحدث كما حدث".

اخر صدمة

فى عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر كنت اعزى نفسى أحيانا عن غياب الحرية بوجود ثورة عدالة اجتماعية ،لكن الزمن اثبت ان هذا المنطق غير سليم لان تجاهل الديمقراطية والتخلى عن الحرية ضيع علينا المكاسب الاشتراكية نفسها وبعض الإنجازات الاجتماعية".

عبد الناصر عندما تجاوز مجلس الثورة وجد الجماهير معه ولكنه اساء معاملتها ولم يعطها حق الانتخاب... وهذه غلطة فى لحظة كنت مع عبد الناصر مائة فى المائة لكن الشى الناقص كنت حاسس بـه من الأول –كيف يحكم هذا الرجل –بديكتاتورية با لاضافة الى ما كنت اسمعه عن المخابرات ...اسماعيل صدقى او الملك فؤاد كانوا –يفعلونها لان الناس بتكرههم، انت الناس بتعبدك. ثم ان الاديب ينتعش اكثر فى اجواء الحرية و الديمقراطية والدليل على ذلك

روسيا قبل الثورة الشيوعية . ظهر فيها اعظم ادباء فى التاريخ كله:تولستوى،دوستوفكى،وتشيكوف."محمد على"عمل اساس عظمة مصر ولولا تاييد الشعب استطاع ان يحقق شيئا من منجزاته .ولكن لانه لم يستطيع تقدير الموقف الدولى تراجع و انحسر داخل حدوده. بعده جاء" عباس "و لانه حاكم جاهل فكان من رايه ان الشعب المتعلم يتعذر حكمه فاغلق المدارس.

الخديوى اسماعيل اراد ان يجعل من مصر قطعة من اوروبا . ونفذ اشياء غاية فى الروعة،ولكن كان فيه شيئ من السفه فاستطاع الاجانب ان يضحكوا عليه ويستدين منهم،فاضطر ان يترك الحكم ومصر مثقلة بالديون ووقعت مصر تحت الاحتلال الانجليزى. ثم جاءت ثورة ١٩ قبلها لم يكن احد يتصور ، لا من الشعب ةلا من السياسيين ، سواء كان "محمد فريد " او" سعد زغلول " اى حركة من الشعب .ولكن ما حدث ان زعيما وقف موقفا شجاعا خرج وعارف ومتاكد انه لن يرجع الى مصر مرة اخرى .ليس وراءه اى سند او قوة .لدرجة ان محمد فريد قال يائسا :هم المصريين يصوروا ؟ وفجاة قام الشعب كله من اسكندرية حتى اسوان فى اول ثورة شعبية عرفتها مصر .الغت الحماية وطالبت بالحكم الدستوري واصبح الافندية وزراء . ولكن الملك والإنجليز عرقلوا النهضة وبدل ما نبنى نتخانق . ثم قامت ثورة يوليو ٥٢ فقضت تماما على الأسرة الملكية والطبقة التركية ، أصبحت مصر فى ايدى ابنائها لاول مرة .ولذلك عندما تذهب الى الريف تجد الفلاح متعلما ويتكلم فى السياسة . وهذا تقدم خطير لم يحدث من ايام الفراعنة ولكن اكبر مأساة فى ثورة يوليو ان الشعب لم يقم بها او يشارك فيها .لاشك ان نوايا الثورة حسنة ، وتركت بصماتها على دول كثيرة فى اسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . ولكن فوق إمكاناتنا، فكانت النتيجة بدلا من ان نهتم بالشعب ونطور أنفسنا عادينا الدول الكبرى وانهزمنا.

الى هذا الحد ان النصر بفضل الدعاية واننا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الاوسط.

مشكلة الراى الواحد انه حتى لوكنت عبقريا فهذا لن يعفيك من الخطا .نابليون بكل عظمته وعبقريته العسكرية بقرار واحد خاطىء راح فى داهية وعندما قرات مذكرات "رونشتيد" رئيس أركان حرب هتلر قال بصريح العبارة :انه يوم ما اعلن هتلر الحرب على روسيا تأكدت اننا خسرنا الحرب نهائيا.وشرحها فى منتهى البساطة انه عندما ينتشر الجيش الالمانى على الحدود الروسية الشاسعة سوف يصبح خطا رفيعا اى عصابة يمكن ان تخترقه.وهذا ما حدث بالفعل."

هناك فرق بين من يذكر عيوب الثورة ومن يرفضها انا لم ارفض الثورة ولم انتقض ايجابيه واحدة للثورة، انتقادي لها كان بسبب ازمة الحرية وغياب الحرية . حتى حرب اليمن لم يمكن ان تنتقضها او تعارضها بعد ان تورطنا فيها ."

كان من المفروض ان يتخذ قرارها من خلال البرلمان والتداول والتشاور واحد على الاقل كان يمكن يقول :لماذا تريدون الذهاب ؟وهل تعرفون اين انتم ذاهبون ؟

لقد فهم عبد الناصر بعد هذا انه تورط فى هذه الحرب ، ولكن كرامته الشخصية دفعته للاستمرار وضاعت اموالنا فى اليم. عندما ذهبنا الى اليمن اطلعنا رجال المخابرات على الحقيقة". انا رايح وفاهم ان الحرب انتهت ،مجازفة ونجحت ...هناك عرفنا ان معلوماتنا ليس لها اساس ، قعدوا معنا ضباط المخابرات المصريين فى "تعز" وفهمنا منهم ان الحرب لايمكن ان تنتهى لان اليمن مستحيل غزوها ، وقرار الحرب مبنى على الجهل بطبيعتها الجغرافية ".انزعجنا بشدة ، وقد سجلت رايى

بضرورة الانسحاب ". ثورة قامت تؤيدها بالسلاح... بالتطوع ،لكن لانتورط ونبعث باحسن فرق جيشنا على الاقل عندما نكون فى مواجهة مع اسرائيل انا اول ما سمعت ان جيشنا راح اليمن قلت حقيقى (نحن) اقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط، وهذا هو الدليل ولابد ان عندنا ما يكفى لمواجهة اسرائيل "

وقد شاهدت الاستعراض العسكري فى ١٤ مايو ١٩٦٧ واستمعت الى وقائع المؤتمر الصحفي الشهير لعبد الناصرالذى قال فيه جملته الشهيرة "انا مش خرع ذى ايدن"

كنت أحس "بالعظمة و القوة" لدرجة انه فى يوم ٤ يونية قبل الحرب بيوم لم اكن ابدا خائف من إسرائيل، فقد كنت اعتقد وكان الجميع فى مصر كذلك مثلى فيما اعتقد يتصورون مثلا اننا سندخل تل ابيب خلال ساعات لكن اذا جاء لنا انذار أمريكا فى نعمل ايه ؟كان كل تفكيري فى أمريكا وليس إسرائيل"الى هذا الحد كنت واثقا فى النصر بفضل الدعاية واننا اقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط".

فى يوم ٤ يونية كنا فى نادى القصة ، وكل واحد يقول "الحرب الحرب . كنت اعتقد ان جيشنا لايقهر" حتى كانت الخبطة التى افاقتنى يوم ٥ يونية ولكن حتى يوم ٩ يونية الذى القى فيه عبد الناصر خطاب التنحى ،كنت اتوقع اننا سنفاجىء العالم بهجوم جديد. وادركت ان الثورة عيشتنا فى الاحلام حتى كانت الخيبة القوية".

فى هذه الفترة كان الواحد حدث له شيء يشبه التنويم لماذا؟ لاادرى.

كانت غلطة بالتأكيد أننا نستسلم لتأثير التنويم الذى حدث ،وكان لابد ان نسال أنفسنا وقد كان هناك فسادا امتد الى معظم الأجهزة فى حياتنا . أذن لماذا كنا نتصور اننا عندنا القدرة على هزيمة إسرائيل لماذا لم نفقد ثقتنا فى الجيش؟ ربما لان الجيش هو الذى قاد الثورة (حتى) كانت الكارثة والطامة الكبرى كان وقعا رهيبا دخلت جميع خلايا جسدي ولم تخرج منه حتى الآن"

آخر صدمة لي يوم ٥ يونيو كنت أمشي اكلم نفسي فى الشارع"قلت في نفسي: سيكون أمرا مأساويا أن أموت بعد هذا التاريخ بفترة بسيطة، ألم يكن من الأفضل أن أموت قبل أن أري هذا اليوم لأنها لم تكن مجرد هزيمة إنما كانت ضربة مجهضه لهرم من الأحلام والأماني) كانت طعنة كبيرة) وقتها عقل الواحد كان أتشل كانت فترة مضطربة قبل أن أستعيد توازني) وذات مرة صورت حالي في قصة قصيرة من خلال شخص في حلاوان جالس في المحطة غفل وكان يحب فتاه يراها كل يوم في المترو وصحا من غفلته على (زيطة) ووجد فتاته مقتولة لأي أسباب قتلت ؟ لايعرف .. هذا كان حالنا

أثرت ٥ يونيو في المصريين تأثيراً خطيراً وسأعطي لك مثلاً : فقد كان لي صاحب لا مبدأ له ولا يؤمن بشئ ومن المستهترين شاهدت بنفسي بكائه بعد ٥ يونيو واستغربت : حيف يبكي هذا؟ كنت أحسب أن أي شيء يحدث لمصر لا يؤثر فيه وذهلت وقد كانت جلساتنا في (الحرافيش) منذ أن نبدأ وحتى نرجع لبيوتنا ، القفص الصدري مطبق من الضحك ، فأصبحت الجلسات كلها كلاما ، والضحك قليل جداً حقيقي إن المصريين ولو كانوا غير مبالين ، لهم كرامة وطنية كامنة وغريبة جداً) تغلبت على الهزيمة بالاستمرار في الكتابة)

يحدث لي حالة من الهياج للكتابة وأشعر برغبة شديدة في ممارسة الإبداع لكن لا أجد عندي أي موضوع) (كنت وقتها رئيس لمؤسسة السينما) فهاجمنا النقاد بسبب ظهور أفلام مضحكة بعد هزيمة ١٩٦٧ ونعم لا يعلمون أن هذه الأفلام كانت جاهزة للعرض قبل سنة حتى طلب منا رئيس الوزراء أن نقدم أفلاما تصب نقوداً في خزينة البلد الحربية حاولنا أن ندافع عن أنفسنا ولكن بلا جدوى كان موقفا سيئاً

وقاد الشيعيون الهجوم ضد مؤسسة السينما رغم أن الذي كان يديرها شيوعيون فعندما استعانوا ببعض الشيوعيين لإدارة المؤسسة ، انتهز البعض الأخر من الشيعيين الذين لم تتم الاستعانة بهم الفرصة هاجموهم)

انفكت عقدته

قبل أن نتحدث عن أثر هذه الهزيمة في الأدب يجب أن نتذكر أثرها في النفوس لاشك أنه كان صدمة عنيفة وعدم تصديق وعدم معقولية وذهول ومرارة وسخط على كل شيء وحين تتأمل هذه الصفات ثم تتطلع إلى الأدب الذي أنتم بعد ١٩٦٧ تجد أنه إما أدب ذاهل أو غير معقول أو عابث وهذا شئ (بيت أبي علاء المعري . إن حزناً ساعة الموت أضعاف سور في ساعة الميلاد.. عندما ترزق بولد تفرح .. ويمكن في نفس اليوم تنسى الموضوع وتنشغل في شيء أخر.. إنما إذا الولد شوف حزن الأب يستمر إلى أي مدى .. الأحزان تتحدى كل قوى الإنسان.. حتى يتغلب عليها .. أما الأفراح فتذهب... وتجعل الإنسان يجلد إلى السكينة والاستقرار .. النكسة عندما خلقت أدباً وفناً.. أياً كانت درجتي) (والذين يهاجمون هذا الأدب ويعتبرونه انهزاميا عاجزاً ، ويقولون أنه ساعد على نشر التشاؤم والاستسلام) هؤلاء أما مجانين أو مغفلون ، شأنهم شأن من يطلب من أهل الميت أن يرقصوا ويغنوا ويزغردوا في الجنازة على اعتبار أن كل شئ مصيره إلى النسيان ، وأننا ينبغي أن نتجاوز الإحزان !

وأحب أن أقول لك أن تصوير اللون الأسود ليس معناه الدعوة للسلبية ، فالعمل الفني شئ وأثره في النفس شئ أخر ...فقد يكون الأدب في غاية السواد والتشاؤم ولكنه يدعو إلى تجاوز أسباب السواد والتشاؤم وما حدث للأدب العربي بعد هزيمة ١٩٦٧ حدث له عقب كل هزيمة تعرضت لها الأمة العربية فعقب غزوات التتار والمغول سادت الشمر موجة من القصائد السواد والمتشائمة ..وهذا أمر طبيعي فحينما تفرح يفرح ..

أما الأحلام الساذج عن المستقبل والأمل والنصر المرتقب فلم يكن ليفيد أحداً ولكنه أحسن غطاء يمكن أن يتدثر به المسئولون عن الهزيمة البشعة التي حدثت وليس هذا من عمل الأدب ! (.. .)

طبيعي.. وحتى بعد فترة من خلال هذا الذهول واللامعقول ظهر نوع من المقاومة والرغبة في تجاوز الهزيمة)أنت تقول أن أدبنا لم ينحرف إلى الرمزية والتعبيرية والعبيثة بشكل يمثل ظاهرة إلا في فترات المتأزمات ومصادرة الحريات وبصفة خاصة في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ... وهذا صحيح بالنسبة لكتاباتي أنا .. فالظروف التي مررنا بها خلال تلك السنوات أثرت في نظرتي الواقعية الواضحة ، وأحدثت فيها ما أحدثت من اضطراب .. سميه بما تشاء من أسماء وهذا واضح في مجموعتي القصصية : " خمارة القط الأسود " ، " تحت المظلة " ، " بلا بداية ولا نهاية " و " شهر العسل "

لقد توقفت أكثر من خمس سنوات عن الكتابة في بداية الثورة حين ماتت ، هنا العكس ، فالانفعال بالكتابة موجود والرغبة فيها قوية ، لكن ليست هناك موضوعات . بعد الهزيمة لم يكن ثمة موضوع واحد للكتابة كمن يرغب في الرقص وليست هناك الموسيقى الراقصة .

أكرر لك أن المسألة باختصار هي أن اللسان الجماعي للشعب انفكت عقدته بعد الهزيمة : كلام . كلام .كلام كثير جدا وفي هذه القصص كنت أتكلم أو وجدتني أتكلم لذلك تغلب الحوار على السرد وكتبت الحورات أو المسرحيات ذات الفصل الواحد . فعلاً مارست الكتابة للمرة الأولى في حياتي وليس في رأس أي فكرة ولا أي موضوع وكنت أنتهي من الكتابة فإذا بالناس تقول إنها ذات فكرة وذات موضوع ليكن ولكن لم أكتب عبثاً بالمعنى المعروف للعبث لعلي كنت واقعياً فالواقع كان عبثا لو صح

وكانت أعمالي يغلب عليها الغموض في هذه الفترة فربما تفسير ذلك يرجع إلى أحداث هذه الفترة التي كانت غير معقولة بدرجه كبيرة فاللامعقولية ظهرت في كثير من القصص ولجأ الكاتب إلى الرمز أحياناً ، وأعترف أنني سقط في العبث لدقائق بعد هزيمة يونيو ٦٧ (....) وعلى أية حال فإن فننا في هذه الفترة كان فناً إعلاميا سريع الطلقات وفي النهاية كانت العوامل النفسية وطبيعية المرحلة تدفع لهذا النوع من الكتابة ، لقد كانت مرحلة مظلمة وتطيناها والجديد (...) كل ما جاء بعد هزيمة يونيو وحتى نصر العاشر من رمضان كان من وحي النكسة "
(تأثر بها أدبياً) في المرايا والكرنك . الكرنك " كانت مريرة " أي إنسان من الممكن أن يفقد عقله في لحظات .. ولكن حتى هذه القصص يمكن أن تخرج منها بمعني (...) تحت المظلة يمكنك أن تعتبرها قصة واقعية فوتوغرافية ... تبدأ القصة بصورة حرامي يجري " والناس تجرى وراءه ، وبعد ذلك يجدونه واقفاً وهو يرقص والناس تصفق له .. هذه واقعية " مهما بدا الشكل مفككاً وغامضاً يبدو أنني لم أستسلم لهذا العبث بل وصورته وكلي رغبة في تجاوزه و هذا هو الفرق بيني وبين الشباب أصحاب الرؤية العبثية أعمال عبثية ؟ لقد تعرضت كلها لمصادرة الرقابة لأسباب سياسية وتأجل نشر بعضها وحذفت أجزاء من بعضها الأخر .. فهل تتصور أن تصادر الرقابة السياسية أعمالاً لا معني لها "

مظاهرات الطلبة

كانت تلك مرحلة أصبنا فيها على المستوى السياسي بيأس شديد وبخيبة أمل لم تكن متوقعة بأي حال من الأحوال ، فقد كنا معتمدين على قوتنا ، وعلى قوميتنا ،وعلى مذهب اشتراكي جعلنا على صداقة وثيقة بثاني أكبر أمم العالم وكان ذلك يشكل منظومة معرفية اهتزت بشدة بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وظهر أن تلك القناعات التي عشنا عليها سنوات لم تنفعنا حين وضعت في الاختبار وهكذا تغيرت معرفتنا بهذه القناعات الثلاثة .
حيث أتضح أن القوة التي كنا نتصور وجودها بأعتبارها أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط غير موجودة وإيماننا بالقومية العربية لم ينجدنا في محنتنا . أما الاتحاد السوفيتي فقد اكتشفنا أنه هو أيضاً يهاب مثلنا . لقد كانت المرحلة مرحلة مراجعة لمعارفنا الأساسية في ظل الحقائق التي تبدت أمامنا واضحة وضوحاً مخيفاً ، وقد بدأ يحل عندي بعد ذلك محل القومية بمفهوم أخر حديث أكثر عملية وبراجماتي يعتمد على تحقيق المصالح المشتركة بين الأقطار العربية متخنق من رباط اللغة المشتركة والثقافة والدين وسيلة فعالة لتحقيق ذلك .
والقوة التي تهاوت أوهامها أمامنا جعلتني أومن أكثر بالسلام كوسيلة أكيدة فقد أصبحت أومن منذ ذلك الوقت وقبل أن يسقط الاتحاد السوفيتي بأن أي طريق يؤدى إلى العدالة الاجتماعية هو طريق مقبول حتى وإن جاء من الرأسماليين ، ففي الكثير الدول الرأسمالية يوجد من الخدمات العامة ما عجزت عن تقديمه بعض النظم الاشتراكية .
إن ما سقط حقيقة في الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية سقط عندنا قبل ذلك بعقدين من الزمان وهو لم يكن مجرد سقوط إحدى النظريات السياسية لكن في الحقيقة سقوط للدوجما فليس هناك اشتراكية جيدة ورأسمالية سيئة لكن هناك أهدافاً سامية لا اختلاف عليها وكل من استطاع تحقيقها فهو جيد .
لكن ما إن وصلنا إلى تلك المعرفة حتى تبدى أمامنا مرة أخرى عدم المعرفة وذلك في المعطيات الجديدة للعصر الجديد وأصبح علينا مثلاً أن نعرف ما هو النظام العالمي وما هي " اتفاقية الجات وأين سيكون موقعنا منها وهل سيفيدنا أم ستغرينا وهل لك حرية الحركة إزاء هذه المعطيات الجديدة أم أنها مفروضة علينا شئناً أم أبينا .

وعلى مستوى السلام فقد اتجهنا إليه بشكل واضح وقام الرئيس السادات بمبادرة المعرفة عام ١٩٧٧ ولكن هل إسرائيل ستستطيع الوصول إلى مرحلة التعايش مع هذا السلام هي الأخرى أم أن ما تسعى إليه هو مجرد نوع من السيادة في المنطقة ؟ أي هل ستنجح إسرائيل في أن تصبح دولة شرق أوسطية تنتمي لمحيط الجغرافي أم أنها ستظل أشبه بالقلعة المنعزلة كالقلاع الصليبية التي قامت في نفس المكان العصور الغابرة ثم ما لبث أن غالبتها حقائق المنطقة التي زرعت بها هذا أيضاً مم لا نعرفه بعد ١٩٦٧) عمل عبد الناصر بيان ٣٠ مارس وتكلم عن وعود بالحرية والديمقراطية (مثلما) عمل في الميثاق هيكل كان طابع هذا الكلام على طفايات عندنا في الأهرام لكن ولا حاجة حصلت)

٥ يونيو قضت على سياسة القومية العربية لم يعد يذكرها أحد وحتى جيل الثورة ثار عليه .. فاكر مظاهرات الطلبة (١٩٦٨) . تبددت أوهام كثيرة عن قوة الجيش وقوة النظام .. أيضاً انتقلنا من استقلال الإدارة إلى شبه تابعين للروس وقمة الهزيمة كانت في قبوله مشروع روجرز قبله والإسرائيليين رفضوه .

يوماً عانيت فيه

بسبب الديكتاتورية مات عبد الناصر مرتين:
مرة في ٥ يونيو ، ومرة في (٢٨) سبتمبر

لقد جفت الدموع بعد موت سعد زغلول وكان أكثر أيام حياتي حزناً ... كان حب الناس له بلا حدود كزعيم شعبي يمثل الأب الروحي يوم عبد الناصر حدث لي ذهول وشئ أكبر من الحزن هو الخوف على مركب ليس لها ريس ، كان مثل أب صارم في وفاة سعد زغلول كان الحزن على رحيل حبيب غال هو يوم لن أنساه أبدا يوم ٢٨سبتمبر وفي هذا اليوم عدت من الإسكندرية في المساء أنا وزجتي وابنتانا ولم يكن هناك بالطبع أي استعداد للعشاء بالمنزل الذي كان مغلقاً منذ شهر كامل فقالت زوجتي إنها سترسل الشغل ليحضر لنا عشاء جاهزاً من أحد المطاعم القريبة فجلسنا أنا والبنتان أمام التليفزيون لا يقدم إلا القرآن وعندما طال ذلك قلت لزوجتي إن هناك بالتأكيد كارثة وقعت. إن الراجح عندي هو أنهم قد قتلوا الملك حسين فقد كان الملوك العرب مجتمعين في القاهرة بدعوة من الرئيس عبد الناصر في محاولة لوقف مذبحة أيلول بين الأردن والفلسطينيين لكن في أثناء ذلك عاد الشغل من المطعم ليقول إنه سمع أن الريس توفاه الله ففزعت فيه فزعة ونهرته بشدة وقلت له ألا يفتح فمه بمثل هذا الكلام وأن يمكث بالبيت ولا يبرحه فقد خشيت أن يروج في الخارج ، لكن بدأ يداخلني الشك والقلق ولم أستطيع أن أذوق الطعام ، وبعد دقائق أعلن بالتلفزيون أن أنور السادات نائب عبد الناصر سيلقي بيان ، وما إن شاهدت وجه أنور السادات على التلفزيون حتى كنت أنا الذي قلت الريس مات ؟ فلم أر في حياتي وجهاً كوجه أنور السادات في هذا اليوم الذي كان مكتوب عليه الموت بخط فارسي كنت في حاله من الارتباك من جملة عواطف شديدة جداً فمن ناحية لم أكن مصدقاً تماماً في داخل نفسي أن عبد الناصر أما رحيل عبد الناصر فكان مقترناً بالضياع ، فعند وفاة سعد كان هناك خلفاؤه ولكن عند رحيل عبد الناصر لم تكن تعرف له خليفة ، خوفي أكثر من حزني . الموت مصير الجميع لكن شديد الخوف على مصر من المجهول كان رجلاً فتياً قوياً لقد كان الموت برحيله يسدد له طعنة جديدة ليذكرني بأنه قريب مني ومن جيلي ولقد كانت جنازة عبد الناصر من أكبر الجنازات التي شهدها التاريخ الإنساني حيث خرجت الملايين تودعه في هذه اللحظة لم يكن أما مي الا أثر هذا الزعيم العظيم وحدث لي فزع شخصي عميق التأثير لن أنساه ما حييت من أنني أيضاً سأموت فإذا

كان عبد الناصر قد مات فمن الذي سيحيا ؟ فالموت كما يقول الشاعر حتم مؤجل لكن هذا الحدث لم يجعله مؤجلاً بل جعله ما مثلا أما في فها هوا لزعيم الذي أحدث في العالم حله هذا التأثير بعيد المدى وهذا الرجل الذي دجل حل قلوب أبناء وطنه بطرق مختلفة حتى أصبح جزاء منها حتى لم نكن نتصور الحياة بدونه . قد مات وانتهى لقد كانت تلك لحظة أفذت فيها درساً عن قيمة عظيمة وقيمة الحزن وقيمة الحياة التي لا تساوي شيئا مع إحساس شديد بالعدم كان يوماً عانيت فيه من المشاعر المتضاربة مالم أعان في حياتي) لما مات المرحوم جمال عبد الناصر واحد كبير قال لي : ما خسرناه سوف يسترد اليوم أو غد إنما من الصعب جداً استرداد الخوف الذي عشش داخل المواطن فلا سبيل للتخلص منه .

، بعد زعلنا وتقل علينا الزعل ولأن حصل لي أكتئاب قالت زوجتي خلينا نتنفس لأن حقيقي الواحد كان يتنفس بصعوبة شوية إذن الديكتاتورية هي التي انتهت بنا إلى ٥ يونيو وقضت على أمالنا .

أسوأ مؤرخ

التقييم العادل الكامل لأي زعيم لن يتأثر إلا بعد انقضاء عصره الحضاري عند ذاك تسكن زوابع الأهواء وينحسر غبار الأغراض عن الصورة فتتضح الرؤية ويقول التاريخ كلمته وعلينا نحن المعاصرين أن نجاهد أنفسنا ما وسعنا ذلك لعلنا نهتدي إلى ما فيه حيرنا وخير أمتنا فإذا حالفنا التوفيق في جهادنا فقد تخرج بدروس مفيدة لحاضرنا ومستقبلنا وما أبرئ نفسي من الأهواء التي أثرت إليها .

بدأنا ثورتنا المباركة في وقت واحد تقريباً مع الصين ولكنها ركزت على البيت على حين تبنينا مشكلات الكرة الأرضية فنظر أين تقف الصين اليوم وأين نقف نحن هذا ما أرجو أن نفيده من الرجوع إلى الماضي وتذكر الزعماء أما التقييم النهائي لأي رجل فسيسجل في وقته المعلوم لا قبل ذلك)

خلاصة القول هي)

أولاً: إن المعاصر هو أسوأ مؤرخ فلنترك التاريخ

ثانياً: يهمنا فقط أن نعرف العيب الجوهري الذي أرى بنا إلى هزيمة يونيو ويمكن تلخيصه في كلمتين: حكم الفرد.

ثالثاً: يجب أن نوجه عنايتنا للحاضر وللمستقبل وألا نستهلك وقتنا في الماضي)

السادات .. بداية فنهاية

وإني لأتخيله الساعة في الحوار به وكأنما يخاطب خصومه، مردداً قول الشاعر:

فما أجمل الحقد القديم عليهم
وليس رئس القوم من يحمل الحقدا
إذا أكلوا لحم وفرت لحومهم
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

نجيب محفوظ
أهرام ٢٢ /٤ / ١٩٨٢

في نهاية ١٩٦٧ أو أوائل ١٩٦٨ أدركت أن الحل للخروج من أزمة مصر بعد هزيمة ١٩٦٧ هو العودة للديمقراطية والحوار وإطلاق حرية تعدد الأحزاب وأن نرضى بالحزب الذي يصل إلى السلطة عن طريق انتخابات حرة نزيهة حتى لو تفاوضي مع إسرائيل وأعلنت رأي ذلك في مؤتمر دعت إليه وزارة الثقافة .. وقد كررت هذا الرأي في عهد السادات)

انقطعنا عن الذهاب

ذات يوم دعانا السادات – إثر تولية الحكم – وكان الاتحاد الاشتراكي موجوداً و (نائما) فدعا المثقفين إلى جلسة حوار رأسها المرحوم سيد مرعى الذي بادرنا بالقول (نحن نريد هذه المرة هزة تصح الكل من النومة التي نحن فيها)

وراح كل واحد منا يدلي بدوره في القضايا المطروحة ومن الطبيعي أن تتعدد الآراء وتختلف خاصة وأننا ننتمي إلى شرائح متعددة لها أصول وجذور مختلفة في منطقاتها أو مرتكزاتها الفكرية والسياسية ،

وأيضاً في توجهها وأذكر أنني قلت (يصح الحركة تأتي لو اقتسمنا الآراء وضروري كل مجموعة لها رأي مختلف عن أراء المجموعات الأخرى ومن هنا تبدءا الحركة والمناقشة واليقظة والحيوية)

بعدها جاء السادات – الله يرحمه - وقال : فيه ناس عاوزه ترجعنا لعهد الأحزاب وأن ليها أثياب فقلت في عقل بالي: الله.. أذان لماذا دعوتمونا ؟ أنتم الذين طلبتم منا أن نتكلم فتكلمنا : حسين فوزي وثروت أباظة وأنا) فأدركنا أن الحكاية كلها تعني شيئا واحداً مؤداه أن علينا أن نتكلم في حدود معينة لانتخطا ها ولا نتعداها فانقطعنا عن الذهاب والحديث . فالرأي الواحد الذي سيدوه ونشره لا يقبل المناقشة . والمناقشة توجد دائماً في المجتمعات الليبرالية وفي غير هذا لا توجد مناقشة وإنما يوجد هجوم وعقاب وتخوين وتصفية) اعتقد حقيقة أن عهد السادات ما هو إلا استمرار لعهد عبد الناصر (و لكن) بعد ما انفتح هذا السيل من الهجوم على عهد عبد الناصر تأكدنا جميعاً أنه قد حدث تغيير في السياسة وأن عهد السادات ليس استمراراً لعهد عبد الناصر السادات منظره كان دايما في أخر الصف كان دوره دايما (شرفي) وأظن أنه لم يأخذا دوراً مؤثراً طوال حكم عبد الناصر والمقارنة بينه وبين عبد الناصر كانت صعبة جداً (.. وفكرتي عنه تغيرت لما عمل ١٥ مايو ١٩٧١ (وهي) إمكانات سياسية خطيرة (اتغدي) بخصومه قبل ما يتعشوا به لكن فضل الاتجاه ناحية الحرية وتأمين الناس هو له وعليه له حرب أكتوبر وله السلام الذي جعل مصر مستقلة استقلالاً كاملاً منذ أيام (قمنبير) وعلية الآثار السلبية للانفتاح)

صاحبك العبيط

أول مرة قابلت السادات كانت في مكتب إحسان عبد القدوس في مبنى روز اليوسف كانت قد صدرت لي رواية (خان الخليلي) في الكتاب الذهبي وذهبت لأحصل على اجري من الرواية وفجأة دخل الحجرة شخص وجلس على المكتب قيادة الثورة . وعرفت أنور السادات لأول مرة واكتشفت أنه قرأ رواية (خان الخليلي) فقد قال لي ضاحكاً ((رواية بداية ونهاية ، التي صدرت في عام ١٩٤٩ عن العائلة التي ضحت بكل شئ من أجل أن يكون أصغر أبنائها ضابطا محترماً ومع ذلك استطاع بأنانيته المفرطة وانتهازيته الشديدة أن يحطم كل شيء ويدفع عائلته إلى الهلاك ثم يفكر هو في الانتحار دون أن يجرؤ على التنفيذ.

آنت تعبتني قوي بأمد عاكف بتاعك ده وأحزنتي ببطل – خان الخليلي – كده أنت عاوزنا نعيط)).
في المرة الثانية كنت مدعوا إلى اجتماع برأسه طه حسين وفيه خالد محي الدين ويوسف السباعي بعد نهاية الاجتماع وإحنا نازلين .. سلم علينا أنور السادات وراح ما سكني وقد قال لي أنا زعلان منك . قلت : ليه لا سمح الله . قال معاتبا : كيف تجعل الضابط في الرواية (بداية ونهاية) ينتحر .. أنت لا تعرف إن الضابط هو نحن وأنه كان يحب يعمل ثورة مش ينتحر .. ناس من الشعب وعملوا ثورة. كيف ينتحر وكنت متعجباً من السادات لأنه يلومني على تفكير شخصيته في الرواية .. كنت أريد أن أقول له إنه لم ينتحر وإنما ستولى على الحكم بكل العيون والله لو ترجع لقراءة (بداية ونهاية) تلاقي عقد الضباط الذين حكمونا في هذه الفترة)
قبل عرض فيلم (ميرامار) كانت هناك مخاوف من الرقابة قرر الاتحاد الاشتراكي مصادرة الفيلم باعتباره ضد عبد الناصر ولكن عبد الناصر نتدرب السادات ليراه ويقول رأيه فيه فأشاد به وعرض الفيلم رغم أنه يحمل على الاتحاد الاشتراكي ورئيس على صبري ونجح الفيلم نجاحاً غير عادى) على أية حال كانت هذه الرواية تمثل هجوم مرحلة) لكن اللقاء الخاص الذي كان عابراً جداً عندما كنت عضواً في اللجنة التي شكلت قبل المؤتمر الوطني الذي أقر الميثاق .
يومها كتبت اقتراحاً في ورقة وأرسلتها إلي رئيس الاجتماع وكان السادات طالبت فيها بالإفراج عن المعتقلين خاصة الشيوعيين منهم وكتبت أيضاً عن موقف الأقباط وما يجب أن يكونوا عليه . لاحظت أن الجلسة رفعت دون تلاوة الورقة التي أرسلتها وبعد أن انفق الاجتماع وبينما كنت أتمشى بجوار القاعة جاء إلى من قال لي : أن الرئيس يطلبك – يقصد رئس الاجتماع طبعاً – ذهبت إلى مكتب السادات وكان يجلس مع إحسان عبد القدوس . وهنا أخرج الورقة وقال لإحسان : شوف صاحبك العبيط كاتب إيه ؟ أنا لو قلت ما في هذه الورقة كان خرج من الاجتماع على سيوه ولم يكن أحد سيعرف له طريق جره
يومها تأثرت كثيراً من موقف السادات فلم تكن هناك صلة سابقة بيننا تبرز إخفاء الورقة أيضاً حرصه على أعتبره دينا في عنقي حتى الآن)

البيان

أخذنا يوسف السباعي إلية في قصر القبة وهنأ ناه بتولي الرئاسة)
وكان في الحقيقة في كل لقاء يجاملني مجاملة لطيفة جداً ولذلك عندما كتبنا العريضة التي تهاجمه غضب غضباً شديداً جداً ولم يكن ينتظر من على الأقل أن أكون من الموقعين عليها (..) كانت هذه العريضة قبل حرب أكتوبر ولم أتردد في التوقيع) على بيان عام ١٩٧٢ نؤيد فيه مظاهرات الطلبة وندعو إلى حسم حالة اللاحرب واللاسلم
دخلت يوماً على توفيق الحكيم فقال) : أقرأ هذه الورقة وقل لي رأيك فيها . فوافقت على التوقيع عليها والحقيقة أن هذه العريضة عملت فرقعة سيئة عند السادات ونحن لم يترك مناسبة بعد ذلك إلا وحمل علينا وهاجمنا وعاقبنا بسببه حرمنا من الكتابة في الأهرام) لقد فصل الرئيس الراحل أكثر من مائة كاتب وصحفي

(كان هيكل مسافراً وبعد عودته) تقابلت معه صدفة في الأسانسير وهو داخل ،أنا خارج أو إيه إلي عملتوه فلم يبين موقفه ولكن كان أقرب إلى الرضا)

(فقد)بدأت حياتي الثقافية بكتابة المقالات الفكرية الفلسفية ثم توقفت عن كتابتها بعد صراع داخلي في نفسي وتفرغت للإبداع الأدبي والفني في القصة القصيرة والرواية والسينما وقد أبرزت ذلك على لسان إحدى شخصياتي في ثالث الثلاثية (السكرية) بأن المقالة صريحة ومباشرة ولذلك فهي خطيرة ثم عدت إلى كتابة المقالات السياسية الصريحة المباشرة هذا إذا سميت مقالة لأنها أقرب إلى الخواطر والانطباعات منها إلى المقالة واتجاهي لها في الحقيقة لم يأتي أصلاً من ذاتي وإنما أقترح علينا بإلحاح من الأهرام ورفضت بادئ الأمر رفضاً شديداً ولم أقبل إلا تحت إلحاح شديد فأنا لم أكتب المقالة السياسية الصريحة من نفسي فالمقالة في الحالة الأولى كانت بإيحاء من نفسي وكذلك القصة ولكنها في الحالة الثانية جاءت بطلب ملح وهذه التجربة والتضارب بينها وبين الإبداع لم يتبين بعد ولو كنت وجدت تضارباً لاعتذرت للأهرام ولكني وجدت نفسي في حرج لارتباطي بالدار وسياستها فقبلت وقد قبل من قبلي توفيق الحكيم ويوسف إدريس والدكتور حسين فوزي وغيرهم من كتاب الأهرام)

(ولم ينشر أسمى وتوفيق الحكيم) كانت نصيحته د (أحمد كمال) الذي كان يشغل منصب وزير الإعلام وقتئذ وهو رجل .

التلاعب بالدرجات العلمية

كنت أنشر الرواية والقصة لكن بعد أن جاء السباعي (رئيساً لتحرير الأهرام) اجتمع بنا وقال : إنه من المعقول أن نكتب وخصص لكل منا يوماً تحت عنوان (المفكرة) ولم أكن أحب أن أكتب المفكرة أو نفسي في هذا اللون من الكتابة (فقد) أحتر (يوسف السباعي) وحدد اليوم وكتبت في السياسة كتبت في مفكرة الأهرام أسخر من منح درجة للفنانين وقلت إن هذه الدرجة العلمية لا معنى لمنحها لفنان لا تشكل علامة على طريق الفن فعبد الوهاب ليس في حاجة إلى دكتوراه وموسيقاه لن تزيد قيمتها لواء... وغضب السادات من رأيي وقال لمن بطريقته المعرفية طيب هو مش هيا خذها (رفضت درجة الدكتوراه من جامعة المنيا) لموقفي السابق واعتذرت للدكتور عبد العظيم رمضان عندما أتصل إن مجلس جامعة أخرى يفكر في منحها لي بعد جامعة إلى والسبب كما قلت هو أنني أعتبر التلاعب بهذه الدرجة العلمية دليلاً على اهتزاز القيم في المجتمع

وبدأ يوسف السباعي يسمع ملاحظات من السادات بسببي فجاء السباعي ليقول لي : بلاش سياسة وانقطعت عن الكتابة المفكرة)

هاجمت الفساد والانفتاح الاستهلاكي .

رفضي مقابلة حسن البنا

ليس هناك تأييد مطلق ولا معارضة مطلقة أنا كنت مع السادات قلباً وقالبا في السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وكذلك في محاولته من أجل السلام لم أكن ناصرياً ولم أصبح ساداتي أنا وطني مصري ولم أتغير

أنا رؤياي مصرية بمعني لا يتناقض مطلقاً مع أية صداقات أخرى .

كرهت منذ بداية الوعي السياسي المبكر مصر الفتاة والإخوان المسلمين

فالأولون أفصحوا عن انتها زيتهم وفاشيتهم في وقت واحد أيدلوجية وعلمياً الجمعية عن نشاطها السياسي المعادي للوفد فوقفنا ضدها وسأروي لك حقيقة تاريخه وهي أن الوافد كان يرشح الأقباط من أنصاره في الانتخابات فكانوا يهزمون الإخوان في دوائر غالبية سكانها من المسلمين .

كان الزميل الراحل عبد الحميد جودة السحار ممن يميلون إلى الإخوان فدعا مرة لمقابلة الشيخ حسن البنا ولكني رفضت الدعوة بكل إصرار .
الآن تغيرت الدنيا أصبحت هذه التيارات على درجة كبيرة من الخطر والفساد هو الأب الشرعي لقوتها إنهم يستولون على الجامعات والنفايات كيف ؟ أعدت قراءة التاريخ الإسلامي فاكشفت وجود هذه التيارات مع فوارق الأزمنة والمصطلحات –وإنها تزدهر مع ازدهار الفساد وقد بلغ الأمر إنني أقرأ صحافتهم وهم يشتمونني وغيري ويقولون مع ازدهار الفساد وقد بلغ الأمر إنني أقرأ صحافتهم وهم يشتمونني وغيري ويقولون أننا مثالاً للغرب وإننا ننشر الانحلال يتكلم أحيانا عن إسلامي ولست أعرف أدباً إسلامياً خارج المكتوب في ظل التاريخ الأسلامى وهو أدب يشمل على أكثر مما يحتوي الأدب الغربي من صرامة القول والتصوير . أبو نواس وبشارة ألياس من الأدب الإسلامي لقد علمت أن الجماعات الإسلامية في الإسكندرية افتحت معرض الكتاب وصارت مؤلفاتنا إلى هذا الحد وصلت ساعات يجرء إلى ندوته يخطب .
هي ليست موجهة ضد أحد على الإطلاق ولكن حين يقل هيا إلى الحرب أسأل: هل في ذلك مصلحة لمصر ؟ العروبة تختلف وكذلك الإسلام . أتذكر أنني زرت سيد قطب) عقب خروجه من السجن في الستينات برفقة عبد الحميد السحار . وتكلم معه ضمن موضوعات مختلفة عن الحرب من إسرائيل فإذا به يقول لي مامعناه: هذه الحرب لا يعنيني بحد ذاتها فلو أن باكستان في حرب سأنضم إلى باكستان . هذه رؤية إسلامية

أزمة الحاكم

وذات مرة على مقهى ريس حكي لي محمد عورة عن الصعوبات في وجه المبادئ وأنه الاستجابة الشعبية لما يجري (في ستينيات) ليست بمستوى الانجازات قلت له : إن لهذا الشعب لغة لكي نفهمه ويفهمنا لابد أن نكلمه بلغته . وأقصد باللغة جملة معتقداته الراسخة في وعيه والمطلوب أننا حين نتقن الكلام مع الشعب بلغته هذه نستطيع بواسطتها أن ننتقل به ومعه من الظلام التي تجيد التفاهم بلغة الشعب تزحف وتسق الأرض من تحت أقدام الجميع.
ونقطة أخرى هي العنصرية . إننا شعب لا يعرف العنصرية مطلقاً تراث طويل عريض يخلوا من العنصرية وهذا ما يدعوه البعض بالوادعة أو اللطافة أو الألفة .أو الدفء المعروف عن المصرين في علاقتهم الاجتماعية وموقفهم من الغرباء . ولكن الظلام الزاحف يزرع بذوراً غربية في أرضنا الطيبة أين دور الاستنارة والعقلانية ؟
الابتعاد عن تراثنا الوطني يبعدنا في الوقت نفسه عن شاطئ الأمان هذه أيضاً رؤية مصرية.
المصريون شدو دون برباط وثيق إلى الحكومة المركزية لدرجة العبارة أحيانا مما يجعل القرب والبعد من السلطة قيمة اجتماعية الشعور بالأمن في حضن هذه السلطة يجعل البعد عنها مخاطرة وهذه من السلبيات المصرية التي أحب التأكيد عليها ولو بالتكرار ولكن أضيف أن المصري مرهف الحساسية إزاء (ذمة الحاكم) قد لا يهتم في المقام الأول باتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء ولكن يهتم جدا أو يستثار ولا يكظم غيظه من اللصوص والمرتشين .
كذلك من السلبيات الروح العائلية التي تقبل القانون إن أصعب رذيلة في عملية الإقلاع هي تلك التي يعتقد المجتمع أنها فضيلة .
وحين أنتمي إلى الوطنية المصرية ولكن لا معنى لأدبي خارج نطاق هذه الرؤية عرف الشعب المصري على مدى تاريخه صنوفاً من القهر والاضطهاد فتكونت لديه (شخصية) لها معالمها المميزة كالصبر الذي استمده من الحياة الزراعية والصمود الذي يتغلب على الغناء وهو لا يتعدى

على الآخرين بل مفعم باللطف والإنسانية وحسن المعاشرة ولكنه من جهة أخرى اعتاد القهر فاكتفي بالسخرية بدلاً من الصراخ وخفقت لدية إلى حد ما حاسة المقاومة واضطرته الحاجة إلى النفاق والفهلوة وهي رذائل تحتاج إلى مساحة من الحرية حتى يتخلص منها)

المفاجأة

السادات إيجابياته أنه أعاد الشعور بالامن للمواطن المصري وأتجه اتجاهاً ما نحو الديمقراطية بتعدد المنابر والسماح بوجود الرأي الآخر وحقق إنجازين في رأي يجب أن تذكرهما مصر إلى الآن انتصار أكتوبر والسلام)
لقد نادي بالسلام لأنه كان من غير المعقول أن نظل نردد لأصوت يعلو فوق صوت المعركة ونهدر أموالنا على التنمية بدلاً من إهدارها في الحروب)
تذكر أننا دعينا إلى اجتماع مع العقيد القذافي في عام ١٩٧٢ في حضور هيكل ومجموعة من كتاب الأهرام وفي هذا الاجتماع الذي تحول إلى ندوه ناقشنا أو نوقشنا في أمرين الأول هو : الإسلام والثورة الليبية والآخر هو القضية الفلسطينية وفي هذا الموضوع قلت : أنه إذا لم تكن لدينا القدرة على الحرب (فلنتفاوض ونصطلح وننهي هذه المسألة التي لا تحتمل بلادنا معها حالة للاحرب واللاسلم لفترة أطول وقد أيدني حسين فوزي وتوفيق الحكيم وكان كلامي مفاجئاً فلم يكن يخطر ببال أحد التفكير مجرد التفكير في هذا الحل ذلك أننا كنا نعيش في أجواء لاءات الخرطوم الشهيرة ولكننا عشنا بعدها اضطراباً هائلاً في صفوف الطلاب والعمال والمثقفين. وفي هذا الخضم حفر العقيد ليتكلم عن الحرب الشعبية ونحن نعاني أزمات معقدة ومركبة بعضها موروث وبعضها طارئ ولكن البلد توشك على الدخول في مأزق تاريخي يقول إلى اليأس .
حينئذ فكرت بصوت عال وبين سياسين وثوريين فكانت المفاجأة حتى لي شخصياً السياسة الرسمية بعيدة تماماً عن مثل هذا التفكير الذي نطلق به أمام ضيف هو رئيس دولة عربية ولكن وجدت نفسي أنطلق بما أفكر فيه حتى ولو لم يشاركني أحد كان ذلك قبل زيارة السادات للقدس بخمس سنوات)
وأذكر أن الإسرائيليين وقتها كانوا يضربون بعض المواقع داخل مصر وكان هناك شبه هدنة والموقف متجمد ويخيل إليك أن قناة السويس وسيناء والجولان أصبحت كلها في ذمة التاريخ ونحن واقفون وليس أمامنا أي حل .. فالقذافي في سأل : ما العمل ؟
فقلت أنا : تحارب وإلا كيف يمكن أن نحرر الأرض ؟
ردوا علي بأن الحرب مستحيلة يجوز محمد سيد أحمد أو غيره قال : إننا إذا هجمنا في استطاعة إسرائيل أن تحطم كل سيئ في مصر .. وضع خطة عسكرية ونفذها ونحن جالسون .. قال : إن ضرب المواصلات والجسور وحدها يقطع التموين فتجد الثمانية ملاين خرجوا جائعين ليهجموا على كل شئ باختصار وجدت مصر كلها ضاعت في أقل من ساعة . ما دامت الحرب مستحيلة لا يبقى أمامنا سوى الفكرة الأخرى فقلت : تفاوض . ولاحظ أنه لم يكن حدث نصر ولا أي شيء . وكنت أعلم جيداً أن المفاوضات في ذلك الوقت سيعقبها تنازلات في سيناء نفسها .. إذا لايمكن أن يعطوها لنا كلها ونحن منهزمون إنما حصولنا على نصفها أو ثلثها مع حل المشكلة أفضل من لا شيء مادامت الحرب غير ممكنة وأذكر أن القذافي علق على ذلك بقوله : لك حق ولم يكن ذلك تأييداً منه لمبدأ المفاوضات وإنما على سبيل السخرية كان يقصد أن لك حق مع هذه الأوضاع العربية المتدهورة في أن تفكر بهذه الطريقة الانهزامية .

والحقيقة أنني حينما قلت هذا الرأي دارى على هيكل وحجم دوري في الكلام واعتذر نيابة عني قائلاً هذا أديب وفيلسوف وليس له في السياسة وسارع بإعطاء الكلمة لشخص أخر صحيح (أن هيكل كان رأيه أيضاً في ذلك الوقت أن الحرب مستحيلة) ولكنه لم يدع إلى المفاوضة .. والكلمة المزعجة التي قيلت ساعتها هي (نتفاوض بالذات وكانت وقتها أشبه بالكفر ولذلك اضطرب هيكل وعتم على دوري في الكلام خاصة وقد رأى الدكتور حسين فوزي قد شرع يستعيد للتأييد فأعطى الكلمة لأشرف مروان زوج بنت عبد الناصر الثانية ليتكلم في التسليح فغير اتجاه الحديث تماماً إني لا أفهم الخلاف بين عدوين إلا على صورة من أثنين : إما أن ينتهي عن طريق الحرب وأما عن طريق السلم ويستحيل أن ترفض الطريقتين معاً إذن هذا الموقف مفتعل والأساس فيه ليس فيه نابعاً من العرب أو من قدراتهم

جاء السادات وأنا في الواقع أحفظ له أمرين هامين جداً هنا حرب أكتوبر ومعجزتها (وكذلك السلام الذي صنعه) نصر أكتوبر كان معجزة بجميع المقاييس وقد بعث الأمل في أننا إذا أردنا أن نصنع المعجزات نصنعها وأننا حررنا أنفسنا من العجز الذي شل قدرتنا .. وحين نتقابل ما بين هزيمة للشعب أبداً فالشعب هو الذي بعد عدة سنوات قليلة هو الذي نفض عن نفسه ما حدث له سنة ١٩٦٧ أو لنقل ثأر لنفسه عسكرياً

(لم يكن هناك استعداد قبل يونيو أما بعد يونيو فقد كان هناك إعادة بناء الجيش المهزوم (المهم أن هو الذي عمل الحرب ونجح ... عندك الجيش في سنة ١٩٦٧ هو نفسه الذي أنهزم وهو نفس الجيش بقيادة أنور السادات الذي انتصر فالفرق هنا ليس في شيء غير القيادة . القيادة تغيرت وبالتالي فقد تغيرت الأوضاع والروح المعنوية والرغبة في الانتصار هذا بالإضافة إلى خطط أخرى كثيرة لا تتحدث عنها فهي جوانب فنية عسكرية كانت تنبت في لحظات وربما أثناء المعركة) أما الأمر الثاني الذي لا يمكن أن أنساه للسادات فهو السلام جاء كمقدمة لكي نتفرغ لبناء بلدنا ونوفر نفقات الحروب لنتوجه إلى ميادين التنمية المختلفة لمدارس والحضانه والمستشفيات والمزارع والحدائق ...)

و إنما من موقف دولي مفروض علينا من أجل استنزافنا الدول العظمى تريد أن تصل بنا لغاية التسليم برؤيتها للمنطقة .. إنما على مدى حرب و هدنة ، و لا حرب و لا سلام ..و نظل نشترى البترول و ندفع لنا ثمنه فنعيده إليها مقابل سلاح لا نستعمله ... و هكذا... إنه مقلب دولي وراء هذا الموقف (أمريكا و الإتحاد السوفيتي السابق) القائم على استنزاف العرب و سرقتهم ، و لم ننتبه إلى شيء كما ترى ... و ضيعنا مليارات خيالية على السلاح ، و كان من الممكن أن يستفاد بها في التعمير و البناء . و نحن راضون بهذا الموقف الغريب و لا نريد أن نخرج منه ، لذلك كان من رأيي الخروج منه بأي تضحية .. و كان ذلك قبل نصر ١٩٧٣ .. كنت أقول هذا الكلام و أنا أعرف أننا سنخسر أجزاء من سيناء .." المهم أن أنتبه و أفوق لنفسي .. و أمامي في التاريخ أمثلة كثيرة جدا : ألمانيا و اليابان خسرنا كثيرا في الحرب،

و لكنهما استطاعتا بناء نفسيهما من جديد " و أصبحنا من أقوى دول العالم . و هنا تبدو عظمة السادات ، فالسادات أنقذ روح الأمة العربية من الإيمان بالعزيمة و قام بتحرير مصر من الإحتلال و لكن أخذ رتبة خائن و قتل ، لقد كان بطلا تراجيديا ".

ثمن ساعة

صورة من الماضي ، أمست تاريخية إن شئت ، و لكنها ستظل قادرة على استدعاء الحلم الذهبي ، حلم النصر، الذى أصبح واقعا حيا بفعل إرادة بشرية خارقة . كيف تلقيت نبأ الحدث العظيم ؟ . كنت

جالسا إلى مكتبي منهمكا في الكتابة عندما رن جرس التليفون. كان المتحدث الصديق الكبير ثروت أباظة .

- ماذا تفعل الآن ؟
- أكتب كالعادة
- تكتب ؟!.. تكتب و لا تدرى بما وقع في الدنيا؟
- و ماذا وقع؟
- لقد عبرنا ..
- لم أفهم للجملة معنى و تساءلت .
- عبرنا

فقال بصوته القوي الواضح:

- عبرنا القتال .. جيشنا الآن يحارب في الضفة الشرقية .

و حقا قد ذهلت . لقد كان الاحتلال كابوسا قاتلا جاثما على قلبي ، و كلما حادثت صديقا في التماس حل ، بالحرب أو السلم ، خيب رجائي و صور لي الأمر كغاية مستحيلة ، و إذن فقد ضاعت سيناء و لا سبيل إلى استردادها ، و كلما زدنا من قوة جيشنا خطوة زاد العدو من قوة جيشه عشرا ، فأي أمل يبقى لنا ؟

- تقول عبرنا ؟
- باليقين نطقت
- هل تعود إلى تصديق الإذاعة ؟
- على مسئوليتي هذه المرة....

و لم يهدأ بالي حتى استرشدت به في الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية التي لا أتابعها عادة فدلني عليها بدقة ، و لم أصدق نبأ النصر حتى ترامى إلي من بعيد من لندن و صوت أمريكا.
آي تغير... آي معجزة ... آي بعث ...لقد عبرت أنا أيضا جسر اليأس في ثوان بعد أن كان يتراءى لي طويلا طويلا بلا نهاية ...
ألا فلتدم للنصر ذكراه ، و لتملأ روحه الأجساد و الإيرادات ، و ليستكن في زوايا القلوب قوة نستمد منها العزيمة و الإصرار من أجل البناء و السلام"
بعد ١٩٧٣ أصبح باستطاعتنا أن نجلس إلى مائدة المفاوضات بشيء من الكرامة و نخلص من الموقف .. نحن لا نملك القدرة على حل القضية عسكريا .. و هذا شيء واضح لأن الأساسي في قيام إسرائيل أن المجتمع الدولي معترف بوجودها و ضامن لهذا الوجود، و معنى ذلك أنني أنطح في صخرة ، و ليس باستطاعتي أن أحارب العالم كله لأغير هذا الوضع .. فليس أمامي إلا أن أعتبرها كارثة من الكوارث التى مرت بي في تاريخي كالكوارث التى أوقعها بنا التتار و الصلبيون وغيرهم .. فلابد أن انتبه لنفسي و أتركها للجيل التالي .
عيبنا أن جيلنا يريد أن يحارب أربعة حروب و يحل المشكلة و يعمل كل شيء و يبني المستقبل " و هذا مستحيل .. كل جيل عليه وظيفته ، نحن جيل انهزم ، و بشيء من الانتصار يمكن أن يسوي القضية و يبني للجيل التالي ما يستطيع أن يبنيه و يسلمه الراية في يوم من الأيام و يقول له : ها أنذا قد عاشرت الإسرائيليين خمسين أو مائة سنة إن كانوا قوما يمكن معاشرتهم ، و كل ما يقال عنهم في أنهم متوحشون ...و... و ... كلام فارغ ، فعاشرهم و إن كانوا متوحشين فعلا ، حاربهم ... فقد تركناك على الأقل في حالة أفضل مما كنا فيها فلعلك تنتصر حيث انهزمنا ... و تنتهي المسألة و من يتصور أنه كان لديه قدرة على تحقيق شيء أكثر من ذلك فهو واهم .. ونفس أمريكا قالت لك : إذا تقدمت خطوة واحدة فسأضربك فمخزون السلاح في العالم الذى يبيع للأخرين وضع في حسابه أن يظلوا أقوى منا ... فماذا تفعل في ذلك ؟ و الوضع الآن ليس كما كان أيام محمد علي باشا ...

تتقن بعض الحرفية و تبنى مصنعا للسلاح فتصبح مثل انجلترا ... صناعة السلاح اليوم معقدة و عسيرة ليس أمامنا إلا أن نجلس أمام مائدة المفاوضات و نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه و تهتم بنفسك ما النتيجة التى تحققت بالنسبة لنا ؟
حررنا أرضنا ، و هذا شيء لا يستهان به و قد أعطاهم السادات المثل .. و ما أقوله- الآن – ليس أقتراحا لأنه أصبح ماضيا بعد أن أعترف مؤتمر فاس بذلك و أنور السادات لم يسر لوحده إنما ذهب للأسد (الرئيس السوري) و عرض عليه الأمر فرفض .. فسأله: ماذا عندك غير الرفض ؟ لم يتلقى إجابة .
لقد عرفت فما الحل ؟ لم يتلق إجابة ...تريد أن تستخدمني مثل الجنود المرتزقة؟ إذن أعطني مثل ما يأخذه الجنود المرتزقة ... حينما هددهم الخطر في العراق أبدوا استعدادهم لدفع خمسين مليار دولار ، أما قبل ذلك فكان السادات حين يذهب إليهم يعود بخمسة عشر مليونا أو نحو ذلك .
يا عزيزي ، أنا يوم أعلنت رأيي و أكرر إعلانه الآن ، اعتقد و الله شهيد أنه في صالح العرب، فإذا أثبتت هذه الأيام خطأه – و هذا وارد – فأنا بشر يمكن أن أخطئ و لأصيب .
ما أريدك ألا تتصوره ابدا أن يكون رأيي هذا لخدمة إسرائيل و من يتصور هذا يكن مجنونا!

- طبعا الحكم الأول و الأخير لهم . و الواقع أنني خرجت ببعض آراء سياسية مستخلصة من تجربتنا المريرة المعاصرة ، استطيع أن ألخصها لك في الآتي : أننا كعرب أصحاب قضية و أصحاب هدف . الهدف هو الحضارة لأننا نعيش التخلف ، القضية رمانا بها الاستعمار و سياسية المصالح الدولية بين القوى الكبرى فحدثت مأساة فلسطين .
وجدت أن القضية قد استوعبتنا لدرجة تكاد أن تنسينا الهدف مع أنه مهما كانت أهمية القضية فالهدف يبقى هو الأول و الأخير لأنه الحياة. و وجدت أن كل قوانا وكل أموالنا تضيع في القضية . مثل العائلة الصعيدية التى يرزقها الله بالأرض و الأموال لاستغلالها من أجل الحياة فإذا بهم من أجل ثأر يتساقطون قتلى الواحد بعد الأخر حتى لا يبقى سوى النساء كل هذا من أجل كرامة العائلة و تقاليد الصعيد.
و تبقى الأرض بعد ذلك لا تجد من يزرعها . فقلت أننا ما دمنا عاجزين عن حل القضية في الفترة الراهنة فلنسلم بالممكن ونلتفت للحضارة.اعتبروا أن هذا الرأي يشكل خروجا عن ليكن خطأ. هل أدعيت أنني استلهمت هذا الرأي من السماء و أن على الجميع أن يأخذوا به؟ أنا مجرد إنسان خاف على شعبه أن تستهلكه القضية فتكون النتيجة ألا يكسب القضية و يكسب الحضارة .
اغلبيت العرب يؤمنون بالرأي الذى ناديت به .
- العرب الذين يسعون لحل القضية و الذين بيدهم المسؤولية . هل أنت قادر على أن تحارب إسرائيل و الاستعمار معا ؟ و هل هناك حرب يمكن أن تستمر إلى الأبد ؟".
كثمن الساعة التى يشترونها من لندن أو سويسرا.
وجد نفسه يغرق و بلده في طريقها للخراب و الغرق في المجاري ... يئس و حاول إنقاذ البلد ما دام أحد منهم لم يساعده المساعدة الضرورية .كنت أتمنى أن يدخلوا معنا فلم يدخلوا .. فماذا أفعل لهم ؟ إنهم حتى لم يمنحوني التأييد الذي يجعلني أستطيع أن أقف في صفهم و أصلح أحوالي في الوقت نفسه.. كأني يجب ألا أكون معهم إلا و أنا أتسول ".

هل أنا كاتب أم تاجر

جاء حديثي في جريدة "القبس" الكويتية أواخر عام ١٩٧٥ حين أجريت معي مقابلة كررت فيها رأيي السابق " أذكر يوم أن أدليت بهذا الحديث الذى سبب المشكلة أن الأخ الصحفي الذي كان يأخذ مني الحديث قال لي : " أنصحك بيني و بينك ألا ترد على الأسئلة السياسية و تقول أنك رجل أديب

ليس لك علاقة بالسياسة .. لأني أعرف تماما المناخ الذي سينشر فيه الحديث و أعرف أنه سيجر عليك مشاكل لا قبل لك بها ".
و لكن رأيت أنه إذا لم أجب عن السؤال سأظل خجلا من نفسي طيلة العمر ، ذلك أن النصيحة التى أبديتها كانت للعرب و ليس للإسرائيليين"
و الحقيقة لقد تساءلت :" هل أنا كاتب أم تاجر؟ " فالشعب العربي قد وضعني في مكانة عزيزة باعتباري كاتبا ذا رأي ، فهل يصح أن أحجب رأيي لمجرد الخوف ألا تباع كتبي أو ينقص إيرادي منها ؟ وجدت هذا المنطق غير مستساغ و فوضت أمري لله و قلت رأيي.
إذن عندما جاءت المقاطعة اعتبرت إنني أنا الذي سعيت إليها باختياري فليس هناك أي مفاجأة لأن الزميل نبهني مقدما.. و كذلك كان المسؤول عن المجلة في الدولة العربية يكن لي احتراما خاصا فظل مترددا في النشر فترة طويلة حتى لا يعجل بالمشكلة ثم في النهاية أضطر لنشره .
حقيقة لم آسف أبدا على موقفي هذا ، و أحمد الله كثيرا أنه مد في عمري حتى رأيت رأي و قد اقتنعت به جميع الدول العربية و بدأت تنفذه .و اليوم فقط يقولون التنمية و البناء و التجمع الاقتصادي .. هذا ما ناديت به منذ زمن طويل جدا ،وقبل أن نخسر ١٠٠ مليار دولار في سلاح لم يستخدم إلا في قتل الفلسطينيين هذا الطلب (المفاوضات) أثار زوبعة فظيعة و اتهامات عاتية انتهت بالمقاطعة " و قد أفردت الجريدة صفحاتها بعد ذلك ستة أشهر لمهاجمتي . و لكن هذا حدث أيضا قبل زيارة السادات للقدس بحوالي عام ، أي أنني لم أقلق السادات بتأييد كامب ديفيد، فقد ربحت شعاراته تسعين في المائة من تأييدنا" و العجيب أن السادات كان يهاجمنا قبل المبادرة ، و بعد المبادرة قال : أننا نؤيده !
السادات كان(يريدها) خطوة للحل الشامل ، راح قابل الأسد ، و الملك الحسن (ملك المغرب) كان يعرف ، و رفع (السادات) جميع الأعلام على فندق (مينا هاوس) ، (و لم يأت أحد) المبادرة بقيت جزئية لأنهم رفضوها .. و تسأل حافظ الأسد يقول لك : أحارب بعد مائة سنة !! و أنا لا أستبعد إن عبد الناصر كان (س) يعمل نفس ما عمله السادات".

و انتفضت غاضبا

أذكر أنني أثناء حرب أكتوبر جلست مع خمسة أو ستة من الشباب اليساريين المتطرفين نتحدث عن المعركة، فإذا بهم يسفهون تلك الحرب و يقولون : إنها المصلحة البرجوازية ،و أن النظرة إلى الحروب يجب أن تكون طبقية لا وطنية ، و أن البرجوازية عندما تقود حربا يمكن أن تساوم الاستعمار "فتبين لي أنهم متشائمون من النصر ، و يعتبرون أن انتصار البرجوازية المصرية وبال على التقدمية ، و قد تغير حالهم و شملهم السرور عقب حدوث الثغرة . ساءني ذلك جدا و انفعلت به انفعالا شديدا". و انتفضت غاضبا من هذا الموقف غير الوطن و جادلتهم جدال عنيفا صاخب – لأنه- أثناء المعارك التى يتحدد عندها مصير أمة من الأمم ، فإن الخروج على إجماع الأمة و تسفيه نضالها ضد العدو ، يعتبر خيانة لا تتوقع أن نجرى عملية فرز للناس بحثا عن حسن نيتهم و إنما نحكم على موقفهم الموضوعي من حيث تأثيره في المعركة ، و مثل هذا الكلام الذى كان يصدر منهم على المقهى يشيع روح العزيمة في الشعب و لا نتوقع أن يكون المرء هادئ الأعصاب ، فلابد أن يتهمهم بالخيانة ، و ربما اشتبك معهم في المعركة بالأيدي" إن أسوأما قيل عن حرب أكتوبر هو حرب هو أن الأعداء لم ينتصروا و أننا لم ننهزم ، و حتى لو سلمنا بصحة هذه النظرة ، فقد تركت حرب أكتوبر في نفوسنا أملا و ثقة بالنفس و بالحياة لا يمكن أن تخلقها إلا الأحداث الكبرى ، لذلك فأنا أعتبر ٦ أكتوبر بداية تاريخ عربي جديد ، و أيا كانت العقبات التى تصادفنا فقد أصبح من المؤكد أن العرب

سيصلون إلى النهضة التى ظلوا يتعثرون في طريقها منذ بداية القرن العشرين . و الأثر الثاني هو أن الإنسان أحيانا يجد نفسه يتخبط في ظلمات يظن أنه لا مخرج منها أبدا ، و هذا درس قد يكون مبتذلا لا في ذاته و لكنه حيوي مع ذلك قبل الحرب كنا في حال لعلك لم تنسها بعد ، لم يكن أحد يتصور الحرب أو لا يتصورها إلا مقرونة بالخراب الشامل ،سمعنا ذلك مما يدعون العلم و ممن يعلمون .. فصدقنا بقلوب دامية . و لما قامت الحرب و تحقق العبور و انقلبت الصورة رأسا على عقب و بعثت الحياة من جديد . و في تلك الحالة كتبت ما كتبت ،و لم تخرج من فمه كلمة واحدة لها صلة بالعزيمة ، وقد خسرت بسبب ذلك أصدقاء و زملاء.

الذين غضبوا على هذه الدروس هم الذين أحزنهم أن ننتصر و قد قرأت في بعض صحف بيروت أن نجيب محفوظ قد حول نفسه بهذه الدروس إلى موظف في مصلحة الاستعلامات المصرية ، فضحكت و قلت : أنا لا يضيرني أن أكون موظف استعلامات في الوقت الذى تحارب فيه بلادي ، وليتني كنت أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك و لكن لا أملك إلا القلم .. فهل من المستغرب أن أضعه في خدمة قضية بلادي و أبناؤنا يستشهدون على ثراها و يطلعون بدمائهم فجر المستقبل العربي الذى طال انتظاره "".

كانت فرحة أكتوبر هي الفرحة الكبرى في حياتي ، و لذلك فقد كان لها تأثير كبير على أعمالي ، و أنا أعتبر أن ملحمة الحرافيش رد فعل مباشر على حرب أكتوبر ، و هى من أكثر أعمالي تفاؤلا " أدب أكتوبر لم يكتب بعد و في إعتقادي أن تأثيره الحق لن يظهر إلا في روح الأدب ، قد لا تجد العبور و لكنك ستجد روح النصر و العبور النفسي ، إنه أدب عمارة الصحة و العافية " و نصر أكتوبر لم يحصل على واحد من عشرة من نصيب الفن و الأدب الفرح مستغنى بنفسه عن كل شيء.. حتى في الفن و الأدب .. لو كتبت رواية عن إنسان أحب و إتحب و تزوج .. ما حدش يحس بها .. لكن لو أحب و ما اتحبش ... الدنيا كلها تدرى بها .أفراد الأسرة العادية يتحدوا في المآتم و ينسوا خلافاتهم .. أما في الفرح تلاقي من يشارك و من يحقد و من يلسن و من تأكله الغيرة " من حيث تأثيره في المعركة و مثل هذا الكلام الذي ليسوا بالتأكيد عملا واحدا لأحد و لا يقبضون من أحد و لكن في فورة الجدال يمكن أن تصدر ألفاظ حامية و غير دقيقة ، لأن المسائل نسبية كما هو معروف ... عندما جاهر برناردشو عام ١٩١٤ برأيه ضد الحرب العالمية و نادى بالسلام ، أعتبر خائنا و وضع في السجن ، و بعد ذلك ظهر أن موقفه كان سليما و أصبح أشهر كاتب في انجلترا و كرمته حكومته ، و أيام نضال كافور من أجل وحدة إيطاليا كان يستعين بالفرنسيين ضد النمسا، و كان البعض يسميه حينذاك بأنه عميل فرنسي، و لكن ظهر بعد وحدة إيطاليا أنه بطل وطني و قومي . و لأضرب لكم مثلا عن تاريخ الحركة الشيوعية ذاتها : لو كان لينين قد قبض عليه في القطار المصفح الألماني الذي سافر إلى روسيا القيصرية لينظم الثورة ضد القيصر ، لكان قد أعدم بتهمة الخيانة، لأن ألمانيا كانت في حالة حرب مع روسيا، ولكن بعد نجاح الثورة أصبح بطلا وطنيا وعالميا ، ولم يحدث أن دخل التاريخ إنسان حتى الآن من أوسع أبوابه مثل لينين رغم ملايين الصفحات التى سودت لمحاولة تشويه نضاله و نقاء ذلك النضال أعتقد أن بعض الماركسيين لديهم نوع من التبعية الفكرية لأنهم نصوصيون جامدون، أو يقتنعون مقدما بسياسة بعض الدول الاشتراكية.

يساري و مسلم

و أنا يساري (و كذلك) أنا مسلم مؤمن و أعتقد أن الدين الإسلامي يدعو إلى الاشتراكية ، و لو أننا تخلصنا من دعاوى الدينيين اليمنيين لزال التناقض المزعوم بين الاشتراكية و الإسلام ، و أنا شخصيا لا أختلف مع الماركسية إلا في شقها الفلسفي المادي فقط ، كما أنني أرفض التطبيق

الاشتراكي ، أي لون من ألوان الديكتاتورية و لو وعدتني بالجنة . أنا مع القطاع العام .. و للأسف الذين أنشاؤه هم الذين يضيعونه لأنهم أسندوا إداراته إلى من لا يؤمن به .. لقد سلم عبد الناصر قيادة القطاع العام لعناصر برجوازية أو معادية للاشتراكية أو مالكا سابقا لهذا القطاع "

تاجر بصل

الحقيقة أن السادات كان يعايش بلد " يتغرق " بكل ما فيها من مضاعفات سيئة على اقتصادها القومي ، و كان لابد من الاستمرار ، فأثر هذه "الهدنة" التى سميت باسم السلام كان يعتقد أن " كامب ديفيد" يمكن أن يعيد بها ما خربته سنوات الحرب في مصر ، كان يعتقد أن الأمان الذي ستحصل عليه مصر يمكن أن يسهم في استجلاب عصر رخاء جديد " (و أنا) دعوت إلى التفاوض و السلام" (و اتهموني بالانهزامية و أنني أبيع فلسطين) لقد باعها المسئولون العرب من قديم ، و نحن نريد أن ننقذ منها ما يمكن إنقاذه .. نحن متفقون على :

١- استرداد الأراضي التى ضاعت في ٥ حزيران ١٩٦٧

٢- إنشاء دولة فلسطينية تجمع بين الضفة الغربية للأردن ، و غزة ... فماذا تريدون بعد ذلك ؟

أن تتحدوا أمريكا و روسيا و هيئة الأمم المتحدة لتقضوا على إسرائيل نفسها ! كم يلزمكم من الوقت و المال ؟ أليس من الأفضل أن تعيدوا بناء أمتكم و أن تدفعوا بها إلى العصر؟ ؟ أليس من الأفضل أن تورثوا للأجيال المقبلة وطنا من العرب المؤمنين المتعلمين المثقفين ليروا رأيهم بدورهم في حياتهم و حياة من حولهم ، و ليختاروا موقع القوة و الحضارة : السلام أو الحرب ، بما يدعوه إليه واقعهم الذي نجهله و لا ندري عنه إلا الظن " و هل حسبتم أن الصهيونية هي أفظع ما ابُتلينا به ؟ أنسيتم الصلبين و المغول و العثمانيين و الإنجليز و الفرنسيين و الإيطاليين ؟ .

أيها الإخوان أن السلام يتطلب من الفرد شجاعة تفوق شجاعة الحرب . و بعد فأنا أذكركم بأنني لست من رجال السياسة و لا الحرب و لا من الزعماء، إنني رأيت من واجبي إعلان رأيي ، اقبلوه أو ارفضوه ، و الله معكم على الحالين

(أما أتهامي بالانهزامية) أعوذ بالله من الانهزامية سمة لي أو لشعبي لما أقدم على خوض الحرب عام ١٩٤٨ بلا جيش يستحق هذا الاسم ، و الجيش البريطاني يربض وراء خطوطه ، و ما كان النبي عليه الصلاة و السلام انهزاميا يوم قبل صلح الحديبية ، ولكنه هاجر مرة و نازل أخرى كأسلوب ، كأسلوب من الكر و الفر في ميدان الصراع ، و لذلك فاز بالنصر الذي استحقه

(قال البعض إنه خير لك أن تتاجر بالبصل) لو كنت أصلح لتجارة البصل لعملت بالمثل القائل " يا داخل بين البصلة و قشرتها ما ينوبك إلا ريحتها "

و قال د . سهيل إدريس إن نجيب محفوظ يعتبر الأرض مساحة ترابية معينة يمكن التنازل عنها في سبيل هدف أخر ، متجاهلا أن الأرض جزء من كرامة صاحبها ، أوافق الأخ سهيل إدريس على إن الأرض جزء من كرامة صاحبها و لولا ذلك ما ضحينا بحوالي مائة ألف قتيل و جريح ، يشاء الله أن أكون خالا لأربعة منهم ، و كذلك الساق جزء لا يتجزأ من الجسم ، و لكننا عند الضرورة نبتر الساق حفاظا على الجسم . (مهما يكن فإن) في هذه الجملة جانب إيجابي و جانب سلبي و جانب غفلة .

أما الإيجابي فهو الحماسة المتدفقة للأرض و الكرامة و المبدأ، و هو شعور عربي أصيل عرفوا به منذ الجاهلية و حتى اليوم ، لا فرق في ذلك بين كويتي و مصري إلى سائر العرب أجمعين ، و قد تصوروا أنني أطالبهم بالتنازل ، على حين أني طالبت بالتضحية ، و تضحية جزء في سبيل الكل .

أما الجانب السلبي فهو غلبة الانفعال على الردود ، و اختفاء المناقشة الموضوعية باستثناء ردين أو ثلاثة ، و إطلاق العنان للسب و القذف و التجريح مما أضفى على الموضوع طابع البدائية و المهاترة.

و أما جانب الغفلة فيتضح من تجاهل الجميع للحال التى وصلت إليها بالذات مصر من خراب و مديونية و عجز عن الاستمرار ، و ليس معنى هذا أن مصر تتخلى عن عروبتها بالسلام لأن العروبة ليست رداء نلبسه وقتما نشاء ، وننزعه حين نشاء ، و لكنها الروح و العقل و الإدارة جميعا " أنني من أنصار الجامعة العربية ، هذه الجامعة أن الله قد أعطى العرب بترولا ليضعوا العالم العربي في أرقى مجالات الحضارة و إن لم يفهم العرب ذلك فهم كفرة "
البترول ليس مجرد طاقة في أيد العرب ، إنه رسالة حضارية و دينية ، التهاون فيها نوع من الإلحاد، قديما بفضل الإسلام أنشأ العرب حضارة خالدة ، و اليوم قد وهبوا هذه الطاقة لبعث حضارتهم الخالدة"

(و) إذا كنت قد دعوت إلى التفاوض و السلام ، فالعرب الآن ينشدون التفاوض و السلام ، و جزء كبير من المجتمع الإسرائيلي ينشد التفاوض والسلام، وبالتالي يستحق الجميع المقاطعة كما قوطعت"

أهم شئ هو أن هذه المقاطعة كانت تهدد سمعتي المادية والأدبية وأصبحت مقصوراً على مصر وانخفض عدد الكتب المطبوعة ليناسب الوضع الجديد" إحساسي لما حوصرت داخل مصر. كان من الممكن أن أشعر بالألم لو أني برت في الداخل لأن الإحباط لا يستطيع أحد احتماله.. لو وجدت أن ناشري يعتذر عن نشر مؤلفاتي، ووجدت النتيجة في الداخل خرابا لكنت أصبحت في حالة أخرى". لكن الحقيقة أن قرائي في مصر ساندوني ووقفوا بجانبي، وكان من الممكن أن يتخلوا عني، خصوصاً أن السينما والتليفزيون قاطعوا أعمالي خوفاً من المصادرة أيضاً.

هذا في الداخل، أما في الخارج فقد تبين لي أنني لم اخسر أدبياً أيضاً، لأن المزورين- كثر خيرهم- عملوا بهمة ونشاط في هذه الفترة وأوصلوا كتبي إلى أماكن لم تكن كتبي قبل التزوير تصل إليها.

وقد ظهر لي أيضاً أن أجمل وأقوى الأبحاث التي نشرت عن أدبي جاءت من سوريا والعراق وكانتا تمثلان سياسياً أشد العداوات وقت المقاطعة...نستخلص من هذا أن هناك وحدة ثقافية بين الشعوب العربية ليس للسياسة دخل فيها".

استطعت أن أنظر للمسألة نظرة عامة وليست خاصة، وقد أسفت لها جداً، لأنها قرار غير حضاري، وهذا أهم من كل شئ، إنه قرار غير حضاري يطعن في تحضر العرب، لأني في نهاية الأمر لا أزيد عن كوني صوتاً مخالفاً، فكيف تعامل هذا الصوت المخالف؟ هذه هي خلاصة المسألة كلها.

هذا القرار كشف موقف العرب من المناقشة الحرة، وقد أسفت لذلك وأنت تتحدث عن الحضارة. ولاشك أن تخريب فكر ومصادرته أخطر من تخريب مستعمرة ياميت"... واحد قال رأياً خاطئاً، فليكن... هل غير هذا الرأي دولة؟ هل غير موقفاً؟ القرار في يدك أنت، وجاء من يقول لك رأياً مخالفاً... أقصى ما يمكن أن تفعله معه أن تناقشه، أو ترفض رأيه أو تقول له كما قال له هيكل ذات يوم: "خليك في أدبك أنت ما تفهمش في السياسة".. وينتهي الأمر.. إنما قرار مصادرة فإنه يمس الحضارة، وهذا آلمني فيه، ومازال يؤلمني"

أنا بشر... لم أدع معرفة العصمة من الخطأ، ربما أخطأت في موقفي، لكنه مجنون من يدعي أنني خنت لأن ما فعلته وقلته كان من منطلق خوفي على بلدي".

حكايتي مع الإسرائيليين

كانت تتصل بي رياسة الجمهورية أيام السادات، ويقولون لي عندنا الجنرال فلان سيأتي لمقابلتك، ويأتي إلى البيت مع الحرس الجمهوري. كان مكتب السادات هو الذي يتصل بي. بهذه الطريقة زارني "مليسون" و"ماتيو بيريد" (وجاءني بعثة تليفزيونية صورتني في بيتي) أكثر من مرة، وكان حديثاً يهمني أن ينشر، لأني تحدثت فيه عن حقوق الفلسطينيين"

أ. سمعت عن بعض الإسرائيليين اهتموا بأعمالي قبل الصلح"

- معظم أعمالي الروائية ترجمها الإسرائيليون في زمن الحرب عندما لم تكن هناك أية علاقة تربطنا بهم- ليست أعمالي أنا وحدي وإنما أعمال أدباء العرب- وما ترجم بعد الصلح لا يقاس بما ترجم قبله من حيث الكم. بمعنى أن خطتهم في الترجمة قد بدأت من الخمسينيات وحين تم الصلح بيننا وبين إسرائيل جاءتني الكتب المترجمة.

- لقد بعثوا يحاسبونني، فسلمت الخطاب الذي بعثوه لإدارة الأمن العام الأهرام، لأنه كان ممنوعاً أن يحدث أي اتصال مع العدو، وبعد الصلح نسيت هذه الحكاية.

وبعد عام ٧٦، تلقيت عدة رسائل من باحث أجنبي بجامعة أوروبية، أظنها كانت أكسفورد، اسمه بيليد، كان يعد رسالة دكتوراه عني، وكان يسألني عن بعض الأمور الخاصة بأعمالي، ومثل هذه الخطابات أتلقاها طوال عمري، وفوجئت بالمخابرات تستدعيني وتسألني عما إذا كانت هناك علاقة، واتضح لي أن بيليد كان جنرالاً في الجيش الإسرائيلي قبل أن يتقاعد ويقرر دراسة الأدب وهو الآن من دعاة السلام. بعد الصلح الذي كان لي رأي ايجابي فيه، تعرفت إلى عدد من الباحثين الإسرائيليين مثل سامون سوميخ ومناحيم ميلسون، وقد التقيت بهم في القاهرة، وكان أول لقاء بعد الصلح عن طريق الرئاسة، كان ذلك في السبعينيات، أخبروني برغبتهم في لقائي، وقد تم ذلك. وهؤلاء هم الذين أعرفهم من الإسرائيليين، الذين تخصصوا في أدبي، وهذا الاتصال أو تبادل الرسائل لم يتم إلا بعد الصلح وتبادل العلاقات. عندما أتى الإسرائيليون إلى مصر وزاروا رئاسة الجمهورية في ذلك الوقت كانت الرئاسة تتصل بي لتقول:"فلان في مصر يريد زيارتك".

ب. سأخبرك بمن عرفتهم. الذين عرفتهم من الإسرائيليين عناصر عملت عني دراسات دكتوراه وهم معروفون "متتياهو بيليد" وهو صديق لياسر عرفات، "ميليسون" وكان حاكماً للضفة الغربية واستقال احتجاجاً على سياسة إسرائيل التعسفية هناك. و"ساسون سوميخ" الذي يعمل أستاذا للأدب العربي بجامعة تل أبيب. الأول والثاني من أصدقاء العرب وينادون بمحاكمتهم في إسرائيل. وهم من دعاة السلام مع العرب، أما الثالث فمتخصص في الأدب فكل هؤلاء هم الذين تحدثت معهم من الإسرائيليين.

تحدثنا في الأدب ما حدثوني عن السلام ورغبتهم في السلام وأنا تصورت وقتها أن هذه مجرد لباقة منهم.... حتى ثبت لي فيما بعد جديتهم، حيث استقال "ميليسون" من منصبه كحاكم للضفة، وحين طالب الإسرائيليون بتقديم "متتياهو بيليد" للمحاكمة نتيجة لعلاقاته بمنظمة التحرير الفلسطينية ومقابلاته الكثيرة مع ياسر عرفات.

لا توجد صداقة، يحدث مثلاً أن أكون جالساً في "جليم"- على كورنيش الإسكندرية- فيدخل علينا أحدهم ويقول لنا أنا المستشار الثقافي الإسرائيلي ثم يجلس ساعة ويمضي، لكنني لم أزر أحد منهم مطلقاً.

لم يحدث شئ من ذلك بعد حرب لبنان (......) أنا دائماً أؤيد الفلسطينيين.

ج. وقد كتبت أحتج على الغزو وكيف أنه خروج على روح السلام، وتكلمت عن المذبحة والوحشية وكل ذلك (....) أعلنته أكثر من مرة في مقالاتي بالأهرام (....) الاتصال الوحيد الذي حدث أن الدكتور "سومينج" (.....) زار مصر (.....) وأنا جالس في "جروبي" وجدته داخلاً على وجلس معي كالعادة... وكانت معه ترجمة جديدة لرواية "ميرامار" أعطاني نسخة منها (.....) وهل أتاني أحد من

الفلسطينيين ورفضت مقابلته؟ إن ندوتنا هذه كان يشارك فيها ثلاثة من الفلسطينيين، ولكن دراستهم انتهت وسافروا"

العصر الثاني

أما بالنسبة لعهد الرئيس أنور السادات، فإنا أعتقد أن السادات أدى خدمة جليلة لمصر في مجال دعم الديمقراطية، وتحقيق نصر أكتوبر برغم الموافقة على مسعى السلام"

أكتوبر أعادت الروح لمصر والأمة كلها ورد السلام الذي جعل مصر مستقلة استقلالاً كاملاً منذ أيام قمبيز، وعليه الآثار السلبية للانفتاح سواء التي انعكست على الثقافة أو غيره"

فقد جاء العهد الثاني للثورة فقام بإنجازين كبيرين كان لكل منهما أثره الفعال في الأدب، وإن لم يكن الأدب في ذاته ضمن مخططاته. فأولاً قد قام بما عرف بثورة التصحيح، ملتمساً سبيلاً جديداً في رحاب الديمقراطية وسيادة القانون، والإفراج عن الرأي الآخر، ولأول مرة منذ زمن طويل تردد الصوت المعارض عالياً صريحاً في الصحف والمجلات، ومزق الستار عن خبايا العهد السابق وفظائع معتقلاته وسجونه، وخسر الأدب نتيجة لذلك وظيفته الإضافية ونجاحه المرحلي، ولم يعد للرمز السياسي معني، ولا كان في استطاعة الأدب أن ينافس المعارضة الصريحة في معارضتها اليومية، فتراجع درجات ليحتل منزلته الطبيعية بين المثقفين، ولكن تراجعه الطبيعي لم يبد وقتها تراجعاً طبيعياً، وخيل للكثيرين أن ثمة نكسة أصابته، فأوهت أركانه وحدث من نشاطه.

وثانياً فإن العهد الجديد اعتنق سياسة جديدة نحو اليسار في الخارج والداخل، وأعلن بلا تردد ألا مكان ليساري في أي جهاز من أجهزة الإعلام. ولما كان اليساريون يشكلون جمهرة لا يستهان بها في عالم الأدب فإن مصادرتهم قد أضافت مزيداً من الضعف إلى النشاط الأدبي الذي لم يكن قد أفاق بعد من هبوطه إلى حجمه الطبيعي فازداد الحال ترديا وتدهوراً، حتى أساء البعض الظن بالسلطة واتهمها بتعمد القضاء على الثقافة والمثقفين. والحق أنه لم يوجد تعمد ولا سوء قصد، ولكنها السياسة، أحسنت إلى الأدب مرة بدو ن قصد. وأساءت إليه مرة بدون قصد كذلك. ثم أدركه عصر التليفزيون والفيديو والتعليم السيئ، فبلغ السيل الزبي كما يقال، فسقط في هاوية اللامبالاة برغم استمرارية أجياله المتعاقبة في العطاء، وتفتح شبابه عن مواهب جديدة امتازت بالجودة والكثرة معاً"

دافعت عن أساتذة الجامعة

نحن أحسن حظاً من جيل طه حسين والعقاد. فلم يكن في عصرهم تليفزيون. ولعلك قرأت عن الضريبة التي دفعها أحد الحرفيين وهي مليون وثلث مليون جنيه. هذه الضريبة تعادل ما كسبه الأدباء جميعاً، وليس عندي اعتراض على ذلك، لأن سوء حظنا لم يأت من حسن حظ غيرنا. الأدب من بين القيم التي ضاعت.. مثل الأخلاق... مثل التقاليد.... هوجة الانفتاح ضيعت الثقافة والأدب.

أفهم الانفتاح إنك تجيب مستلزمات إنتاج: المصانع.... إحلال وتجديد... وهذا غير الصورة التي بدأ بها الانفتاح... يا راجل أنا كنت داخل السوبر ماركت- أجد الزبادي مستورد من الخارج- كل واحد عايز يكسب يجيب أي حاجة ويبيعها بأي ثمن. وكان هذا تخريباً لأمل البلد وصناعاتها الوطنية" فقد حدثت تغييرات اجتماعية في مصر أثرت بالضرورة على الثقافة، كان ثقافة الطبقة الوسطى..... كانت صفوة البلد التي تعلمت وتثقفت، فكان الأدب لهم والمسرح لهم والغناء لهم .... جاء الانفتاح فجاء معه الحرفيون والعمال كأصحاب أموال، فأصبح الفيلم لهم والموسيقى لهم والغناء لهم والمسرح

لهم... هؤلاء جاءتهم الأموال لكن الثقافة لم تجئ بسرعة كالمال فكان لابد أن تهبط الثقافة لهم، وأنا شاعر بهبوطها، ولكنني لست حزيناً لسببين:
الأول: هو أنه لا يصح أن ننظر نظرة قاصرة لأن الثقافة هبطت... لكن توجد ثقافة معقولة عوضت فإنا (كنت) أمشي يوم الخميس في طريق سقارة مع الحرافيش، فأرى في قرية هناك حوالي ١٠ أجهزة تليفزيون أمام بيوت عبارة عن عشش، ومعني ذلك أن عامة الشعب في القرى يمتلئ وجدانهم الآن بأخبار وبرامج وبأغان... بدراما، الثقافة من هذه الناحية وبفضل التليفزيون انتشرت انتشاراً لم يكن في مقدور أي مصلح أن يحققه بدون التليفزيون ولو في ٣٠٠ سنة. وهذا جانب إيجابي رغم الهبوط في مستوى المواد المقدمة، ولكن ما يعزي عنه هو أن الطبقات الشعبية التي كانت تعاني الفقر من أيام الفراعنة تحسنت أحوالها، وفي النهاية قيمة الإنسان أكبر من قيمة الفن. الفن قيمة ولكن قيمة الإنسان أعلى... وهذه الطبقات أصبحت تجد المآكل والمشرب والملبس، وتحسنت أحوالهم ودخل أولادهم الجامعة. ومن هنا بعد جيل أو اثنين ترتفع الثقافة من جديد لأن هؤلاء يصبحون جمهور المسرح والسينما وغيره وكل البلاد مرت بذلك، لكننا نعاني من أنانية الطبقة الوسطى التي تبحث عن قيمتها حتى لو خربت البلد لدرجة أنني (كنت) أقرأ لاشتراكيين يهزئون من هؤلاء الحرفيين!!! وكنت أسألهم : ألم تكونوا تدخلون المعتقلات من اجل الحرفيين؟"

مازلت مؤمناً بإيجابيات السادات كنصر أكتوبر والسلام، ولما هاجمت الفساد في روايات مثل "أهل القمة" و"الحب فوق هضبة الهرم" كذلك في مقالات مباشرة أكثر من مرة، ولقد اتصل السادات أكثر من مرة بعلي حمدي الجمال رئيس تحرير الأهرام محتجاً على بعض وجهات نظري، وعقب حوادث ١٧ و١٨ يناير المشهورة خطأت الحكومة حتى اضطر السيد- ممدوح سالم رئيس الوزراء آنذاك أن يرد عليّ في الأهرام وهذا مسجل".

كنت أقول أن السادات بعد أن حقق كل هذه المكاسب وصعد إلى القمة عن جدارة، فقد الكثير بسبب اعتقالات ١٩٨١"

وبعد الاعتقالات الشهيرة في أزمة سبتمبر ١٩٨١، دافعت في مقال صريح عن أساتذة الجامعة الذين نقلوا إلى أعمال أخرى، ويشهد بذلك الدكتور عبد المحسن طه بدر أستاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة، ولقد زارني في كازينو قصر النيل شاكراً أمام أعضاء الندوة"

والحقيقة أننا كنا جميعاً قد عتبنا كثيراً على السادات في أيامه الأخيرة، حيث كانت انفعالاته قد وصلت إلى أبعد مدى، ولم يعد يتحمل أية خلافات معه في الرأي ووصل به الأمر إلى أن أودع المجتمع السياسي كله تقريباً في السجن. لكني مع ذلك كنت مدركاً لمآثره الكثيرة، ولم أكن أحب أن ينتهي صاحب حرب أكتوبر المجيدة وصاحب التعددية الحزبية مثل هذه النهاية المفجعة وفي نفس يوم عرسه يوم الاحتفال بذكرى حرب أكتوبر"

لن يستطيع الجيل الذي عايش حرب أكتوبر أن ينسى مغزاها التاريخي العظيم، لقد أنقذت الروح العربية من وهدة اليأس وأعطتها ثقة بنفسها في مواجهة الصعاب، وأول من يذكر في هذه المناسبة هو أنور السادات بطل هذه الحرب، والذي صار بعد ذلك بطل السلام أيضاً، لكنه راح ضحية للتطرف والإرهاب.

لقد كان السادات صاحب رؤية ثاقبة وبعيدة المدى، وكل من عارضوه كانوا ينظرون تحت أقدامهم، بينما كان يرتفع هو فوق المشاكل الآنية لينظر إلى التأثير بعيد المدى الذي كان لسياسته أن تحققه فقد يظل هناك مالا نرضى عنه في حياتنا، لكن علينا أن نتذكر، ماذا كان سيكون الوضع لو لم تحدث هذه الحرب، فقيمة السادات تزداد مع مرور الزمن"

ثم علينا أخيراً أن نتذكر هؤلاء الذين لا يذكرهم أحد، وقد لا يعرف أسماءهم أحد، وهم الآلاف من الجنود الذين وهبوا حياتهم فداء للوطن والذين بدونهم لم يكن من الممكن أن يتحقق الانتصار"

منتهي الحزن

كنت قد سافرت إلى الإسكندرية أنا وابنتي الصغرى (فاطمة) لقضاء إجازة أعياد أكتوبر، وأثناء جلوسي إلى جانبها بالسيارة كنت أتابع وقائع الاحتفال في الراديو.

وحين وصلنا الإسكندرية تناولنا الغداء ونمنا، وبعد أن صحوت جلست قليلاً في البلكون فوجدت إحدى الجارات تشير إلى من بلكونتها وكأنها تقول: هل سمعت الراديو؟ فتصورت أن لي حديثاً يذاع في الراديو فأومأت برأسي مبتسماً ودخلت.

ثم نزلنا بعد ذلك أنا وابنتي إلى وسط البلد لنذهب إلى السينما، وأجلست فاتن في محل مقابل لسينما مترو حيث طلبت أيس كريم وخطوت الشارع إلى السينما لشراء التذاكر، لكن ما إن وصلت إلى السينما حتى وجدتها مغلقة، فلم أفهم كيف تغلق السينما أبوابها فذهبت إلى أحد الباعة الذين يفترشون الطريق، وكان يبيع الفول السوداني واللب وقلت مستنكرا: إن السينما مغلقة! فقال: طبعاً، قلت له: لماذا؟ قال: الرئيس قُتل. قلت غير مصدق: أي رئيس؟ الرئيس السادات؟ قال: نعم فعدت إلى ابنتي مهرولاً، وعلامات الذهول على وجهي لأقول لابنتي الخبر فقالت لي: لقد أخبرني الجرسون بذلك منذ لحظات.

وعدنا إلى البيت في حالة اضطراب وقلق، وفي الصباح الباكر قلت لابنتي فاتن: عودي بي مرة أخرى للقاهرة لنرى ماذا يحدث للبلد، وطوال رحلة العودة، وأنا جالس إلى جانب ابنتي كنت أدعو الله ألا يكون من قام بهذا العمل أحد الأقباط، فقد كانت هناك في ذلك الوقت اضطرابات طائفية ما بين المسلمين والأقباط غريبة تماماً على مجتمعنا، لكنها كانت تهدد أساس بنيانه، ولا شك أن الباعث على الاغتيال كان سياسياً لكن الفاعل كان يمكن أن يكون مسلماً أو قبطياً"

كنت في منتهى الحزن الذي يمكنك أن تتصوره، وأظن أني كتبت في وجهة نظر "بالأهرام" متسائلاً: كيف يقتل الرجل في يوم نصره؟"

يوم أنور السادات حدث لي نوع من التأمل المأسوي. هذا الرجل الذي حقق النصر والسلام... والنهاية مرعبة"

وقد قيل (إن) نبوءة مصرع السادات في رواية "ليالي ألف ليلة" والحمد لله أن هذه الرواية نشرت في جريدة مايو (جريدة السادات) فلو أنها تأخرت أسبوعين لم تكن ستنشر ، وقد كتبتها قبل مصرع السادات بسنة أو سنتين"

كتب عنها د. يحيي الرخاوي أنني استوحيت أحداثها من مقتل السادات- وطبعاً لم أكذبه"

لم أتنبأ بشئ عن وعي أبدا، إنما وأنا أقرأ النقد لبعض أعماله كانوا يشيرون إلى نوع من التنبؤ مثل "ثرثرة فوق النيل" قالوا إن بها إشارات إلى قرب وقوع كارثة محققة تمثلت في ٥ يونيو، وفي "ميرامار" إحدى شخصياتها تنبأت بعودة الرجعية والرجوع إلى أمريكا، "بداية ونهاية" كأنها نبوءة بما حدث ولكن أثناء كتابتها قبل الثورة ما دار شئ من هذا في ذهني، ولو تسألني الآن: لماذا اخترت الكلية العسكرية- البطلة، لا أستطيع أن أجيب، والأمر الذي لا شك فيه أني كتبت الرواية ولم أكن أشعر بأي درجة بأن الأعمال التي تنتهي بتنبوءات كيف تتكون وكيف يبدعها صاحبها، هذا يقتضي التأمل، ولنفرض أننا نفسرها بلا شعور الكاتب، فكيف يحوى لا شعوره كل هذه الرؤى بينما عقله الواعي قد فوجئ مفاجأة كاملة بحركة الجيش يوم أن قامت.... وكان في شلتنا في "قهوة عرابي" بالعباسية عدد من الضباط الأحرار كما تعلم لم يقولوا لنا شئ، ولم أكن أتصور أن الجيش ممكن أن يتحرك مع وجود الاحتلال الإنجليزي... فالحقيقة أنا لا أستطيع أن أدعي أن النبوءة جاءت بتخطيط، ولكن المذهل فيها تطابقها مع الذي حصل"

بالنسبة لقصة "يوم قتل الزعيم" هداني إحساسي أن أبدأها بمحتشمي الجد..... إنه أقدم الكل، والأصلح لتقديم الجميع... أصلح من الشاب المشغول بمصيبته- والبنت كذلك.. هذا الجد كان هو الجالس المتأمل الذي يرصد حركة الجميع

خذ بالك هذا التفسير جاءني فقط بعد أن كتبت الرواية وليس قبل كان من الممكن أن تقدم الرواية براوٍ هو المؤلف... راوٍ ينوب عن المؤلف.... وكان من بطلها: علوان، أو خطيبته رندة، أو الجد.... لكن بسبب ميلي الشديد للخروج من عملي بشكل مطلق، فضلت أن يعبر كل شخص عن نفسه بنفسه... إني مغرم بخروج المؤلف من عمله... هذه مسألة مزاج لا أكثر ولا اقل أما الفكر السائد ومدى ضغطه لأي درجة تقول أولا تقول فليس مشكلة لأن في الرواية الذي يقول هو غيرك، وليس من الضروري أن يكون هو رأيك... إن موقفك يتبين من الكل، من مجموع العمل... الحياد حياد كاذب مهما ادعيت أنك خرجت من العمل لأن الشخصيات هم اختيارك، وكذلك النهايات من حيث النصر أو الهزيمة... فقط موقفك يمكنني معرفته من النظر للعمل ككل وليس من هذا الرأي أو ذاك على لسان هذه الشخصية أو تلك... إنها تقول ما تقوله على مسئوليتها.. لا أستطيع أما شخصية إنسان ملحد مثلاً أن أجعله يسبح بحمد الله أمانتي أولا للعمل الفني... مثلاً اخترت (أ) الذي رأيه في الزعيم الفلاني أنه غير جيد مع أن رأيي أنه زعيم جيد أو العكس... لا .. أجعله يقول رأيه... لا ألوي شخصياته... هذا تشويه"

لم تكن السيدة جيهان (السادات) قد قرأت الرواية، اتصلت بي بعد أن علمت بخبر روايتي "يوم مقتل الزعيم" وذهبت إليها في منزلها بالجيزة، وقابلتني مقابلة جميلة جداً بالرغم من أنها كانت في حالة انزعاج من أمر الرواية المكتوبة عن زوجها أنور السادات" ..... وسألتني عما هو مكتوب، فقلت لها: إنه نص روائي وليس كتاباً سياسياً، ولا توجد في الرواية أسماء على الإطلاق، وانتهى الأمر عند هذا الحد"

بطل مأساوي

أما كتاب "أمام العرش" فهو حوار مع زعماء مصر، أعتمد فيه أساسا على الحقائق وتفسيري لها، فهو ليس كتاباً فنياً على الإطلاق"

إن السادات وعبد الناصر كلاهما بطل مأساوي مثل أبطال التراجيديا اليونانية، وانتهى كلاهما نهاية مأساوية"

عبد الناصر كان نصيراً للفقراء وألغى الطبقات، لذلك فإن المصري العادي لا ينسى هذا، ويغفر كل الأخطاء، لذلك تجد في كل مظاهرة يحيون عبد الناصر برفع صوره والهتاف باسمه، وكان يجب أن يأخذ السادات مكانه إلى جانب عبد الناصر، لكن للأسف لم يحدث هذا (ولكن) بمرور الزمن سيحب الشعب المصري السادات كما يحب عبد الناصر، فكما حرر عبد الناصر الطبقات الفقيرة، فقد ذقنا طعم الانتصار على يد السادات الذي حقق استقلالنا التام باستعادة سيناء، والتاريخ لن يترك خيراً فعل عبد الناصر أو السادات من أجل شعبهما، لأنهما قدما أعمالاً عظيمة" وفي رواية "أمام العرش" أعطيت كل منهما ما يستحقه وما يؤخذ عليه، على قدر الإمكان، وفي النهاية أدخلتهما الجنة" لإنجازهما العظيمة".

كيف أكتب؟

الكتابة ليست وظيفة يحال بعدها الكاتب إلى المعاش، وهناك مقولة فرعونية قديمة وجدت في إحدى البرديات تقول" الكاتب هو الوحيد الذي لا يرأسه رئيس ولا يحال إلى الإيقاف، وكلما مر به الزمن ازداد نوراً"

نجيب محفوظ
نصف الدنيا
٢٠٠١/٢/٤

البداية دائما هي الأصعب... الوقفة الأطول تكون دائما عند البدء
لا تخطيط ولا تلقائية!
المسألة كالأتي:
يصح في اللحظة التي أقول لك فيها سلام عليكم تأتيني فكرة.. وفي اللحظة التي أشرب فيها كوباً من الشاي تأتيني فكرة... بداية هي لحظات ونقط من التلقائيات تجمعت... هناك كاتب يحب أن يكون على هدى عندما يبدأ فيستعين بخطة، وهناك من يقول: لا..."تيجي في السكة"... طبعاً هناك عمل يحتمل هذا الذي يأتي في "السكة".
القصة القصيرة مثلا إذا لم أوفق في كتابتها أرميها... لكنني لا أستطيع أن أعمل ٨ شهور في رواية ثم أترك ذلك كله للحظ وللصدفة... لا تخطيط ولا تلقائية... المنبع في كل الحالات التلقائية غاية ما في الأمر أنها لا تكون على ورق .
التخطيط يمسك بالخطوط الأساسية يعني مثلاً أنا فاهم في موقف ما أن "س" يقابل "ص" ليبلغه أنه سوف يرد ما عليه من دين مثلاً. أثناء الكتابة تتغير أشياء كثيرة.
..... التغيير يمس أحياناً الجوهر. أتذكر، في إحدى رواياتي كونت شخصية على أنها هامشية جدا فإذا بها تصبح أساسية جدا.... كما يصل التغيير للعلاقات.... تتصور أن شخصية ما تلتقي بأخرى وينصلح ما بينهما.. أثناء الكتابة تتفتح لك الشخصيات- حين تعيش من داخلها- تجد أن الصلح مستحيل. مثلا في قصة "يوم قتل الزعيم" كان لابد أن يأتي ما أتي... الواقع له منطقه وتداعياته الخاصة التي لا تتوقف أو تتخلف من أجل شاب اسمه "علوان" أو بنت اسمها "رندة"
سألت نفسي... كل أبطال قصصي كانوا يسقطون فلماذا هذان؟... كان هناك وازع عندي لا يريد الواضح أننا بدأنا نفزع من الفساد... عدم سقوطهما هو مقاومة.
أدخلت على الواقع ما يجب أن يكون... لماذا؟ لأنني أتعلق في مثل هذه اللحظات بما يجب أن يكون؟
كل الشخصيات التي قدمتها وفيها شئ من الشر، كان اتهامي للظروف المحيطة بها وليس لها، لم أقدم شخصية بشكل يجعل القارئ يكرهها. لا تغيب عني أبداً الجوانب المضيئة من الشخصية مهما كانت بشاعة الجوانب الأخرى... أنا لا أكره الناس ولكنني أفهمهم على حقيقتهم، في واقعهم القاسي.
أحبهم في واقعهم القاسي كل شخصية ولا أصل واقعي، من هذا التفصيل الصغير يمكن لي أي أبني حياة كاملة، أضيف من عندي ما يناسب العمل، وكثيراً ما يقرأ الأشخاص الذين كتبت عنهم في كتبي ولا يتعرفون على أنفسهم، ولو تعرفوا عليها لكانت الوقعة وحشة".

البداية دائما عند لا تخطيط ولاتلقائى المسالة كالاتى :-
يصح في اللحظه التي جربت كل أنواع لا أبا لها وقد اكتملت ونضجت تماما ولا يكون أمامها ألاكما يقولون بلغة المعمار .

أعمال أخرى أبدأها وأهم أجزائها فقط هو الوضح في ذهني ٠٠ أو محورها الرئيس ، وهذه الأعمال غالبا من النوع غير المتعدد الشخصيات مثل الطريق على سبيل المثال لكن فيه أعمال أبدأها من درجه الصفر ٠٠٠ وتتضح وتستوي على الورق مثل معظم القصص القصيرة

أما الكتابة الثانية فليس لها مده زمنيه محدده قد أعيد كتابه عمل في سنه أواكثر وفى اى حاله من هذه الحالات فأنا أكتب الكتابة الأول بسرعة اكتب كل ما يخطر على بالى لتنهى صوره العمل المبدئية في شهر على أقصى تقدير يوميا ٠٠يومبا تنهى الكتابة وأنا خلصان كل حواس الفنان ٠٠٠ عقله ٠٠قلبه يشتعل معا ه وهو يكتب ولما ينهى يكونوا تعبوا أنا أثناء الكتابة حر مئه في المئه ،ولم يحدث قط أن تنازلت عن حريتي بعد النشر ،حين أسمع بعض التعليقات ، اشعر أحيا بالخوف الكاتب يعبر عن نفسه وليست هناك لحظه يمكن أن يفرق فيها بين الوعي واللاوعى احدهما الى الأخر الكتابة عمليه شديدة التعقيد فى أعاده امتلك تخطيطا ذهنيا للرواية سابقا على الكتابة ٠الكتابه ليست مجرد تنفيذ لهذه الخطة ، لان الكتابة هي عمليه الكتابة ذاتها الخطة فكره عامه جدا ، أما الكتابه فهي الرواية ويحدث أثناء التبيض ان اغير قليلا هنا اوهناك كوميدي واذا بها تنهى بمأساة وحدث أيضا ان يبات تحت المظلة و(حكاية بلا بداية ولانهاية)و(شهر العسل وليس في ذهني ايه خطه وانفعال او موضوع بدأت هذه الأعمال هكذا وهكذا وانتهت على النحو المكتوب أين الوعي وأين اللاوعى فى ذلك كله ؟لاادرى قليلة جدا الاعمال التي بدت عندي من فكره والأغلب أنها تبدأ من شخصيه أو عاطفه أو موقف أوعلا قه

لست محايدا

ككتب السراب عن عقد جنسيه في حياه البطل ولم يكن في ذهني شخص بعينه ، لكن أحد أصحابنا كان له صديق مجنون ولديه نفس العقده ، فذهب اليه قائلا :نجيب كتب عنك رواية ن فأخذ يطارد نى بمسدسه وجاءني ، فقلت له (ما تبقاش عبيط وتصدق كلام الروايات ثم اختفى فقد سافر إلى الكويت ومات هناك الإنسان ولم يجامل الناس وفى الفن يظر هم على حقيقتهم ٠فى الحياة ألاجتماعيه تتعرف كما يجب أن تتصرف ولذا لا نكون صادقين تماما عندما نكتب تختلف الأمور الصدق فى الأدب فقط ، ولكني في الحياة أحاول أن أكون أمينا بقدر الامكان هناك ظاهرة لأتغيب عنى أبدا وهى اننى في حياتي العادية أحافظ على مشاعر الآخرين على قدر طاقتي بمعنى أن معاملتي مع الناس تقوم على التماس الأعذار لهم بخلافى فى الرواية فأنا ابدو كناقد ينظر إلى العيوب وينقب عنها وكأنه يعوض بذلك أسلوبه في الحياة العملية ففي الحياة العملية لا انظر عادة الا الى الجانب الحسن من الشخص الذي أقيمه ،وأتسامح فى أخطائه في الرواية يحدث العكس تقريبا هناك نقطه أخرى كانت موضعا لتأملي بالنسبة لكثير من الشخصيات التاريخية في تأثري وانطباعي ثم فىحديث المعاصرين لهذه الشخصيات عنها وقد فسرتها بأن الإنسان انسان له غرائز تربطه بعلم الحيوان وله عقل وضمير وهو الجانب المستخلص من الحضاره والمجتمع الذي يربطه بعالم الانسانيه أذن لكل إنسان جوانب ايجابية وجوانب سالبيه وحين تتعرف الى شخص من خلال أعماله فأ نت تتعرف علىايجابياته فمثلا (محمد على) عرفناه كمشيد للقناطر الخيرية وترعه المحموديه والمصانع والجيش والامبراطوريه ،الجانب الأخر له هو (محمد على) المتعجرف ، الانانى الغادر الذي يستضيف الناس ثم يقتلهم وينفى الذين انتخبوه ليصبح واليا في اليوم التالي لاختيارهم له والإنسان هكذا دائما ،وليس بمقدوره ان يكون مجرد ايجابيات والغرب واقدر منا على تصوير شخصياته العامة الرئيس بحسانه وسيئاته هو ومن حوله أما نحن فحين نتعرض لشخصيه تاريخه فإننا نحولها إلى دمية وكأنها منذ ولادته كانت شخصيه تاريخية كجميع الناس يميل قلبي إلى أناس وينفرد آخرين ولعله مما هو جدير بالذكر والملاحظة أنى لأمارس الكراهية أكثر من لحظات فعلا لاننى لا أحب أن ألوث نفسي لان الكراهية تلوث النفس

‘**والدخول في عداوات عقيمه والوقت أغلى من أن** أضيعه فى الخناق ، وأنا طول عمرى تعرضت لصداقه الأصدقاء كما لعداوة الاعداء فلو كنت تفرغت لعداوة الأعداء والرد عليهم والدخول معهم فى معركة لكان نصف انتاجى قد راح في المهاترات ، فأحسن شئ انك تتوكل على الله وتعرض عما عدا ذلك أما الشعور بالغضب (فاني اعرف كيف أهدهده وامربه واستمر فى طريقى وعندما أكتب عن أناس التزام جانب العدل والانسانيه ‘ولعل ذلك يفسر أنه لايوجد فى رواياته الشخص الشرير بالمعنى الدقيق لتكن الكلمه الانادرا جدا ولعله لايوجد والاغلب ان يوجد أناس بما فيهم من قوه وضعف وخوف وشر أحيانا أتعمد الانتصار لطرف اخر بشرط الايهز السياق والشخصيه (واشعرا احيانا انه انتصار له من باب التمنى (حتى) ولو بدا عكس ذلك)

ولكني أتعاطف مع شخصيته يظهر تعاطفى معها بصوره أو بأخرى فى الروايه ٠٠٠من يريد أكثر هو من يريدنى أن أخرج وليس هذا هو الفن فى الثلاثية أوفى الحرافيش تجدني على الحياد ، ولكنك تشعر باننى مع من وضد من وذك رغم الحياد أنا أعرف أمر ا واحد هو أن هذا العالم الذي انتهي و بمنتهى الحياد فانا أفعل ذلك وأنا لست محايدا

أنما حدثتك عن الكتابة الصادقة ٠٠٠٠ لماذا

لان هناك كاتبا أخر مثلا يعرف أن النقد له اتجاه خاص ٠٠٠ وفى الحال يستحضر بطلا من العمال مع انه عمره ما شاف (عامل في حياته (يضحك ثانيه) ٠٠٠ إنما هو شحاذ نقدا ٠٠٠الصحيح والطبيعي أن تكون الكتابة هي الانعكاس للرؤية الكاملة للكاتب في الحياة والناس والكون) حوداث قصه يوم قتل الزعيم مثلا كلها وأشخاصها العلاقات والمعاناة عشتها عن طريق المشاهد فى ال١٥ سنه الماضية

حين امتلئ بها ، وتأتى مناسبة لتحريكها مثل الحب بين الشابين والصعوبات التي وقفت فى سبيلها تجدني التأمل الموضوع الذي يترتب بطريقه غامضة عفويه ٠٠ نظره عامه على الفترة وإحداثها ، واجد نفسي قد وقفت على عتبة المستقبل ، أخمن الاتى أيضا ٠٠بالضبط كما لو أحضرت كوبا مشبعا ثم ترمى فيه بذره تتجمع حولها شبيهاتها ٠٠فى النهاية ربما ظهر كما لو اننى أردت في هذه القصة التعبير عن ثلاثة أصوات أو ثلاثة أجيال ٠٠كل هذا يأتي بطريقه تلقائية بحته)

البدء ياتى في شكل إلحاح عاطفي معين في وقت ما٠٠٠فى الخطوة الثانية يدور حول حادثه أو موقف أو شخص ، وبالتأمل تتكون بنايه جزء منها أتخيله قبل الشروع في العمل ، وجزء منها يتكون من وحى القادم ٠٠اثناء العمل

أجيال ثلاثة عاشت أو تعايشت معا في فتره زمنيه مليئه٠٠الجد : محتشمي زايد هو الذي بدا لرواية ٠٠قدم أشخاصها ، وقد أكثر طبيعة زمنها

وقفه كبيره عند كل بدايه ٠٠٠ ربما كانت اطول الوقفات فى الروايه كلها ٠٠٠ من اين ابدا ؟٠وباى كلمه ؟وباى عباره ٠٠ لكننى ارجع واذكرك ٠٠ فى مجالس السمر ربما تسمع حكايه واحدة من اكثر من صديق ٠٠٠تجد ان احدهم قد عرضها بطريقه لم يقصدها وانما فقط طريقه عكست مزاجه ويبقى حظه من التوفيق فى جذبك او عدم جذبك مبنى عليها ٠٠كم من حكايات عاديه سمعناها كانها اخبار لكننا كنا نسمعها مثلا من فم الشيخ زكريا احمد فتصبح فى غايه الجد واظرف ٠٠مع انه لم يقل او يضف جديدا .

كلنا نتكلم ٠٠كلنا نسمع حكايات وتقول نكتا لكن الاستعداد الاصلى واضح ٠٠هناك من ينهى نكته فتسأله :وبعدين ؟. تحسبها خبرا ٠٠ وهناك من تضحك له قبل ان يقولها استعداد ٠٠٠ وربما وجدت كاتبا بارعا فى تخطيطه الروائي والبناء والهدف والمعنى ولكن لاجاذبيه له ٠٠٠ ونقول هذا الرجل لم يأخذ حظه مع القارئ ولا مع المثقف ٠٠ وهناك من هو اقل منه فى الميزات لكن عنده قوه الجذب يعنى القصاص يجب ان يكون قصاصا اولا ماهو القصاص الذى يعرف يحكى حكايه ٠٠ اذا لم يعرف فهو مفكر كبير ربما ، أو عبقرى‘ او مصلح اجتماعى ٠٠

لكنه ليس قصاصنا ...هذا الجانب ضعيف فيه ...تمام مثلما تصادف اثنين احداهما جمليه لاعشاق لها...والثانيه اوحش وما اكثر من يدرها .. كنت اسمع الحكايه من الشيخ زكريا احمد ثلاث ساعات ولاامل .. من غيره لااستطيع هناك انواع اخرى للكتابه تخضع اكثر للمنطق والعقل ..خذ النقاط .. تقول .. سابدا من النقطه الفلانيه .. فيعرض المخرج : لاهذه البدايه لن تلفت الانظار .. نبدأ من الموقف العلانى ..

لكن فى عملك الروائى انت مع نفسك فقط ، على عكس السيناريو والسينما وعلى عكس المسرح الروايه هى الفن الذى يختفى فيه الجمهور لاكبر درجه ممكنه ، فضلا عن انك لاتسطيع ان تجرب كما فى المسرح حيث هناك جمهور يقول لك انت اخطات او اصبت .. لذلك فى الروايه تعتمد على الشئ الوحيد الذى نثق فيه وهو احساسك ليس فى غيره

الواقع .. الحياه هى ملهم الكاتب تفاعله مع البيئه ، الناس الثقافة السائدة هو ما يكون رؤيته وشخصيته ...عندما يكتب الكاتب روايه ما الذي يفعله ؟يأخذ هذه العناصر ويعيد تكوينها لتعطى معنى ...بالطبع هو ليس كاميرا او جهاز تسجيل . هنا كيت وكيت وهذا راح وهذا جاء وليس مجرد اجتماعي يدخل زقاق المدق ليقول ان عرضه كذا وطوله كذا ..وهذه تزوجت اما هذه فشلت .. هذا علم وبحث . اما الكاتب فلا يدخل زقاق المدق من اجل هذا وانما ليعينه على التعبير عن شئ داخلك .. عندما يحدث اتال بينك وبين وبين زقاق المدق يثير فيك شحنه مطلوب التعبير عنها كلنا قرانا حكايه سفاح الاسكندريه محمود امين سليمان هل تذكره ؟

انا جننت به فكتبت اللص والكلاب لكن ليس سعيد مهران فى اللص والكلاب هو نفسه محمود امين سليمان وإنما ترجمه فنيه له بالنسبة لمؤلف معين .. كان من الممكن أن يأخذ كاتب ما حكاية سفاح الاسكندريه ويجعل منها روايه مغامرات او قضيه محكمه او روايه بولسيه ممتعه لكن بالنسبه لى اخترتها لماذا ؟..لاعبر عن ذاتى ..الفرق بين اللص والكلاب ...وحكايه محمود امين سليمان التى قرائها فى الصحف هو الفرق بين الفن والواقع وقس على ذلك روايه يوم قتل الزعيم ..اصل الواقعى موجود ايضا ، وهو الاساس ولولاه لما اثيرت الكوامن ...ولكن لاحظ مهما بدا من وجود الاصل ودقته ومهما بدا من اعتماد الكاتب على الواقع فهو ذاتي، ويعتمد على المؤ لف ..هذا جوهر كل عمل ادبى .

تحذير المازنى

مادة القصص منبثقة من الحياة بأشمل معانيها الحسيه والروحيه : كل منظر كل شخص كل موقف كل فكره كل أولئك ماده للقصص وله كراسة حافلة بالاشارات والملحوظات، وهى تخطرعلى بالى من آن لان وفى اى مكان وعند اى وقت أفكر لحظه فى وأخرىفى هذه واخرى فى تلك وكأنى أفكر بلا غايه ولاهدف وبين حين وآخر وأستعرضها فى الكراسه فيتضح له أن بعضها ينبض بالحياه وانه قد بلغ درجه من النمو تصلح للبدء فى مستوى أخر من التفكير وهو التفكير المنظم الدائب المستمر الذى ينهى الى شكل محدد يصلح للتنفيذ.

وعند مايكون الكاتب بلا فلسفة فكل شئ يصلح للعلاج ، ويتقدم السن والنضج وتصبح له اهتمامات خاصه وفكره محدده فتقل استفادته من مادته العريضة ولا يصلح لفته منها الاما يمكن الاستفادة منه فى التعبير عن اهتمامه وفكره ولذلك كنت أضيق في بدء حياتي الادبيه بكثرة الموضوعات وبت في النهاية أشكو قلتها بل ربما مرت أعوم وأنا فى الانتظار العبرة ليست بوجود المادة اوعدمها ولكني كأنما ابحث في الحياة عن قالب يصلح لانفعاله الخاص دون ان اقصر المادة على تلبيه افكار عنوه أو ان اكتشف فى الأحداث معنى يهمنى حقا الرواية تجسيد لرؤية معينه ،تأكيد لوجهه نظر هذه هى النتيجة الحتميه للكتابة لن اقول لك ان هدفى هو تحرير الانسان و.. ومثل هذا الكلام – وان كانت اجابه غير خاطئه –لكن لابد ان نعود الى الاصل ..انا كتبت وانا غير مثقف على الاطلاق لااعرف ايديولوجيه ولاتفكيرا

اجتماعيا ولاهدفا ماديا ولا حتى اذا ماكانت هذه الكتابه ستنير ام لا ٠٠ لكن كان هناك دافع حين احققه يحدث سرورا مقابله ٠٠٠

دافع وسرور ، حقيقه الكتابه لاتزيد من هذا ٠٠فى اثناء العمر ان تنضج وتصبح لك اهداف ٠٠لماذا لاتدخلها من اجل الكتابه ؟ ربما بعد ذلك تجد ان حياتك اعتمدت عليها ماديا ٠٠ وتصبح الماده بذلك ضمن الاهداف٠٠ اى انك ستجد الكتابه اصبحت عمليه مركبه تحقق اهدافا اجتماعيه ومثلا عليا واخرى ماديه ٠٠ وتنسى أصلها البسيط ٠٠ وتسمع من يقول لك ٠ من اجل تحرير الإنسان ٠٠ لم يكذب بالطبع لكن المسالة ابسط ٠٠٠ هي غزيرة مثلما تلح عليك في شكل جوع وحين تأكل تشعبها ٠٠ هذا هو الأصل اما أن تأكل بعد ذلك بالبشامل أو التوابل او المكسرات فهذه مسالة أخرى الرغبة في الكتابة ليست هي كل شئ لكنها ضرورية فبدونها لأتكون هناك كتابه ،واذكر اننى فى فتره من حياتي ذهبت عن هذه الرغبة ، وقد كانت لدى آنذاك مجموعه أفكار وموضوعات احفظ بها في عدة كشاكيل لكن لم اكتب منها شيئا ‘وكان ذلك في الفترة من ١٩٥٢ ميلادية إلى ١٩٥٦ ميلادية وهى سنوات الجفاف في حياتي وأنا فى حاله بحث عن الموضوع الذي يمكن أن يهز وجداني ويتخلق إما فى شكل أحداث روائية ‘ فالموضوعات حولنا في كل مكان وقراءه الجريدة تكفى لا عطاء الكاتب أكثر موضوع لكن هنا ك دائما موضوع معين هو الذي (يشك) مع الكاتب وهو قد يجده في الجريده او فى حديث لصديق او فى حادثه شخصيه أوقد يختلقه من خياله ‘وهذا هو الموضوع الذي يهتز له وجدان الكاتب والذي يدفع الاديب إلى الكتابة ،بينما يمكن ان يمر عليه موضوع أخر مرور الكرام ٠ ومن الصعب ان اصف هذه الحالة التي يلمع فيها أمام الكاتب شئ كالبرق لكنى استطيع ان اقول أن الكاتب حين البرق فان تلك تكون هي بداية العملية الابداعيه فهذه مسالة أخرى معنى هذا ان يكسب الكتابة في نظري لها دافع حيوي للإنسان ،اى لبعض الناس قد تحتم على صاحبها هذا النوع من النشاط وقد يكون فى علم من علوم الانسان مثل علم الحياه او علم النفس تفسير ذلك بدانا كجيل نتخصص فى القواعد التى يكتب بها ٠٠ بعد ذلك اصبح المهم هو ما يناسب وترتاح له ربما سمعت ان هذه الطريقة ممجوجة وملعونة ومع ذلك اكتب بها ٠٠ حتى في البداية كان لي قدر كبير من الاستقلال بدأت بنوع من الواقعيه كنت اقرا ايامها فى الأدب الاوربى لكنى وجدت ان خان الخليلي وزقاق المدق الان يكتب بطريقه أخرى كانت شجاعة خاصة اننى أيامها كنت أضع الفن الاوربى في راسي على انه الفن الصحيح الوحيد كيف تركت الحديث للقديم ؟لاننى شعرت أن مارايد أقولهلا يهتم الابالقديم بعد ٠٠هذافى الحرافيش مثلا كتبت كما أحب لا اعرف إذا كان مع القاعده او ضدها فيما اعتقد لايوجد عمل لى الاوهو نابع من الواقع وشديد الصله به مهما بدا فى مظهره الخارجى من الغرابه او الشذوذ لان الكاتب قد يلجأ الى الفانتازيا ولكن عينه على الواقع وانا من النوع من الكتاب قد اجرد العمل من الواقع فيبدو تجريديا ولكن للوصول اكثر الى قلب الواقع ولذلك انا من الذين يؤمنون انه لايوجد ادب غير واقعى وان جميع الاشكال تؤدى اليه كما ان جميع الطرق تؤدى الى روما

والفن الروائي لا يستطيع أن يكتب خارج دائرة تجربته أنه ليس كالشعر مجردً إذ يمكنك أن تكتب قصيدة عن أي (حاجة) مادمت تعبر عن عاطفتك الخاصة لكن عندما تأتي لكتابة رواية إذا كنت لا تعرف (حاجات) في حاشية الفن وليس في صميمه فإنك لا تستطيع أن تكتب هذه الرواية الشارع الإنسان الباس الغذاء العلاقات اليومية تجسد الرواية .

أما أن يكتب الروائي عن بلد لم يره فأمرً مستحيلً يمكن أن أكتب عن بلد خيالي عندها لن يحاسبني أحد .

والمغرمون بالأشكال الجديدة لا يملكون الاستقلال الذاتي أكبر عدو للفن هو التقليد الأعمى أنا لا يهمني ولا يضرني ولا يخجلني أن يقال أنني أكتب بطريقة تقليد عن من وبالنسبة إلى من ؟ إلى الأب الغربي ؟ ربما تكون كذلك ولكنها هنا ليست تقليدية (ولا حاجة) ثم أنها الطريقة التي أرتاح أليها ولا أزعم أنني خلقتها ٩٩ بالمئة من أدباء العالم شكلياً مقتبسون . كم هو عدد الأشكال الأدبية ؟ الكلاسيكي الرومانسي

الواقعي الرمزي التعبيري تيار الوعي ... ستة أو سبعة آذن ولكن هناك الملايين من الأعمال الفنية التي كتبت بهذا الشكل هناك كاتب واحد فقط يبدأ الشكل يبدعه والآخرون يقلدون . لا أحد يستطيع أن يقول يجب أن يكون الشكل الذي أكتب به ملكي . هذا غير ممكن . أنا أكتب بالشكل الذي يريحني ولا يهمني التسمية التي يمكن أن تطلق عليه ليست هناك رواية (غلط) هناك رواية نابعة من النفس وفي هذه الحاله لايمكن لهاان تقلد احدا لامن الغرب ولا من الشرق) إنني لا أبحث عن الجديد إنما أبحث دائماً عن المناسب لموضوعي . عندما يكون مناسباً لموضوعي التقليدي وعندما يكون مناسباً لموضوعي أن أكتب متأثراً بالتراث مثل : ألف ليلة وليلة أو رحلة أبن بطوطة أكتب بأسلوب تراثي في بعض الظروف دفعي المجتمع المصري أن أكتب بما يسمى أسلوب اللامعقول . إذن أنا لا أعرف (تجريبياً) ولا أعرف (جديداً) ولا أبحث عنهما إنما أبحث عن موضوعي وعن أسلوبي)

وهنا نلاحظ أنني لم أتأثر بكاتب واحد بل أسهم هؤلاء كلهم في تكوين الأدبي وعندما كتبت لم أكن أقع تحت تأثير أحدهم ولم تبهرني الإنجازات التكنيكية الحديثة .

عندما بدأت الكتابة كنت أطرح هذا كله وأنهج منهجاً واقعياً في نفس الوقت الذي كنت أقرأ أعنف هجوم على الواقعية كان الأدب العالمي قد تعرض للواقع عبر مئات الأعمال ثم أنكفأ إلى الداخل إلى تيارات الوعي واللاوعي وما وراء الواقع لكن بالنسبة له وللواقع الذي أعبر عنه لم يكن قد عولج معالجة واقعية بعد)

والموضوعات التي بدأت بها الواقعية مثل (خان الخليلي) (القاهرة الجديدة) و(زقاق المدق) كنت أريد أن أقدم فيها البيئة بسخو منه وهذا لا يناسبه سوي الواقعية) أذكر أن رواية (زقاق المدق) عرفتني بالمازني وتوفيق الحكيم وطه حسين المازني قال لعبد الحميد جوده السحار أريد التعرف على مؤلف هذه الرواية ‘فدلز السحار على بيت المازني في أن الأدب الذي تكتبه اسمه الواقعية وهذا له خطورته وفى أوربا تسبب في مشاكل وقضايا خذ بالك من هذه المسألة خاصة أننا فى مصر قد تعودنا على الرواية الذاتية يعنى لما حب يكتب عن الأيام فهو حسين العقاد

يكتب (سارة)فهو بطل سارة انا اكتب إبراهيم الكاتب فأنا إبراهيم الكاتب توفيق الحكم يكتب عوده الروح فهو يتناول شخصيه أولاد عمومته وأنت حينما كتب زقاق المدق وغصت في الأعماق سيقولون انك تكتب سيرتك الذاتية فخذ بالك الأدب الواقعي غير الذاتي ونحن لم نتعود فى مصر إلا على أن الرواية هي سيره كاتبها فاعمل حسابك : إما أن تغير الطريقة أوان تأخذ بالك من المحاذير التقى يمكن أن تقابلك

هذه كانت نصيحة المازني له ولم يكن من الممكن أن اعمل بها لان الرؤية الواقعين كانت قد تغلبت على شخصيتي بشكل لم يكن من الممكن التخلص منه وبونها اكتب ولقد انتهيت إلى أن وطني لم يقدم ماكان قدمه كتاب فى أوطان أخرى في مجال الرواية الواقعية وكان من غير المنطقي أن أقدم واقعي من خلال تيار اللاوعى الذي يجسد واقعا يتميز بالتعقيد والتشدد لم ارغب في أن اقفز على المراحل وأردت أن أكون نفسي وان واقعي كما اراه

ان الواقعيه هي وقع تجاوزها فى أوربا عندما احس الكتاب الغربيون انها لم تعد ناجحة للتعبير عما يحدث وعما يجد امابالنسبه لى فالواقعيه كانت الطريقة الوحيده للتعبير عما يحدث من حولي ولعلي أول روائي عربى استمل اللعب على الزمن وتبادل الضمائر فى رواتى اللص والكلاب بعد الحنيات الكبرى التى اصابت التاريخ المصرى دعوت الى التجديد ففى الجانب الادبى لم يهمنى الجديد او القديم فالذى يأسرنى هو ماايناسب موضوعى لقد كتبت الحرافيش على اسلوب الف ليله وليله

ما يهمني باختصار هو الشكل الذي ينبع من مزاج الكاتب إنما أن أنظرإلى الجديد في الأدب كموضة (مثل) آخر سيارة أو آخر تفصيلة بدلة فهذا شيء لا يعنيني إطلاقا .

لا أعترف إلا بالفصحى

المهم أن يدرك الكاتب الأسلوب المناسب للتعبير عن موضوعه وعن نفسه . كنت بلا مرشد وبلا دليل وكنت أكتب وفق منهج أقرأ السخرية منه أقرأ نعيه . لكنني الآن أعتقد أن إدراكي كان سليما وكان مما يزيد الأمر صعوبة أننا نفتقد التراث الروائي في الأدب العربي ،إنما المشكلة التي صادفتني من اليوم الأول لكتابة القصة هو الازدواج اللغوي بين لغة الكلام ولغة الكتابة)

أرى أن اللغة شيء أساسي في جميع التخصصات فهي لغة قومية والإنسان بحاجة إليها حتى في معاملاته اليومية .. ومهما تخصص الشخص فهو سيحتاج إلى اللغة ليكتب بها ويتحاور .. لذا يجب درستها والاهتمام بها اهتماما خاصا .. وفي الواقع أنا أنتمي لجيل درس اللغة العربية على أيدي أساتذة متخصصين من الأزهر ودار العلوم كانوا أية وعجبا في تعليمنا اللغة وتحبيب التراث ألينا .. ودائما سألوننى في اللقاءات الصحفية عن روادنا العظام من الأدباء الذين ساهموا في تكوين وهذا حقهم بالطبع ولكن هناك جنودا مجهولين أحب ان أتحدث عنهم وهم اساتذتى فيا لمدرسه مثل الشيخ عجاج والشيخ محرم اللذين علماني اللغة العربية وحبباني في التراث وكنت بفضليهما اذهب فى الاجازه إلى خان الخليلي لاشترى كتب التراث واذكر ان الحاج الحلبي كان يندهش كثيرا عندما يجد أمامه طفلا فى سنى وقتها يرغب فى شراء كتاب الامانى ومدرس اللغة العربيه بحكم انه دارس لغة حامله لتراث وتاريخ لا يصبح مدرس لغة فقط وإما مدرس قوميه يعلمنا حب الوطن وحب العروبة أنا لا اعترف الابالفصحى لغة للكتابة اللغه... العامية ليست لغة قائمه بذاتها ان ثلاثة أرباعها فصحى والباقي كلمات ايطاليا ويونانيه وتركية دخيله ... واللغه العاميه من جمله الاعراض التى يعانى منها الشعب ، والتي سيتخلص منها حتما عند يرتقى وانا اعتبر العامية عيبا من عيوب مجتمعنا مثل الجهل والفقر والمرض تماما والاديب وهو يكتب يجب ان يهدف الى خلق لغه عربيه جديده تأخذ الحر النافع من الفصحى والعاميه معا وهناك اعتبار سياسي وهو أن القومية العربية لايمكن ان تقوم الاعلى لغه واحدة هي الفصحى بطبيعة الحال ..واستمال العامية فى نظرى هدم برئ او غير برئ للقومية العربية

كأنني مبتدئ

ياسيدى ليت العالم لغة واحده لويس عوض نفسه يحكى دائما كيف نشأت الايطاليه وغيرها من اللاتينيه وأقول لينا لم تنشأ ولم تنشأ لكان ذلك افضل لاوربا ولنا . لأنه ايهما أفضل لو ان مؤلف كتب كتابا باللاتنيه فى انجلترا تقرؤه أوربا والعالم كله باللاتنيه أمر ان الأفضل هو الوضع الحالي الذي توجد فيه لغات عديدة لوا تقن الإنسان لغة فلن يتقن الثانية ليتهم ركزوا على اللاتنيه ولم يرجعوا اللغات الأخرى أنهم لم يتركوا اللاتينيه ليعود وا لعاميه اللا تنيه لكنهم عادوا للغة الوطنية المحلية الايطاليه والفرنسية الالمانيه ونحن وهبنا لغة واحده نتفاهم بها من المحيط إلى سنجد أنفسنا في حاجه إلى مترجمين كيف تطلب هذا الجنون الذي وسع الهوة بين الفصحى والعامية عندنا هو عدم انتشار التعليم فى البلاد العربية ويوم ينشر
سيزول هذا الفارق او سيقل كثيرا.

ألم تر تاثير انتشار الراديو فى لغة الناس ،فبداوا يتعلمون الفصحى و يفهمونها ويستسيغونها ،وانا احب ان ترتقى العامية وان تتطور الفصحى لتتقارب اللغتان ،وهذه هى مهمة الاديب فى رايى.

ولكنى مع ذلك لا احب لهذا الموقف الذى التزمه فى اعماقى ،بناء على راى او من به ،لا احب ان يتحول الى دعوة ،فلكل اديب الحرية الكاملة فى اللغة التى يكتب بها .وليس معنى انى ارى هذا الراى الا اعترف باعمال الاخرين ... فانا اقرا اعمال من يتكلمون بالعامية واستمتع بها بلا اى اعتراض" وكما لاحظت انت فان لغتى الروائية تبدوا كما لو كانت عامية، وهى ليست كذلك ،بل احاول

توحيد الفكر واللسان فى الكتابة . احيانا استخدم الفاظ يعتقد البعض انها عامية وهى فصيحة ،ويعتقد البعض الاخر ان هذا تعبير شعبى غيرفصيح التركيب ،ولكنه نحويا فصيح التركيب. يبدو لى ان هناك روحا للغة. انا اكتب بالعربية الفصحى حقا، ولكنها العربية الحية بالروح المصرية بالمجاهدة الذاتية.
العربية إلى المصرية دون تقنين وهى عملية أخذت وقتا لأنها مضت ببطء) هذا الرصيد بدأ يتكون في الطفولة وفي المرحلة الثانوية بدأت أقرأ الشعر والنثر في التراث باعتباره رصيد لغوي كانت البيئة التي أسمعها هي ما بين الشعبية والوسطي هذا هو المخزون الخاص به وقد أرهقتني حين بدأت أكتب الرواية . إذ كانت لغتي كلاسيكية تسعد مدرس الإنشاء الذي يقرأها على الطلبة ولكنها لا تفيد الكتابة الروائية بل تعوقها غير أن البيئة الشعبية وحياة الجامعة واللغات الأجنبية كلها عناصر تدخلت تدريجياً في صياغة وإعادة صياغة لغة الكتابة)
هذه من أكبر المشاكل التي واجهتنا وفي الوقت ذاته يعتبر تطويع الفصحى للأشكال الحديثة هو أكبر إنجاز قمنا به صحيح كان لابد من وجود أخطاء لكنني لاحظت أن الجيل الذي جاء بعدنا منطلق واستفاد من الأخطاء وأنا في وقت من الأوقات خطر لى أن الفصحى سوف تندثر في الأدب اليوم لا يكتب أحد بغير الفصحى لأن الفصحى انتصرت وأصبحت الفصحى للروايات والقصص وكل شيء والتطور اللغوي في أعمال يتم - إذا تم – دون وعي أو تعمد من جانبي لأنني أندمج في الشخصية فهي لغة الاثنين الراوي والشخصية معا ولم أضبط نفسي متلسبا بالبحث عن لغة تخص هذا الرجل أو هذه المرآة إنني أندمج في الشخصيات فلا أعود أعرف لغة من .. هذه اللغة ؟ لأن الصدق الفني شيء أخر .. إن تصديق الواقع _ اللغوي في مناقشتنا – لا تعني نقل حرفياً النقل نفسه مستحيل وإذا كنت أختار من بين الملايين رجلاً واحداً أو أمرآة أو دكانا أو جامعة أو مضينا فأنا أقوم في الحقيقة – مع التجاوز – بعملية مونتاج مكثفة للواقع ... فلماذا لا يكون اذ لايمكن هو موقفي نفسه بالنسبة للغة لكن (أصعب شيء) هو تحويل الفكر والمعلومات إلى لغة تطمئن إليها (الكلمة الصورة الأسلوب) لأن عملية الاختيار تظل تلقائية جداً تجدني أكتب كلمة وأشطب كلمة وهذا يحدث في العبارة أو الجملة لو سألتني لماذا ؟
ربما كانت الإجابة الوحيدة أنني ارتحت للثانية أكثر .. بطريقة غامضة أحقق نغمة ما عذاباً الكاتب .. وفيما يخصني لا أستطيع أن أشرحها بأكثر مما قلت .. الغربية لما تكون الكتابة غير أدبية يسيل القلم دون توقف . لما تكون أدبية كأنني أمشي على زجاج .. في السن وبعد أكثر من ٥٠ سنة كتابة أجدني عند كل عمل جديد .. عند هذه النقطة أو تلك كأنني مبتدئ ... وكنت تظن أنني سلكت وخلاص أكتب العمل بالبقاع سريع حتى لا تفوتني شاردة أو واردة .. بهذه الطريقة أكتب الرواية في عشرة أيام مثلاً.

دلال الإلهام

إذا وصلت إلى مرحلة التنفيذ فإن المسألة تتحول إلى عمل يجب أن ينجز ، ولن ينجز الا بالإرادة والصبر فلا اعرف حكاية الإلهام والوحي بمعنى تأثر الفنان بموقف أو فكره تنمو لتصبح عملا فنيا فهذا لايمكن أن يخضع لنظام دلال الإلهام ان لحظات الإلهام لا تخضع للانضباط أن لها حياتها الخاصة أما الانضباط بمعناه الصحيح فيبدأ مع العمل مع التثقيف فنجد فى ساعات القراءة فى العمل في المقابلات مع الناس أما لحظات الإلهام فلا تخضع لاى انضباط بمعنى انه لاوقت للجلوس على المكتب وانتظار الالهام ثم البدء فى الكتابه واقول لمن حولى :انى انتظر الالهام يأتى فى وقت واى مكان وتحت اى ظرف تعبان فى الشغل بلا استدعاء وانت تركب وسيله انتقال او اثناء السير فى الشارع نائم اثناء التوجه للنوم او لحظة القيام منه وكثيرا مايحدث ذلك فى المنزل اوخارجه واذا عن لى التسجيل سجلت وان لم استطع فاحيانا تفوتنى اللحظة وتضيع ويظل عندى الامل بعودتها مثلها

ضاعت واحيانا اظل فى انتظار ان تعود بعد سفره انها الحظه التى لها حريه موعد ومكان الميلاد بل وشكله قد تولد مكتملـه او علـى شكل جزئيات بسيطه وربما غير واضحه فى اعرف روايه ستدخل اعتقد ان ان الكتـاب لايختـار نوعيه العمل الـذى سيكتبه فهو لايقـرر مسبقا انـه سيكتب قصيده او مسرحيه او روايه ثم يجلس ليكتبها فان الالهام هو عمليه متكاملـة من حيث الشكل والمضمون معا فما يخطر لـه ليس مجرد فكره وعليه ان يختار ان يصيغها كيفما شاء اما كرواية او كقصه او غيرها وإنما هى تحضره متكاملـة فالفكر اتى تـأتى فى لحظه الإلهام هى فكره لرواية ا ومسرحيه أو قصه قصيرة والكاتب فى الحقيقة لا يملك أن يغيرها كيفما شاء وانـا كاتب روائى بمعنـى ان ماخطر لـى من أعمـال أدبيـه جـاء دائمـا فـى شكل الروايـة بـل او لـك شيئا قد تعجـب لـه وان بـض قصص القصيره وخصوصا الاولى منها كانت فى الاصل اجزاء من روايات كتبها ولم تكن قد نشرت بعد لكن وجدت ان هناك ترحيبات بنشر القصه فى بعض المجلات الادبيه التي ينشر ألقصه القصيرة فى بعض المجلات الادبيه التي كانت تصر فى ذلك الوقت فاخدت مشاهدا ومقاطع من بعض الروايات التي ترقد قى درج مكتبي بلا ناشر وجعلت منها قصصا قصيرة والغريب انه نشرت تلك الروايات فيما بعد تصور النقاد ان العكس هو الذي حدث فقالوا اننى استدمت بعض قصص القصيرة في رواياتي التي نشرت بعد ذلك لا اعرف ان على ان اجلس علي مكتبى كل يوم ٠٠٠ساعه او ساعتين حتى افرغ من العمل فى عام او عامين أن جاز لنا ان تحتمل دلال الالهام فى قصيده او قصه فمن غير الجائز بلاينيه فى عمل يجب ان نفرق بين مانسميه الوحى والإلهام وبين تنفيذ العمل في نظري اى عمل لايستقيم الابنظام حتى يسيطر الإنسان على وقتـه ومسئولياته المختلفة ربما كـان أصل هذا الاسلوب عندى يرجع الـى تعد هواياتى وانا تلميذ لم يكن من الممكن الجمع بنيها الا فى قالب من النظام الصارم الاطغت حاجه على حاجه زمان٠٠ فى الاول كنت احيانا استيقظ فى اوقات من الليل على رغبة شديدة جداً يلح على لأكتب .. مع ذلك كنت أضطر للنـوم لأن علـى أن أكـون علـى المكتب في الوظيفـة الساعة الثامنـة .. أو قد تفاجئني نفس الرغبة وتراودني وأنا على مكتب الحكومة فأنحيها بـالتعود حدث نـوع من التكيف بين جهازي العصبي وهذه الرغبة فتجد رغبتي في الكتابة تأتي في وقتها تماماً وأنا جالس على مكتبي في البيت في التوقيت المحدد .. تماماً مثل فنجان القهوة (ينقر) على دماغك أو السيجارة)

عفريت

في البداية عندما كنت أكتب كان يطلع لي عفريت يقول لـي : مـا جدوى مـا تفعلـه ؟ لمـاذا تغلق الغرفـة عليك ؟ ما هذا النظام الصارم ؟ يا راجل أنزل هيص لك شوية لكني كنت أصرف هذا العفريت في النهاية وأفرض على نفسي مزيد من صرامة النظام) فأنا موظف اعتمد على الوظيفة في حياتي . ثم أيامنا لم يكن هناك (تسيب) مثل (دلوقتي) لو لم أذهب في الساعة الثامنة وأظل حتى الثانية يعني ذلك أنني سأفقد وظيفتي التي احتاج إليها لرزقي . وأنا أتعذب في الوظيفة من أجل الساعات التي أحصل عليها بعد الظهر وأعمل فيها أدبياً الوظيفة هي التي جعلتني أتمكن من أصبح أدبياً الغداء وأستريح ثم أعمل ست ساعات ثلاث للقراءة وثلاث للكتابة وهذه الساعات يرجع الفضل فيها للوظيفة. أما عن الأسرة فقد فضلت أن أسير وفق عاداتنا وتقاليدنا ومسألة التنظيم لا تخصني وحدي وإنما تخص أيضاً (الوحي) أي أنني بهذا التنظيم كنت أضع نفسي في وضع استعداد لتلقي هذا الوحي .

وفي بعض الحالات كنت أجلس هذه الساعات بالقلم في يدي والورقة أمامي دون أن يأتيني شيء ومع ذلك لم أكن أنهي الجلسة إلا في موعدها لكن في معظم الأحيان كنت أجد ما أكتبه وأملأ به هذه الساعات التي خصصتها للكتابة إن ساعات الإلهام لا تتفق مع مواعيد الوزارة ولو اقتصرت كتاباتي

على ساعات الإلهام لما كتبت _ حتى الآن أكثر من روايتين .. وأنا لذلك تعودت أن أخزم أنف قر بجي وأجبر نفسي على الكتابة في أي وقت أريد وعندما أكتب أمسك رزمة من ورق العرائظ وقلم كوبيا وأجلس إلى مكتب أكتب ثم لا أطيق أستريح بعد ذلك ساعة من عذاب الكتابة ثم أقرأ .. وأنا .. عندما أنتهي من كتابة الرواية أعيد كتابتها بالحبر وأقدمها للناشر رزمة كبيرة من الورق الأبيض مقابل رزمة الأخضر) وأنا لم أكتب أبداً في المقهى إلا بعض تفاصيل السيناريوهات لم أكتب إلا في غرفة مكتبي في البيت حين بدأت كتابة القصة ولم أتخيل إمكانية الكتابة خارج البيت الذي أقترن بالإبداع سينمائيه 'لكن اعماله الادبية كلها كتبها خلال ساعات النهار التى خصصها للكتابة داخل غرفة مكتبى فى البيت للقراءة والكتابة والتامل –المقهى للاصدقاء الحديقة لحب الطبيعة.

من عاداتى الخروج الى الخلاء كثيرا على انفراد (حيث تكون الافكار من الكثرة و الثراء و ربما بعض التطرف او التفاؤل او التشاؤم حسب الظروف و ياتى العمل الادبى فى البداية كفكرة لا تعرف من اين جاءت ثم يظل الاديب يقلبها ويفكر فيها، اى ان لها فترة اختبار،فتظل فكرة غير مكتملة لا تخرج الى النور قط، وفى حالات اخرى لاتستغرق تلك الفترة وقته طويلا فمثلا فى حالة " الثلاثية" ظلت تردد على كأفكار متناثرة افكر فيها كاجزاء متفرقة و قد استغرقت تلك المرحلة سنوات الى ان اختمرت الفكرة وحانت لحظة الميلاد فبدات اكتبها .اما فى حالة" اللص والكلاب"فقد تابعت جريمة السفاح التى كانت تنشرها الصحف فى ذلك الوقت وما ان اكتمل الحدث حتى جلست اكتب روايتى واعتقد ان موضوع الرواية كان مختزلا لدى منذ فترة وكان ينتظر الفرصة كى يخرج وقد جاءت قصة السفاح معبرة عن هذا الموضوع فما ان قراتها حتى كانت لحظة الميلاد وخرج كل ذلك المخزون بعد ان وجد التعبير الصحيح عنه فى قصة تلك الجريمة والتى كانت بمثابة الجسم الذى تجسدت فيه الفكرة الاساسية التى كانت تشاغلنى لفترة طويلة قد تسبق وقوع جريمة السفاح.

وهكذا فان الرد على سؤالك هو ان العمل الادبى يحتاج الى فترة تخزين يختمر فيها ويصل من خلالها الى مرحلة الاكتمال اما ما يتعجل الاديب كتابته فهو عادة ما يكون مبتسرا غير كامل النمو.

فى الماضى كانت عملية الكتابة نفسها شيئا امارسه دون التفكير فيه كالمشى مثلا ، فالانسان لا يفكر بشكل واع اثناء المشى فى عملية وضع قدم امام الاخرى ،وانما هو يمشى بشكل تلقائى و بلا تفكير وقد كانت الكتابة عندى تتم بالطريقة نفسها فقد كان فكرى مشغولا بالافكار والكلمات وليس بالقلم الذى امرره على الورق ثم صار القلم شيئا يوازى روحى تماما ، فحياتى كلها كانت مرتبطة بالقلم صعودا وهبوطا ، فالقلم يرتفع بى الى اعلى حيث كان يعبرعما يجيش فى نفسى ، وهو الذى كان يهبط بى حين كنت اناجيه فلا يستجيب فقد تعودت على التفكير بقلمى ،وبدون القلم لا تاتى الافكار، بدون القلم تظل الورقة بيضاء لان القلم كان هو اصبعا سادسا فى يدى اذا تم بتره عجزت يدى عن الكتابة لذلك فقد كان القلم دائما هو حياتى ومتعتى وهناك بينى وبينه قرابة ابدية القلم هو مجرد وسيلة ولكنى اكون مخطئا لو قلت لك اننى اوجهه كيفما شئت فان للقلم كيانا خاصا ،وهو كثيرا ما يعصى اوامرى فابقى ممسكا به ساعات طوالا لايستجيب فيها لارادتى لكنه فى ساعات اخرى يجود على باجمل الكلمات وباسمى المعانى الاننى استطيع ان أقول اننى عندما امسك لالقلم لاكتب فانى ابذل كل مدى من قدره كى أقدم ماستطيع ان أقدمه للناس وفى الوقت ذاته أتذوق تقديمه وبمعنى أخر ارض عنه كتابي له أنا لم اشعربالرضا عن نفسي أبدا وحتى لحظه الموت لن أكون راضيا عن نفسي أنا دائما مشروع جديد ومحاوله اكتشاف جديدة مازلت اشعر بأننى سأعطى فى كل مرحله مادام فى نفسي يختلج بالحياة رجل الادب والفكر والفن لا ينضب ابدا مادام متفحا على نبض عصره تواقا إلى اقتحام المجهول وليس العطاء وقف على سن معينيه ولا على مرحله بذاتها هناك إضافات بالغة الخطورة والثراء أعطاها عباقرة فى مراحل متأخرة من أعمارهم أمهم الا يتجمد الإنسان ابدا وان يشعر ان الطريق إمامه مازال ممتدا ومع (تقدم العمر)

فان عمليه الكتابه تأخذ من تفكيرا فى حد ذاتها حتى تخرج الكلمه فى شكلها المقروء وحتى لاتنزل الكتابه عن السطر الذى أكتب عليه ٠ وقد اقضى ذلك ان تكون كتاباتى الان قصيره لان عمليه الكتابه نفسها فيها فيها بعض المشقه ومنثم فأن موضوعاتى الان –هى الموضوعات التى تصلح لهذه المساحه المحدوده فأنا الان اكتب الاقصوصه الصغيره المركزه وانا اكتب الاقصوصه منذ ايام حكايات حارتنا لكنها انذاك كانت تمثل خرده فنيه بحته اما –الان فما يمليها هو الفن والضروره ايضا لان يدى لاتستطيع ان تكتب اكثر من ذلك فالافكار موجوده وان كان بحكم السن وماكتبته فى الماضى فان المعين قل عما كان عليه فى السابق ،كماأن الموضوعات التى تأتينى الان هى تلك التى لاتنبع من الحقيقه الواقعيه التى انعزلت عنها قليلا خلال السنوات الاخيره بحكم ألحاله الصحية ومقتضيات الضرورة هى التى أصبحت على هذا النوع من الأقاصيص الصغيرة التى اكتبها ألان فأنا لااستطيع فى الوقت الحال ان اكتب لأكثر نصف ساعه فى الجلسه الواحده يسبقها تفكير لايام واياما ممتدة وان الاحتمالات مازلت قائمه وحين اصبت فى حادث الاعتداء على وقلت قدرتى على استخدام وحين اصبت فى حادث الاعتداء على وقلت قدرتى على استخدام ذراعى اليمنى لفتره لم اتمكن من الامساك بالقلم لكنى مع ذلك لم استطع ان استبدله بوسيله اخرى حتى لو كانت الاملاء(٠٠)وقد زاد من ارتباطى بالقلم أننىلم اعرف فى حياتى وسيله اخرى للكتابه غير القلم ،فلم أستخدم الإلة الكاتبه مثلا ولااستبدلت القلم بعد ذلك بالكمبيوتر ،ولم الجا الى الانترنت ؛ انما القلم كان دائما وسيلتى وهو الطريق الذى يؤبط بين مايعتمل فى نفسى وبين الحياه اننى اخزن كثيرا حين أسمع عن الوسائل الحديثة التي يقال انها ستحل محل القلم ان ذلك بلاشك تطور علمى نسعد ؛لكن احزن أن تقل قيمه القلم أو يذل على الكاتب، يجلس للمارسه الكتابة كل يوم –يمسك القلم ويخط على الورق اى شئ

لم اصدق نفسي

(ان) التأليف (هو) دعوه عامه للرقص على نغمه خاصة

فالموضوع مثل الحالة العامه التى تحدذو النهايه حركات أراقص والذى يكون مسئولا عن الفارق بين الفالس والرقص الحديث والتأليف (يأتى) نتيجة جوع ، وإذا شبع الانسان جنسيا فسيجد أسبابا أخرى للجوع أما المواد المنشطه لعمليه التأ ليف فهى السجائر وموسيقى أو غناء من الراديو دون التفات اليها

كنت أميل الى العزله التامه ثم أسمع مقطوعه موسيقيه ثم أفتح الاذاعه اثناء الكتابه لتكون خليفه ولايهمنى ماذا تقول فلا أنصت اليها أصلا ولا أدرى هل تذيع نشره أم برنامجا أم أغنيه وان كنت أحرص على سماع أم كلثوم وعبد الوهاب كنت فى الماضى حين أصحو بعد الظهر استمع الى احدى اغنيات ام كلثوم وأنا أتمنى فى صاله البيت تم أجلس بعد ذلك بغرفه المكتب لاكتب وانا لازلت أذكر فضلها على حتى الان – وأذكر أننى كنت لااستطيع الكتابه الابعد ان اسمع صوتها وأظل أروح واجئ فى الحجره ثم أشرع فى الكتابه مباشره فى بدايتها كدت أتشاجر مع واحد صاحبى لما قال ان فيه مطربه جديده اسمها ام كلثوم صوتها أجمل من منيره المهديه ، لكن عندما سمعتها وقعت فى غرام صوتها

لحسن لصوتها وجماله بصوره لاتجدها فى اى حنجرة اخرى ، والالحان التى يوفقها الله اليها احيانا لانها من هذه الناحية كانت تحت رحمة الغير ، وكنت احرص على حضور حفلاتها منذ كانت تغنى كل خميس بتياترو " الماجستيكر" وذات حفل من حفلات ام كلثوم رايت المعلم دبشة اتذكر اننى كنت عازفا محترفا على آلة " القانون " وقد درستها فى معهد الموسيقى العربية لمدة عام كامل (كما سبق وذكرت) وكان عن تقاليد المعهد – انذاك – ان يختبر طلابه بواسطة لجنة مشكلة من الأكاديميين ومن السميعة وكبار الهواة من خارج المعهد ، كان ضمن اللجنة التى اختيرت شخصا

يدعى"المعلم دبشة" لم يكن الرجل سوى جزار ينتمى لحى شعبى ، غير انه كان سميعا بحق وحقيق ، وواحد من فحول العازفين والمتذوقين لآلة القانون ، بعد هذا اللقاء الذى اجتزته بنجاح تكرر لقائى مع المعلم (دبشة) وذات حفل من حفلات ام كلثوم رايته يستعيدها فى كوبليه معين ، وكلما غنت طلب الاعادة ، وفى النهاية ابتسمت الست له ٠٠ وقالت : مرة ثانية للمعلم دبشة ٠٠ مرة اخرى كان مكان دبشة يتقدم الصفوف ، ومكان محفوظ لايغيره الاانه حدث ان تغير المكان وابتعد دبشة عن مكانه المعتاد ، بحثت عنه الست بعينها فى كل مكان حتى وجدته ، وابتسمت فما كان منه الا ان طلب اعادة الكوبليه مرة اخرى لانه بعيد قوى ،،

فلما ظهرت الاذاعة الحكومية (كان لام كلثوم مواعيد اذاعة فى الراديو تتضمن وصلتين كل يوم اثنين وخميس لمدة نصف ساعة) كتبت لها خطابا من مجهول اقول لها فيه : عززى نفسك ولاتكررى الغناء كثيرا ،، (ثم) اصبحت حفلاتها شهرية ٠٠ ولم اتوقف عن حضورها الا حينما ازدحمت القاهرة ، فاصبحت اسمعها فى الاذاعة مع الاصدقاء فى سهرة " الحرافيش " وكلهم من خيرة السميعة ،،

ام كلثوم ليست نبوغا فى الصوت ولكن فى الشخصية كيانها اكبر من مجرد مطربة ، هى اشبه بالشخصيات السياسية الهامة ،، (فقد) ساعدت بصوتها على توحيد العرب ، هذه مسالة لم يكن عليها خلاف المقابلة الوحيدة (لي معها) كانت في الأهرام عندما أراد صلاح جاهين الاحتفال بعيد ميلادي الخمسين ذهب للأستاذ (محمد حسنين هيكل) رئيس تحرير الأهرام وقال له : خصص لنا ركنا في الأهرام نحتفل فيه بعيد ميلاد الأستاذ نجيب كازينو قصر النيل ضاق علينا فقال هيكل لصلاح : نحن – أي الأهرام – سنحتفل بالأستاذ.

لم أصدق نفسي عندما احضر لي هيكل مخصوص كوكب الشرق أم كلثوم والموسيقار محمد عبد الوهاب وفاتن حمامة وحضر عيد ميلادي توفيق الحكيم فضلا عن الحرافيش وكثير من أهل الأدب والفن كان احتفالا هائلا ومبهجا حقا ولايمكن أن يتكرر وأذكر أن (الحكيم) أهداني (طقطوقة) من فضة وقال لي : هذه من حر مالي لكن أجمل ما في تلك الليلة هو حضور (أم كلثوم) لها قد جاءت إلى – أنا مخصوص – لتغني في يوم مولدي زمان في السنوات الخوالي كنت أذهب إلى حفلاتها (كسميع) قديم مفتوح بفنها وأشتري تذاكر الحضور وأجلس وسط المستمعين حضور أم كلثوم عيد ميلادي كان .

وذات حفل من حفلات أم كلثوم رأيت المعلم دبشة (أتذكر أنني كنت عازفاً محترفاً على آلة القانون) وقد درستها في معهد الموسيقى العربية لمدة عام كامل (كما سبق وذكرت) وكان من تقاليد المعهد – آنذاك – أن يختبر طلابة بواسطة لجنة بشكل من الأكاديميين ومن السميعة وكبار الهواة من خارج المعهد كان ضمن اللجنة التي اختبرتني شخصياً يدعى المعلم دبشة لم يكن الرجل سوى جزار ينتمي لحي شعبي غير أنه كان سميعاً بحق وحقيق وواحد من فحول العازفين والمتذوقين لآلة القانون بعد هذا اللقاء الذي اجتزته بنجاح تكرر لقاءي مع المعلم (دبشة) وذات حفل من حفلات أم كلثوم رأيته يستعيدها في كوبلية معين وكلما غنت طلب الإعادة وفي النهاية ابتسمت الست له ... وقالت : مرة ثانية للمعلم دبشة .. مرة أخرى كان مكان دبشة يتقدم الصفوف ومكان محفوظ لا يغيره إلا أنه حدث أن تغير المكان وابتعد دبشة عن مكانه المعتاد بحثت عنه الست بعينيها في كل مكان حتى وجدته وابتسمت فما كان منه إلا أن طلب إعادة الكوبليه مرة أخرى لأنه بعيد قوي) .

أم كلثوم ليست نبوغاً في الصوت ولكن في كيانها أكبر من مجرد مطربة هي أشبه بالشخصيات السياسية الهامة) (فقد) ساعدت بصوتها على توحيد العرب هذه مسألة لم يكن عليها خلاف شيئاً جميلا لأنها كانت المرة الأولى التي ألمس يدها رغم أنني لم أغير مقعدي في حفلاتها طوال حياتها)

قالت أم كلثوم في كلمة قصيرة : لقد أسعدني نجيب محفوظ برواياته وقصصه وأرجو أن يسعد في خمسين عاماً قادمة .
اهتززت وانتفضت أرد على أم كلثوم بصوت هادئ مرتجف : إذا كانت كتاباتي قد أسعدتك أم كلثوم فماذا يستطيع إنسان أن يفعل إزاء إحساس بأنه أسعد مصدر سعادته) ونحن عائدون من الإسكندرية مع العائلة بالتاكسي فتح السواق الراديو وهم يصفون جنازتها وبكينا كلنا) وأنا لا أستطيع أن أتحدث عن لحظات الحزن في حياتي دون أن أتوقف عند رحيل أم كلثوم وعبد الوهاب اللذين كان لهما تأثير كبير على تشكيل وجدان أكثر من جيل) لكن ذلك كله تغير الآن ولم يعد الحال كالحال فمنذ اشتد ضعف سمعي وبصري لم يعد باستطاعتي أن أسمع الموسيقى وأصبح ما يصل منها إلى سمعي يبدو كالضوضاء لا أتبين فيه اللحن والغريب الذي يحيرني هو أن هناك ثلاثة أو أربعة ألحان فقط للشيخ السيد درويش هي التي أستطيع أن أسمعها بوضوح منها مثلاً (سالمة يا سلامة) وشد الحزام) لكن حتى أغاني سيد درويش الطويلة لا أستطيع أن أسمعها وكثيراً ما سألت الأطباء في ذلك فكانوا يتعجبون أنني أسمع تلك الألحان أصلاً لأن المفروض أن الشعيرات التي تسمع الموسيقى قد ضمرت في أذني .

أربع وشوش

السيد درويش يمثل الفطرة الأصيلة الخالصة ولا يمكن أن يجود الزمان بموسيقى مصري مائة كالسيد درويش لأنه ظهر في فترة كانت مصر فيها كل ىء فكنت تجد الناس وهم راجعون من عملهم يغنون بعض أغنياته إن ألحانه مما يسهل ترديدها . على عكس أغنيات عبد الحي حلمي .
ومنيرة المهدية التي تحتاج إلى حنجرة قوية لكن أي أغنية لسيد درويش كنت تجدها تغني في الشارع فكنت ألتقطها وأضيفها إلى محفوظ .
وهكذا أتعرفت على السيد درويش دون أن أعرفه وإنما بدأ يعرفي الحقيقي عليه في مسارح روض الفرج الشعبية وكانت تعمل في الصيف فقط وتقلد فرق الموسم الشتوي مثلاً يوسف عز الدين كان يقلد نجيب الريحاني وفوزي منيب يقلد الكسار ... وكانوا جميعاً يقدمون مسرحيات غنائية .. وهكذا فكل المسرحيات التي لحنها لسيد درويش للريحاني أو الكسار أو غيرهم .. سمعت أغانيها وحفظتها من روض الفرج كنت أذهب بصحبة والدي وأحياناً بصحبة والدي وشقيقي .. وظللنا نتردد على هذه المسارح بانتظام وأنا في ابتدائي أي من سن الثامنة حتى الحادية عشرة تقريباً ولما احيوا أكان السيد درويش في الإذاعة بعد ذلك بسنوات عديدة كنت أذهل وأنا أستمع إليها وأجدني مازلت أحفظها منذ أيام طفولتي حتى أني كنت أقوم بتكملتها صحيحة كما كانت تغني قبل التهذيب الذي أدخلوه عليها فحذفوا أشياء مثل (طزفش) و(شفتي بتأكلني) .. وغير ذلك .
السيد درويش في الحقيقة أتى بشيء آخر وهو الغناء التعبيري عن مواقف معينة ، أو عن بيئات معينة ، وهو غير غناء الطرب ، وليس معنى ذلك أن الطرب قبيح ، وإنما السيد درويش أضاف إضافة جديدة ، وكأنه يقول أن الموسيقي ليست طربا وغراميات فقط بل من الممكن ان تعبر ايضا عن المسافر والمهاجر ، ومن يعمل ومن يحفر ، ومن(يهلس) ومن يجد .. او بمعني اخر ان الحياة كلها ممكن ان

تغنى وببساطة السيد درويش خرج بالموسيقي للترجمة التعبيرية الشعبية العامة وجعلها ملكا للجميع ، لمن يغني ومن لا يغني من كان صوتة جميلا ومن كان صوتة قبيحا يستطيع ان يغني الحانه كما ان الادوار التي لحنها السيد درويش تمتاز بطول النفس وبكثرة التنويعات النغمية ، والدليل على ذلك ان اى دور لمحمد عثمان او لعبدة الحامولى ، مما سمعناة عن اخرين ، يستغرق اسطوانة واحدة ، اما دور السيد درويش فمسجل على اسطوانتين (اربع وشوش) مع ان كلماتة لاتزيد على اربع شطرات ، ومعنى ذلك انة يستخرج من كل نغمة جميع الوانها ٠٠٠ كانت لدية تلك المقدرة ، والاهم من ذلك ان السيد درويش جعل الموسيقي ، موسيقي كل انسان وكل فئة سواء من حيث التعبير ومن حيث الاداء ايضا .

ثم جاء عبد الوهاب ، في ادواره الاولي يخيل اليك ان السيد درويش ٠٠ كان واقعا تحت تاثير السيد درويش تماما في (كل نحب القمر) وامثالها ٠٠٠ ثم بدء يدرس افكار الغناء العالمى واوزانة ، ويطعم بها الحانه ، فخرج من مزيج الاثنين : محمد عبد الوهاب ، والحقيقة انه شيئ في غاية العذوبة صوتا ولحنا ، انة يستلهم ويستلهم ثم يضيف ٠٠٠ وليس هناك اكثر من ذلك ٠ وعبد الوهاب ميزتة الصوتية عظيمة ، فصوتة جميل ومحبوب حقيقة ، ولا يمكن ان تجد اغنية لعبد الوهاب خالية من شيئ يجزمك حقيقة وهو ليس راسماليا كما تتصور ، فايامها حين كنت اعود مدينة رمسيس كنت اجده جالسا معي في ترام ٣٣ !!

و حينما نتكلم عن ام كلثوم في هذا المجال فنحن نظلمها كثيرا، لانها لم تكن ملحنه ولا موسيقية ، لذلك يجب ان نتكلم عنها مع فئة المؤديات ٠ غاية ما في الامر انها حنجرة كبرت اكبر من اللازم اشبة ما تكون بالعضلات الخارقة حتي سيطرت على الالحان والملحنين فكانوا يقدمون لها الحانا يعلمون انهم لا يستطيعون تقديمها لغيرها وهكذا قدمت الوانا شديدة الاختلاف ، فحين تغني لذكريا احمد يخيل اليك انها كلاسكية ، وحين تغنى لمحمد القصبجي يخيل اليك ان فيها عرقا تركيا ، والسمباطى لـه لونة وطابعه ، وهكذا ٠٠٠

كنت احرص على سماع ام كلثوم وعبد الوهاب واحب اغانيه الى قلبي " من اد اية كنا هنا " مطربتي المفضلة ام كلثوم ولم تكن الفقرات المذاعة تخرجني من جو الكتابة ومعايشة الشخصيات والاحداث التي تسلبني ارائي تماما ٠

اديب الشتاء

(كنت قبل الكتابة اعيش في حالة انفعال وجداني حوالي نصف ساعة اتمشي في البيت) وعندما اريد البدء اقوم بحركات بدنية والبدء صعب دائما بعد تردد في البدء وضوح منذ البداية وربما اتضاح تدريجي في بعض الحالات " الافكار" قد تجيئ بفيض او بندرة تجر بتلقائية عادة و احيانا تجئ بمجهود تقود فكرة الى فكرة كما توحي تعريفات الشخصيات بتعريفاتهم التالية اتعمد الانتصار لطرف ضد اخر بشرط الا يهز السياق او الشخصية (ان ذلك) يكون انتصار الى ولو بدا عكس ذلك (لان مشاعري) مشاركة الشخصيات في عواطفها تعاطف ، شفقة ، احترام ، حنفا (الصعوبات) تعبيرية بحيث ترتاح اليها النفس (اما عاجزا او ازدارها) يوم ، شهر ، سنة ، ٣٠ سنة حسب الاحوال ثم ابدأ في عمل اخر او عند العودة تكون الامور اكثر وضوحا (اضع العبارات) بحذر وتدقيق استغراق في التفكير – الاستعانة بقواميس ومعاجم اللغة (العبارة)تجئ بمجهود اضع ما يعن لى ثم اعيد ترتيبه (اكتب يوميا) عدا الخميس والجمعة والاجازات اعجز احيانا عن الاستمرار في الكتابة (مشاعرى) قلق وقرف لا يحدث هذا في الاعمال المسبوقة بتامل ولكنه يحدث عندما ابدا من الصغراحاول فى اليوم التالى (الامور تكون مختلفة كان) يوجد حل لمشكلة لم يكن موجودا " وخلال فترة الراحة القصيرة كنت انتبه الى الاذاعة ، وكان وقت الكتابة يتصل الى اربع ساعات يوميا تبدا قبيل الثامنة وتنتهى قبيل منتصف

الليل ولا اسهر اكثر من ذلك لانني موظف (وبعد المعاش) بعد ذلك اصبحت اكتب من العاشرة صباحا حتى الواحدة بعد الظهر واخصص وقت المساء للقراءة مع مراعاة ان موسم القراءة والكتابة ينحصر فيما بين شهرى اكتوبر وابريل من كل عام ٠
كنت عندما اشعر بالتعب من الكتابة اعرف ان الموعد المحدد قد انتهى دون ان انظر الى الساعة ٠ واثناء فترة الكتابة اتناول فنجانين من القهوة التى تعدها لى زوجتى دون اطلب – كما تعودت --- وهى تاتيني بالفنجان مع بداية الكتابة ، واخرى بعد فترة ، والثالث قبيل ان اضع القلم ونظرا لاصابة بمرض السكر ، فالقهوة تكون دائما بدون سكر ولا اتناولها كلها كما تعودت ٠ اما التدخين فلا اتوقف عنه من البداية حتى انتهى من الكتابة ، وادخن نوعا معين من السجائر ولا اغيرة الا اذا اختفي من الاسواق ٠ كنت اكتب المسودة بسرعة لتلاحق الافكار والكلمات ، ثم اقرأ كل ذلك على مهل مع مراعاة الحذف والاضافة والتعديل ٠ بعد الجلسة اكون اهدأ (وهناك اوقات تكون فيها الرؤية الفنية اصفي) في فصل الشتاء دون الفصول الاخري ٠ ان عملية الابداع الفني لا تعتمد فقط على الفكرة ، فالافكار كثيرة ، لكنها تعتمد اكثر على لحظة الصفا التى تتدافع فيها الكلمات لتصيغ عملا فنيا جديدا ، قد يلتزم بالفكرة التى ولدتة ، وقد يشطح بعيدا عنها الى افاق جديدة لم يكن الكاتب يتصورها حيث اشعر بوجد في الشتاء واجد نفسي قادرا على الكتابة وقد كان هذا هو حالى منذ الصغر ، وحين كنت أقراء الشعر العربى القديم كان ما يتحدث منه عن المطر او الشتاء يهز قلبى هزة خاصة فقد كان الخريف والشتاء فصلي العمل والنشاط والحيوية ، فعلى عكس الكائنات التى تعرف البيات الشتوى ، فان روحى في الشتاء تكون متالقة ، وكل استعداداتى وامكاناتى الادبية تكون في حركة ونشاط ، وهذه الحالة كانت تبدا معى فى الخريف وتستمر حتى نهاية الشتاء ، ثم يجئ الربيع فتبدا معى فترة البيات الربيعي او الصيفي ٠ اما سبب ذلك فكان اولا اننى من ايام المدارس اعتدت العمل في الشتاء ، وكان الصيف للعب ، واول ما تخرجت عام ٣٤ ميلادى اصابتني انواع مختلفة من الحساسية في العين والجلد ، وكانت تعاودنى مع كل ربيع فتجعلنى غير صالح للعمل حتى لو اردتة ، بينما في الخريف والشتاء كنت استرد كل امكاناتي ، اى ان الشتاء كان فصل الشتاء كان فصل صحة وعمل وليس فصل مرض ، لذلك فانا احب الخريف والشتاء واحب الدنيا فيهما ، بينما اتحمل الصيف بصبر وكانى احارب حالة خفيفة من الاكتئاب ، لاننى كنت اعتبر الصيف عائقا في عملي لانه كان يعطلني عن الكتابة ، ومع ذلك فقد ظهر الصيف في الكثير من اعمالى سواء في الاسكندرية او راس ابر الان استطيع ان اقول ان فترة التوقف عن العمل في الصيف قد افادتني لانها اعطت المجهود المستمر طوال العمر فترات راحة اجبارية لا تجعل الانسان عرضة لرد الفعل العنيف بان يعرض تماما عن العمل ، ثانيا فان فترة الصيف كانت تسمح بالكثير من لاحظات التامل التى كانت توحى لى بالكثير عن الافكار لاعمال ادبية جديدة فرغم اننى لا اكتب فية على الاطلاق ، فانني كثيرا ما افكر فيما ساكتبه بعد ذلك ، ففي الصيف كنت كثير ما اتمشى على النيل في القاهره او على شاطئ البحر في الاسكندرية وكنت اعتاد ان تجيئنى بعض الافكار لكتابات كنت اختزنها لاعود اليها مع حلول فصل الخريف حيث كنت اعود مرة للكتابة ، وقد كنت في بعض الاحيان ادون هذه الافكار وفي احيان اخري لم اكن ادونها، وكانت تبقى معى حتى اعود الى الكتابة ، او تهرب ولا اصبح قادرا على استعادتها مرة اخرى

بدون حذاء

احرص على : ورق معين ، موسيقي، حجرة معينة ، نوافذ مغلقة ، مكان له سقف ، درجة حرارة منخفضة ، ملابس صغيرة ، بدون حذاء٠٠٠ لما نرجع لتاريخ المبدعين نجد ان هناك ناس لابد ان يتوفر لهم جو خاص من جميع النواحي ليبدعوا ، لكن اخرين يكتبون في اسوءويمكن بدون الظروف السيئة لاستثمار رغبتهم في الابداع انا لابد ان اكون مستقرا نفسيا تماما وبلا اى (مشغولية) حولى من

جميع النواحي ٠٠٠ لابد ان اخلو من كل المشاكل والمشاغل ، اى متاعب ممكن تبرجل الواحد ٠٠٠٠ احب اكون صافى الذهن تماما وانا اعمل ٠

الغموض

(اما اختيار شخصيات رواياتي فأنني) القي الناس ، ثم يلفتني شخص لسبب ما اختار اسمائهم من الخيال (وصفتهم) بتلقائية ، وبتخطيط وبتدبير : بالتخيل ، والتامل ، وبمتابعة الحوادث والاخبار في مصادر الاعلام ، وبمعايشة بعض البيئات والمجتمعات كل شخصية ولها اصل واقعي ، من هذا التفصيل الصغير يمكن لي ان ابني حياة كاملة ، اضيف من عندى ما يناسب العمل ، وكثيرا ما يقرا الاشخاص الذين كتبت عنهم في كتبي ولا يعرفون انفسهم ، ولو تعرفوا لكانت الواقعه وحشة ٠

المصير الروائى يختلف عن المصير الحقيقي والناس يخلطون بينهما العمل الفني معقد والشخصية تتخلق من خلاله ، ولا يملك الكاتب نهاية شخصياته ، وبالتالى فانا لم اقصد في اعمالى الروائية خلق شخصية ثورية فيها وعندما تجيئ الشخصيات دون تخطيط فلا يمكن التحكم في نهايتها اما الرؤية التى تحكم الشخصيات وتتحكم فى مصيرها ، فهى تحدث كما يحدث في الحياة اليومية دون تخطيط محكم ، ولذلك فقد يكتب الكاتب نصف رواية دون ان يعرف مصير الشخصية في نهايتها ٠ وهذا ما يعطى الشخصية الدلالة ، وللغير حق الاستنتاج ،واذا كانت الشخصيات الثورية في رواياتي تنتهى نهايات ماساوية فذلك لان الثوار كانت حياتهم تنتهي بماساه ٠ هناك علاقات بيني وبين شخصيات رواياتى ، والعجيب في هذه الحالة ان الكاتب قد يبدا بشخص ما ، وسرعان ما ينسي الاصل لحساب الصورة الروائية ، وتستقر الحقيقة الروائية في الصورة ويصير الاصل صورة باهتة لها غير هامة بتاتا ، فما من موضوع يعالجة الفن حتى يحررنا منة ، بل حتى يعدمة اعداما ، ولكن لحساب حقيقة ابقى وانقي واشد تغلغلا في النفس ٠ (مشاعرى) مشاركة الشخوص في عواطفها مثلا ميرامار ٠٠٠ بدات كاشخاص منذ عام ١٩٥٥ ، وفكرتها لم تتبلور الا عند كتابتها فيتغير كل شئ فيها (بدات ب) معاشرة اصدقاء فى الاسكندرية ، وخادمة فلاحة تخدم احدهم وكنت معجبا بها (انقضي) حوالى عشر سنوات (قبل معالجتها في قصة) كنت استمتع بمعايشتها بدات بنية كتابة حياة اشخاص فتحول كل شيئ الى المعني السياسي تعبير عن وجهة نظر معينة لعرض قضية اؤمن بها

نعم اتبني افكارا معينة احاول عرضها من خلال الرواية سياسية ، دينية ، فلسفية ، (مع اعتقادى بوجود قيود) سياسية ، دينية ، اجتماعية (اتجاوزها بطريقة او باخري) تكون المشكلة واقعية ، او من الخيال (تجئ) منذ البداية و احيانا مع التقدم في العمل (احيانا يكون الحل جاهز) واحيانا لا اعثر علية تلقائيا او بالصدفة ، او بتدبير وتخطيط (حسب الاحوال) يبتكرعلى غير مثال ، واحيانا يجئ على نحو ما يمكن حدوثى او ما حدث من الواقع والثقافة (و) يمكن تجربة عدة وقفات حتى تجئ الوقفة التى تريح بانفتاح و باهتا ثم يتضح (وان حدث وجاء الحل في غير جلسات الكتابة اسجلة) او تكريرة لحفظة (اما المواقف و الافكار فانها) تجئ بلا تدبير ، ثم يتدخل الوعي فى منتصف الطريق (احيانا اضع في السياق بعض المواقف غير الواضحة) ٠ (والهدف) لعله يعبر عن طبيعتها او عن مدى جهد الكاتب فى تفهمها واحيانا يتعذر على الكاتب الوضوح لاسباب اجتماعية (واحاول ان يكون عملي لا يحتمل اكثر من معنى وهدف) الا اذا استعصت طبيعتة على ذلك (اما نهاية القصة) واضحة منذ البداية او تتضح مع التطور اجد صعوبة احيانا في انهاء الرواية باي واحدة من الشخصيات ٠ الافكار ٠ المشاهد ٠ المواقف ٠ اتخلص منها بحزفهم .

(اما المراجعة فتكون) بعد كل فقرة ثم في النهاية (واذا تخيرت بين ما الغي و ما ابقي احسم الامر) بالرجوع الي الاحساس ثم ياتي ما اسمية : " التبييض " فيشغل بقية السنة ٠٠ طبعا سنتي الكتابية كما تعرف محدودة بين اكتوبر وابريل ٠٠ المعانة الحقيقية في " التبييض "٠٠ ليس بمعني شطب كلمة

ووضع اخري وانما بمفهوم اعادة الكتابة وعند التبييض اكتب على مهل ، وبهدوء تام باستخدام القلم الحبر الذى تحول الى جاف ، ولا الجاء الى الشطب او الكشط اثناء التبييض الا في حالة الضرورة القصوي بشرط الا يزيد عن كلمة واحدة في الصفحة والا اضطر الى اعادة الكتابة من جديد.
والتبييض اقسى واشق مرحلة بسبب كثرة التعديل في الجمل والكلمات و ا لتعبيرات حتى اشعر بالراحة والاستقرار ٠ وربما اتوقف قليلا عن الكتابة واقلب الصفحة ، واجرى عملية مفاضلة بين اكثر من لفظ او تعبير او صورة حتى اعثر على التعبير المناسب الذى اطمئن اليه ٠
الغموض في عملية الكتابة سببه انها مبنية على الاحساس بنسبة كبيرة جدا ربما ٩٩ % ٠٠٠ مثلا انا غيرت كلمة ٠٠ لماذا ٠٠ ربما لان الاولى كانت للاخبار اما الثانية فكانت جمالية اكثر ٠٠ كل شيخ له طريقة ٠٠ هناك كتاب لايعرفون هذا (التبييض) ٠٠ الذى يكون دائما مختلف وغير الاصل٠
(اختار العنوان) في البدء ، في النهاية ، في الوسط (حسب الاحوال)، (وان كنت قد) تعودت ان اكتب القصة او الرواية ، وبعد الانتهاء منها واتمامها ابدا في كتابة العنوان ، وربما اخذ التفكير فى كتابة العنوان جهدا اكثر من كتابة القصة نفسها خاصة لو كانت قصيرة قبل البدء قلق وحنين في اثناء الكتابة الرضى – بعد الكتابة ٥٠ % من الرضا وبعد الانتهاء راحة ٠
علمتنى تجربتي الخاصة ان الوضوع وهو مجرد افكار وتخيلات يحظى بثقتي الكاملة ، لكن بعد مراجعتة عند تنفيذة يفقد على الاقل ٥٠ % من روعتة ، وعند مراجعته مطبوعا لا يكاد يبقي منة شئ هذا احساس عام مازال موجودا الى اليوم ، فالكاتب وهو يكتب يعتقد ان ما يكتبة يعكس ما يحس به ، اى زروة انفاعله بالتجربة ، وعند قرائته بعد ذلك يتضح له الفارق بين انفعاله فى ذاته وبين التعبير المكتوب عنه ، فيظهر هذا الهبوط الذى تحدثت عنه ٠ وربما كان هذا الاحساس حافزا للكاتب كي يؤلف عملا اخر يحقق فية التوافق بين التعبير وبين الانفعال ٠٠٠ وهكذا ٠٠٠ وانا لا احتفظ بالمسودات الاولى لرواياتي ، فمجرد ان انتهي من الرواية اقوم بتقطيع كل اوراقها ، انني كنت اعدمها ما عدا النسخة النهاية التى ارسلها الى الاله الكاتبة تمهيدا لارسال نسخة الى (الاهرام) واخرى الى الناشر سعيد السحار ، وحين تعود الى الروايى بعد ذلك في بضع نسخ من الكتاب المطبوع ، فانى ارسلها كلها الى اصدقائي ، فلا يتبقى عندى منها شئ الا الذكرى الحسنة

النقد معي وضدي

اهتم بالنقد وادرسه جيدا ، لا سيما ما يكتب منه عنى ، سواء كان معى او ضدى ٠٠٠ لا فرق ، واعكف على درس ما يوجهه الى من نقاط و اخذه بموضوعيه وطيب خاطر ٠ اى انني لا ارفضة ، ولا اجادل صاحبة عداء بعداء ، بل اكن له احتراما وتقديرا خاصين ، لانة اجتهد وثابر وحاول ان يقدم رؤية ما ، لا يهمنى بعد ذلك ان جاءت لصالحى ، او رافضة لعملي ، على شريطة الا ياتى بذيئا مترخصا ٠ كما ان للنقد مزية اخرى تتمحور حول اشاعة الكتاب ولفت الانظار اليه والى صاحبه ، واثارة نقاش جاد حوله يتسم بالحيوية والعنف ٠٠ وهذا كله مفيد ومرجو ٠ وقد سعدت – حقيقة – بما كتبه عنى ناقدان شابان جادان ، كان لهما شأن اى شأن فى حقل النقد الادبي ، هما المرحومان : سيد قطب و انور المعداوى وسر سعادته بما كتاباه انه جاء من نقدين محترفين يعيان معنى النقد ومسئوليته ودورة وكيفية ضبط مصطلحاته وتوظيفها دلاليا ، لان من كتبوا عنى قبلهما كانوا من القراء الهواه ٠ اما من جاؤا بعدما فقد غلبت عليهم النغمة الايدولوجية والحفاوة بالمضمون دون غيرهما من عناصر وجزيئات ٠٠ اى انه كان نقدا ايدو لوجيا محضا ٠ فانت تعلم ان العديد من المقالات كتبت ضد اعمالى ، بل توجد كتب في ذلك – قابلنى نقد مضاد ، قابلتة بعزيمة مضادة اقوى منه فقررت بإرادة من حديد ان اقراها قراءة موضوعية كانها من شخص اخر ، وان استفيد منها ما يمكن الاستفادة منها صممت ان لا تسوء العلاقة بينى وبين ناقد ما ، لانى اعتبرت ان الناقد يقوم بواجب وان الدخول معه فى معركة

يصدده او يصعب مهمته ، حتى انه لم اغضب طول عمرى من احد الا من واحد " انت تعرفه " تهجم على هجوما شخصيا جارحا فاعتبرته سبا ، اعذرنى اذا زعلت منه " انا صديق لنقادى ٠٠ هذه مساله تحتاج الى جهاد طويل مع النفس ٠٠٠ اى نقد في الدنيا – ثق في هذا – لن يرفع انسانا او يخفضه درجة عما يستحق ليس هناك انسان لا يسوءه ما يوجه اليه من نقد ، ولكن العبرة بالموقف الذى يتخذه من هذا النقد والا كان فاقدا للاحساس ٠٠٠ وهو بالعادة وبتقدم السن يسلم بالنقد المعتاد كأمر واقع عليه ان يتقبله وان يستفيد منه ما امكنه ذلك " وليس للنقاد " تاثير على سمعتي الادبية "للانفصام بين النقد والجمهور " (و) لم يؤثر النقد الجاد في مسارى لانه جاء بعد ما انتجت كثيرا وبعد ان قدمت الثلاثية ٠٠ ولكن السؤال عن علاقة النقد بالفن ، فاحيانا يتناول النقد " شيئا حتميا " او اخطاء حرفية ، بالنسبة للجزء الاول فلا يمكن للانسان ان يغير من طبعه اما الاشياء التى تدخل فى نطاق الصواب والخطأ فمن الطبيعي ان استفيد منها ٠

شيئ اخر احب ان اؤكده في هذا المجال ، ان بعض الادباء يشكو من تجاهل النقاد لانتاجهم اقول لهم : ان احسان عبد القدوس و يوسف السباعي نال شهرة عريقة وجماهيرية واسعة دون ان يكتب عنهم احد من النقاد (وانا اعمل على مراجعة افكارى ومواقفي على قدر الطاقة وعدم الخوف من تغيرها ما دام التغيير ينبع من اقتناع واستهداف للحق ، فانا عاشرت وعشت فترات ارتفعت فيها الى الذروة ، واخرى هبطت فيها الى الحضيض) وتكرر ذلك في حياتى مرات فتعهدت فيها بينى وبين نفسي الا يغبرني النجاح في الحاله الاولي ، والا استسلم للياس في الحالة الثانية ٠

لم يحدث اننى رددت على ناقد كما لم يحدث اننى اهملت قول ناقد ، ولعل الاساس في ذلك هو اننى اعتقد ان الرد على ناقد من اختصاص ناقد اخر وليس من اختصاص المؤلف الذى قال كل ما عنده في عملة المنقود ، ولاننى اعتقد ان نقد الدنيا والاخرة ان يرفع عملا او يخفضه عما يستحق درجة ، وانا احب دائما ان اعرض عملى الفني لعوامل الانتخاب الطبيعي ، فاذا كان يستحق الموت لمجرد ان ناقد هاجمه فمن الخير ان يموت ، واذا كان مقدرا له البقاء فسيبقي هناك نقاد دخلوا عالم كتاباتي بنفاذ كبير اذكرمنهم على سبيل المثال فقط : رجاء النقاش محمود امين العالم (وهو) ضمن اللذين الفوا عنى الكتب مثل غالي شكرى بل ان اللذين تناولونى في جزئية مثل محمود الربيعي و رجاء النقاش وعلى الراعي ، عكسوا الكل من خلال الجزء ثم هناك الدكتور " صمينح " الذى ادرك بوعى شديد كل ما كتبت وغاص فى روح الاعمال وفى موضوعاتها (ولكن) ما كتبة على الراعي عن الثلاثية سيظل من اجمل ما كتب عنها قاطبة ، فقد كانت له رؤية نقدية نافذه ، وكان اسلوب في معالجة العمل الفني خلابا ، وكان هو اول من قال ان الثلاثية تفتح باب العالمية امام الادب العربي ، ذلك قبل نوبل بعشرات السنين٠

حميدة

عندما كتبت " حميدة " لم اسمع انها تمثل مكان الا فى مقالين لنبيل الالفى ورجاء النقاش ٠٠ بعدها عدت للمقارنة : وجدت سيدة غلبانة تتطلع لانها افضل ولا تجد طريقا طبيعيا للرقي لانها لم تجد رعاية التعليم وغيره فتتجه الى الانحراف ، يجيئها من يبيعها للانجليز ، بالفعل وجدت كل شئ ينطبق على مصر ، وكان الذى يكتب عن " حميدة " كان فى ذهنه وخلفيته ٠

ولم استبعد صحة النقد الذى قال ان حميدة في زقاق المدق ، ترمز لمصر ، وهو معنى لم يخطر ببالى اثناء الكتابة ولا بعدها ، ولكن حين قارنت بين ظروف مصر و ظروف حميدة رايت تشابها كبيرا في الفقر والقهر ، هنا عميل للخواجات يريدها ان تعمل لحسابه ، وهناك عميل للخواجات يريدها للغرض نفسه ٠٠ هكذا لم استبعد انعكاس حالة مصر على حميده ، وقلت لنفسي انه ليس بعيدا ان التفكير المتصل فى العام يترك اثره على الخاص (انما زهره فى ميرامار) الحقيقة كان فى وعي بالدرجة

الاولى وانا اكتب انها تمثل مصر لاننى كنت اكتب خلال هذه المرحله بالرموز – ولذلك يقول لها البطل فى اخر الرواية – اذا كان خاب املك فى من احبوك دورى على غيرهم)
هناك من النقاد من يستكشف فعلا احد المعانى التى اقول انها لم تخطر ببالى ، ولكنها بعد ان خطرت ببال الناقد اتبناها ، مثلا تفسير محمد " لاولاد حارتنا " حين قال : ان الكاتب اراد ان الفكرة الوثانية عن الالة لم يخطر المعنى ببالى ، ولكنى تبنيته ٠

من الشاكرين

انتجت اعمالا كثيرة بالرغم من انى كنت طول عمرى موظف ،ولان احدا من الادباء لم يثر من الاهتمام مثل ما اثرته انا عند اقلام النقاد ، مع استحقاق الكثيرين غيرى لذلك ٠ ولا يوجد احد تحولت كل اعمالة الى سينما ومسرح واذاعة مثلى ٠
اذن يجب ان اكون من الشاكرين ، لان من وراء مثل هذه الحياة ولا يكون سعيدا وشاكرا يكون انسان نمرود واذا قلت لك انه مازال في الحياة الكثير ، وانى لم احقق كل ما اتمناه اكون انسانا منافقا ٠

القراء ٠٠٠٠ شهادة الوجود

ليس التعريف الصحيح للكاتب انه الذى يكتب ، ولكن الاصح ان تقول انه الذى يقرأ ، وطالما انه لم يصل الى قراءه بعد فهو مشروع كاتب ليس الا ، مهما يكن رايه في نفسه او رأى اصدقائه فيه واذا اعترف به النقاد قبل ان يلتفت اليه احد من القراء فاعترافهم اجتهاد وتنبؤ ولكنه لا يصبح كاتبا حتى يهبه قرائه شهادة الوجود ، واعرف انه قد يوجد من الكتاب من يسبق زمانه كما يقولون ، ويتاخر الاقبال عليه ، غير انه يظل مشروعا حتى يجئ الزمان بقرائه فيمنحوه شهادة الوجود الحقيقي والحقيقة انه ما من كاتب الا ويكتب لجمهورا ما يهتدى اليه بفطرته ، وقول البعض انه لا يهتم بالجمهور قول غير صحيح وغير اخلاقي ٠ والادب كغيره وظيفة اجتماعية اكتسبت اهميتها بما هى رساله موجهه لجمهور ، وقد يقول كاتب انا اكتب إرضاء لذاتى اولا واخيرا ٠٠ في تصورى :انا اكتب لجمهور ما من خلال إرضاء ذاتى لا سعيا للجمهور باى ثمن ٠ وعى كل كاتب ان يقدم خير ما عنده ، بخير ما يملك من قدرة واتقان ، وان يهتم بالايصال ، اهتمامة بالتعبير ، دون تضحية بقيمة من قيم الفن والابداع ٠ وتبعا لسعيه واجتهادة يصل الى الجمهور المقسوم له ، ويكون ذلك الجمهور بنوعيتة ومستواه دليلا صادقا على نوعية الكاتب ومن الكتاب من يرضي الخاصة ، ومنهم من يرضي العادين ومنهم من يرضي الخاصة والعامة وفي جميع هذه الاحوال فالجمهور هو الذى يعطى شهادة للكاتب وهو الذى يحدد قيمته ٠
ان المثل الاعلى لكل اديب هو ان يرضي الخاصة ويصل في الوقت نفسه الى الانسان العادى ، ويهيا لى ان الكاتب وهو يكتب امن هو يكلم نفسهاى انه يكتب لنفسه ، ولا اعتقد ان علية ان يكتب للجماهير بشكل مباشر، وان كانت الجماهير دائما تحتل مكانا ما فى خلفية ذهنة ولا يجب ان تكون هي فى مركز الصدارة والا كان ذلك على حساب اشياء اخري كثيرة ، ان الكاتب وهو يكتب يفكر فقط في العمل ، وفى نفسه ، قارئ يشبه، ثم عليه بعد ذلك ان ينتظر حظه ٠
الاساس هو القارئ لا النقد و لا غيره ٠ هذه كلها اشياء هامشية ٠ الكاتب مجرد مشروع حتى يجيد كى يصير كاتبا فعلا (لكن) عندما اكتب مقياسي هو االتى املكها ليس هناك شك في اننى احب ان ارضي وان لم يكن الجميع فعلى الاقل جزءا محترما منه الا يكون هذا قيدا على كتابتى ، بمعنى اننى لا ابتذل نفسي من اجل ان يكون لى عدد اكبر من القراء ، انما احب ان احافظ على شخصيتي فى الكتابة واتمنى ان تحوز الكتابة اعجاب الجميع ٠

الكاتب الغربي يستطيع ان يقول انه يكتب للعمال او للفلاحين او " للبيراليين " ، اما انا فليست لدى امكانية هذا التصنيف · قارئ اتصوره دائما في محيطي اى الرجل الذى يتعلم ويحب الثقافة سواء كان عاملا او فلاحا او طالبا او موظفا · هؤلاء اسميهم القارئ الذى اعلمه اننى كاتب فعلا لاننى امارس الكتابة واغلب قرائى من العمال وطلبة الجامعة ·

الرسائل تصلني من الطلاب و الموظفين نساءا ورجالا اما الذى يحييني فى الشارع او سائق التاكسي ، فانه جمهور لم يقراء لى حرفا ، وانما شاهد اعمالى فى السنيما والتليفزيون هاتان الوسيلتان هما الجسر بيني وبين قطاع كبير من الاميين ·

اسعد سعادة خاصة عندما اصادف فى هؤلاء بعض العمال ، لدلالة ذلك من ناحية الوعي والشعبية ، وليس نادرا ان نتبادل الحديث فى الاتوبيس · وتتراوح الرسائل التى اتلقاها بين نوع بسيط يطلب صورة ، وبين نوع جاد واغلبه من البلاد العربية يناقش مناقشة جدية ترتفع فى كثير من الاحيان الى مستوايات النقاد انفسهم ، ولا تسن عن سرورى بذلك ، ومما يستحق التنويه ان قارئات الادب الاتى صادفتني في مصر قارئات بالمعني الحقيقي ، وكثيرا ما القاهن مصحويات ازواجهن ، ولم الق واحدة من مدعيات الاعجاب المراهقات الاتى يحدثنى عنهن صديقي امين يوسف غراب ·

لماذا نكتب الادب ؟

الرواية تكتب لبضعة الاف من المثقفين ، السينما تحولها الى عمل يقدم للمـــــلايين ، ولا تنسى ان ٧٠ % من هؤلاء الملايين الاميين · هناك تغييرات فنية تفرضها الصوره وتغييرات تجارية ، وتغييرات يفرضها الواقع · لا يمكن لك ان تلقي محاضرة عن الثورة الفرنسية في الجامعه وفي المدرسة الابتدائية بشكل مماثل · الثورة لم تتغير ولكن الطريقة التى تقدم فيها موضوعك يجب ان تتغيير من هذه الناحية اعتبر ان ما قدمتة السينما من اعمالى ناجح " وكويس جدا " ·من يقول ان السينما شوهت روايـاتى هم المثقفون اللذين يريدون ان يروا الكتاب الذى يعرفونه فى الفيلم الذى يرونه · لو كان يمكن للفيلم ان ينجح تجاريا معتمدا عليهم فقط كمشاهدين لقدم بطريقة اخري ، ولكنهم لا يمكن ان يملوا السينما اسبوعا واحد فقط · اذن ما فعلته السينما كان جيدا ، لانها قدمت رواياتى لاولئك اللذين لا يمكن ان يقرؤوها ، وبالطريقة التى تناسبهم ·

نحن لماذا نكتب الادب ؟

لكى نمتع الناس ·· انا بالقلم والكلمة امتع قدرا من الناس ، والسينما وصلتني لامتاع قدر اكبر وجعلتني اسعد عددا اكثر ، فانا افرح عندما اشاهد انسانا بسيطا حافيا سعيد (امامى ، فكون قد جاءت ليست كما كتبتها " زى بعضه " الناس يقومون بخدمة بعمل تربوي ، هذا العمل التربوى لا يخلو من اغراض تجارية ، والسينما تجارة وصناعة ·· لماذا نحزن ونقلب الدنيا لانهم عملوا رقصة او غيرها حتى يمشي الفيلم ·

كنت فى الاول اتصدم صدمة فظيعه ، لما اري ان رواياتى شئ والمعروض على الشاشة شئ اخر " مثلا " فى فيلم (الخادمة) عن قصة قصيرة لى اسمها " الزيارة" ·· و لان هذا الواقع ··وقد عملت بكتابة السيناريو فترة من حياتى لا تقل عن عشرة سنوات ·· ولأقدم لك اعرف العمل ومتطلباتة الفيلم قدم موضوعا جديدا حيث لا يوجد اى شبة بين القصة والفيلم عدا وجود السيدة المشلوله وحتى سبب الشلل مختلف والرؤية مختلفة تماما ·· ولذلك فان الخطا فى الفيلم انهم وضعوا اسم نجيب محفوظ علية باعتبار ان القصة والواقع انها مستوحاه من قصة نجيب محفوظ اما القصة السينمائية من تاليف صاحبها نعم (هذا ظلم للاديب) خاصة وان الناس احيانا يحملون الكاتب مسئولية ما يقدم لانهم

لايعرفون الفوارق ٠٠ وما دام الفنان قد اختار اديبا ما فيجب عليه الالتزام الادبي قدر الإمكان ٠٠ هذا هو المفروض لكننا لا نستطيع ان نتحكم في الفنانين او نجعل من ذلك قانونا يجب احترامة ٠

سينارست

عندما عرض على كتابة عمل كبير للسينما كان لابد من أدراك قواعده وتقنياته والظروف المحيطة به كجنس فني مغاير لما اعتدت كتابته من قبل أن السينما دخلت حياتي من الخارج لم أكن اعرف عنها شيء نعم كنت أحب أشوف سينما لكن كيف يعد الفيلم لا اعرف لا ادري أن هناك كاتب سيناريو أو غيرة عرفني صديقي المرحوم الدكتور فؤاد نواره بالمخرج صلاح أبو سيف وطلب مني أن أشاركهما في كتابة سيناريو فيلم للسينما وكان صلاح أبو سيف هو صاحب فكرة الفيلم (عنتر وعبلة ١٩٤٥) وقد شجعني للعمل معه أنة قرأ لي " عبس الأقدار " واوهمنى ان كتابة السيناريو لا تختلف عما اكتبه عندما سألنى عن ما هية السيناريو الذى لم اكن اعرفة والحقيقة انني تعلمت كتابة السيناريو على يد صلاح ابو سيف ٠٠ كان يشرح لى في كل مرحلة من مراحل كتابتة ما هو المطلوب منى بالضبط وبعد ان انفذه اعرضة للمناقشة التى كان يشاركنا فيها الدكتور فؤاد نوره ومعه عبد العزيز سلام ٠

لقد احببت التجربة الجديدة ، وقبلت خوضها ضربا من التحدى ، ورغبة فى التعلم والافادة ، فوجدت اننى استطيع الاسهام بقسط فى تشييد المعمار الذى نعمل من خلالة و به ، او بتعبير صلاح ابو سيف انه – اى انا – يقيم الاسمنت المسلح لعمارة السيناريو ٠٠ فالعمل هنا عمل جماعي ، و ليس فرديا بالمرة اى يتشارك فيه الجميع بما فيهم الممثلون ، بحيث يتكاملون ويتناغمون ، ولعلك تذكر كلمة " جان جينه " المهمة " على المخرج ان يتعامل مع الخادمات بوصفهن هيكلا لنص درامي " ٠

ولا يعيب السينارست ابدا ان يصغي لملاحظات المخرج ، او ان تتفق رؤيتهما حول العمل ، فهما لا يعملان فى جزر منفصله او معزولة بل هناك حوار دائم بينهما ما فتئت اسبابه ووشائجه نتصل ونترابط يوما اثر يوم ٠ اضف الى ذلك ان هناك اواصر قريبه فكرية متينة نشأت بيننا منذ وقت مبكرا ، واكتشافها كل منا فى الاخر بسبب ميولنا الاشتراكية الواضحة ، وانحيازنا الى صف الطبقات الفقيره والمضطهدة ، وهذا موجود بجلاء فى اثارنا الفنية (افلامى وكتاباتى الادبية) ٠

لذا لم ابدا العمل من مخرج رومانسي صرف مثلا ، او مع اخر ذى نزعة تجارية – تغازل الجمهور و تدغدغ مشاعره وغرائزه الحسية ، خطبا لود الشباك التذاكر ٠ لا ٠٠٠ بل كنت حريصا على تاكيد هذا المنحى والتوجه الاستراكى سواء فيما اختارة من اعمال للاعداد السينمائي ، او فيما يسند الي عمله فى هذا الحقل ٠

وقد أسفدت حقيقة – من عملى في مجال السيناريو ايما افادة فوعيت ما للانجاز والتكثيف والاقتصاد في القول من مردود حيوي على العمل الفني ٠ الفائدة أذن متبادلة بين الادب والسيناريو ٠ اما على صعيد الحرفه ، فالسيناريو خير موجه للاديب ، حسب نوع الرواية التى يكتبها او يعالج موضوها ، بما يتيحه من خبرة لطبيعه القماشة التى يتحرك فى اطارها الفنانى ٠

(وعلمت) انة يجب ان ارى الفيلم في ذاتة من غير مقارنة بالرواية المكتوبة ، كشيئ قائم بذاتة حتى استمتع بالفيلم و الحقيقة ان الرواية العظيمة لا يغنى عنها شيئ اخر ، لكن فية روايات لا يغنى عنها شيئ اخر ، لكن فيه روايات يغنى عنها الفيلم ، وفيه روايات ، الفيلم يبقي احسن منها (بالنسبة لى) لا توجد شروط مادامت الرواية اعجبتهم ، فلياخوذوها غالبا ما تنقطع صلتى الا اذا اراد اصحابها السينمائيون ان يعرضوا على العمل ، او اختلفوا فى شيئ و ارادوا ان يحتكموا الى ، فاقول رايي ، اما ان ياخذوا به او لا ياخذوا ، فرايي استشارى فقط ، وقليلا ما يحدث هذا الاحتكام .

المخرج هو مؤلف الفيلم ورئيس الفريق السينمائى و عبقريته ، وهو الذى يعطى للفيلم ايقاعه وتصوره وكل حاجة ، فهو مؤلف الفيلم فى النهاية ، فاهل السينما يغيرون فى العلاج الفنى ، اما وجهة النظر

غالبا يحافظون عليها لان التغيير في وجهة النظر لا يقبله اى مؤلف ، وانه ليس اعتداء على الفن انما هو اعتداء على حقوق الانسان .

قلت لك انا غير متتبع للسينما فى مصر (منذ سنوات) ، لكن ما اسمعه من اصحابي يؤكد انه فى السنوات الاخيرة صارت الافلام الجيدة نادرة جدا ، والهابطة اشتد هبوطها لدرجة فظيعة هذا راجع فيما يبدو للتغييرات التى حدثت في المجتمع المصرى نتيجة للحالة الاقتصادية التى رفعت ناس وخفضت ناس ، لذلك تجد ناس كثيرين من اللذين صعدوا ماديا ليس عندهم البطانة الثقافية التى تساوى تحصيلهم المادى ، وهم زبائن السينما والمسرح ، حيث يقدم لهم ما يناسب حالتهم

(الجمهور عايز كده) هذه مقولة مهمة جدا ٠٠ دعك ممن يقولنها وما يقصدونه منها ، انما انا اتكلم عن المقوله فى ذاتها ، الجمهور عايز كده ، معناها ان ما الذى يحبه الجمهور يتطلع اليه هذه أشياء بما تكون في غاية النبل وتخرج منها أعظم أعمال فنيه ، ويبقي الجمهور عايز كده ، ويبقي الفنان يشارك الجمهور انه عايز كده فالجمهور يريد الحرية والاستقلال والعدل والكرامة ويريد أن يضحك ويكون مبسوطا ٠ فالجمهور لا يطلب شيئا سيئا، لكن كون الجمهور تستهويه فى بعض الاحيان شهوات ، فيجب على الفنان الا يقدم للجمهور الا النبيل مما يريده الجمهور (ولكن هذه المقوله) استغلت استغلالا خطا لتغطى خطايا واخطا ناس ، ومن يقدم الردئ بحجة الجمهور عايز كده يعنى انه عايز حاجات دنيئة وعايز يتستر بالجمهور لانه فاكر ان الطريق لشباك التذاكر هو اشباع الجانب الغريزي الواطى فى الجمهور ، بينما الشباك ياتى ايضا باشباع الجانب السامى فى الجمهور (لان) الفن له هدفه ، وهدفه لايتعارض مع الشباك ، واذا وجدت فى ظروف نادرة أن الهدف لايتفق مع الشباك ، فهذا امر تتعرف فيه بنفسك وبضميرك كفنان ، لان الفنان الصادق يفضل الهدف فى هذه اللحظة .

ارى ان الرقابة يجب ان تدرس موضوعها جيدا بتوسع وحرية وتتخذ قراراتها برشد ولا تتنازل عنها بعد ذلك ، اما انها توافق على افلام وترجع تسحب كلمتها فهذا يدل على العجز ولايجوز ان يتحمل الفيلم واصحابه عجز الرقابة ، ومايجوز ان يعرض فى السينما لايجوز عرضه فى التليفزيون لان الفيلم الذى يذهب الناس لمشاهدته غير الفيلم الذى يأتيهم فى البيت ، فهذا يجب ان يناسب الاسرة التى ليس لها ذنب ان ترى الفليم الذى جاءها فى البيت عن طريق التليفيزيون ، فهى غير مسئولة ، انما فى السينما انت المسئول لانك ذهبت اليها بقدميك (لان) فيه قدر من الحرية فى السينما يصح ان يستمتع به الرجل الناضج ، لكن فى العائلات والبنات لايجوز من يريد ان يذهب فليذهب ، لكن فيه رقابة على الفيلم ، وفية رقابة اشد على التليفيزيون لان جمهوره اكبر واكثر تنوعا بخروج العمل الادبى من دائرته مترجما بصور مختلفة فى السينما والتلفيزيون والاذاعة فاننى اخذت شهرة عند ناس من غير بيئة القراء اضيفوا لمعارفى من غير ان يكونوا من معارفى الاصليين الاليون هم الذين عرفونه عن طريق ادبى ومعارفى الجدد اسعد بهم ، لكن الاصليين يفهموننى اكثر عشقتها (السينما) واشتغلت فيها وقدمت لها شيئا من الخدمة وعادت على باكثر مما اعطيتها ، ويشرفنى ان اذكر فى تاريخها .

اخذت منها حب ناس كثيرة وشهرة أوسع من شهرتة الادببية وجزاء مادى الذى تقول لى عليه اننى لا اساوم فية ولكن لو قارنته بالجزاء الادبى لوجدت الجزاء الادبى عظيما ٠

اغلى امانى فى الحياة

واصدقك القول اننى وجدت كذلك فى هذا العمل (السيناريو) فائدة مادية تفوق اضعافا مضاعفة ما حصلت علية من عملى الادبى ٠ الامر الذى عوضنى كثيرا عن فقر الادب ، وجنبنى العديد من العثرات التى كان بمقدورها ان تعوق مسيرتى فى الحياة ، ووجدت فى هذا العمل عزاء نفسيا عن موت رغبتى فى الكتابة الروائية ، وهناك صلة كبيرة بين العملين ، فكلاهما ابداع وصنعة مثل معالجة الشخصيات وعمل الحبكة والحوار وغيرها .